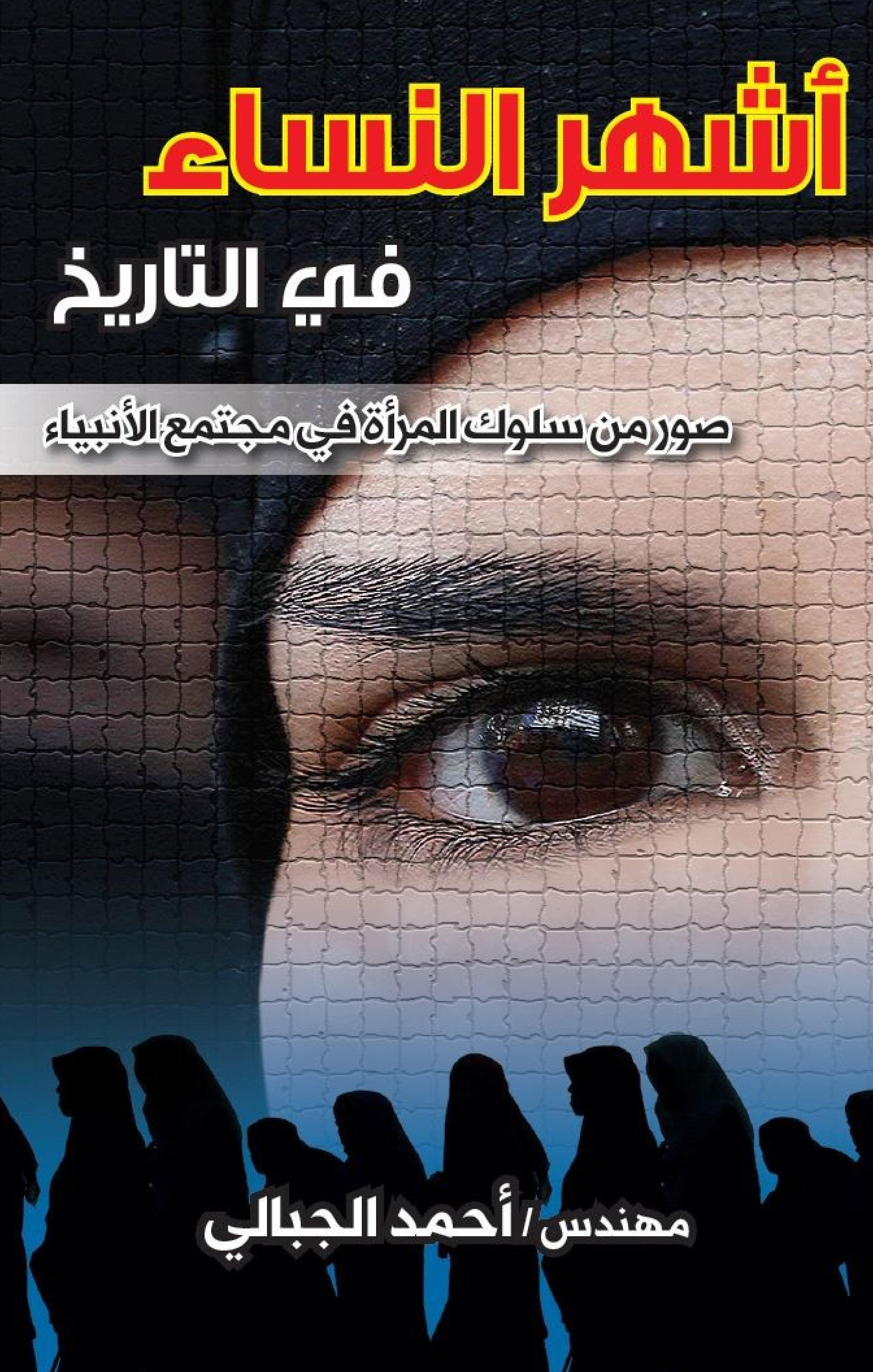


أشهر النساء

في التاريخ

صور من سلوك المرأة في مجتمع الأنبياء

مهندس / أحمد الجبالي

أشهر النساء في التاريخ

صور من سلوك المرأة
في
مجتمع الأنبياء

أحمد الجبالي

رقم الإيداع ٤٧٤٠
الترقيم الدولي 6 8558 90 977 979

تقـــديم

اعتاد كثيرٌ من الكُتَّاب أن يكتبوا في سير الأنبياء ويسهبوا فيما يقوم به الرجال الأبطال في عهد كل نبي دون أن يتعرضوا لدور المرأة في تلك العهود؛ وربما تكون قلَّة المراجع في ذلك هي السبب.

وإني بقدر الاستطاعة جمعت أقصىٰ ما يمكن جمعه من معلومات لإخراج هذا الكتاب في صورة مبسطة ومختصرة لينتفع به الجميع، وليكون فكرة هادفة للكُتَّاب يتناولونه علىٰ مستوىٰ عالٍ من البحث والتوضيح.

وإن هذه المحاولة المتواضعة قد كشفت مبدئيًا خطورة دور المرأة في كل المجتمعات خاصةً في عهود الأنبياء ولقد كان القرآن الكريم أكثر الكتب المقدسة تسجيلاً وتقييمًا لدور المرأة في عهد كل نبي، كما أن المتصفح لكتابي يراه قد كشف بصدقٍ عن صفات وأخلاق وطباع النساء منذ الأزل، وهي تتكرر في كل زمان ومكان طبقًا للبيئة والمجتمع الذي توجد فيه المرأة، فقد تتكيف به أحيانًا، وقد يغلبها الطبع وتظل سائرة في غيِّها أو تقواها، وكانت أبرز صفات النساء التي كشف عنها البحث هي:

أولاً: الغيرة: وكان مظهرها في السيدة سارة زوجة سيدنا إبراهيم عليه السلام وزوجات النبي محمد صلى الله عليه وسلم وخاصةً في السيدة عائشة أم المؤمنين.

ثانيًا: الطهارة والتقىٰ: وكان مظهرها في جل أزواج وبنات النبي محمد صلى الله عليه وسلم وزوجات الأنبياء والسيدة مريم أم المسيح.

ثالثًا: الانحراف: وكان مظهرها في امرأة لوط وامرأة نوح وامرأة العزيز وزينب بنت الحارث وهيروديا.

رابعًا: المكر والمكيدة: وكان مظهرها في السيدة عنيزة والسيدة صدقة لتدبير فتنة لقتل ناقة سيدنا صالح.

خامسًا: الحكمة والعقل: وكان مظهرهما في بلقيس ملكة سبأ والسيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين.

سادسًا: الوفاء والطاعة: وكان مظهرهما في حواء، ورحمة زوجة أيوب عليه السلام، وميكال زوجة داود عليه السلام، والسيدة زينب بنت النبي صلى الله عليه وسلم، وبركة أم أيمن، وخولة بنت ثعلبة.

سابعًا: العزة والإباء والشرف والإيمان: وكان مظهرهما في هند زوجة أبي سفيان، وأسماء بنت أبي بكر الصديق، والخنساء.

ثامنًا: الأمومة الجارفة: وكان مظهرهما في السيدة هاجر أم سيدنا إسماعيل، والسيدة يوكابد أم سيدنا موسىٰ عليه السلام، وآمنة بنت وهب أم النبي صلى الله عليه وسلم، وجميع الأمهات عامة.

تاسعًا: الفطنة والذكاء والتصرف: وكان مظهرهما في رفقة زوجة إسحاق عليه السلام، والسيدة عائشة أم المؤمنين، والسيدة أم سلمة أم المؤمنين.

عاشرًا: التوبة الصادقة: وكان مظهرها في السيدة مريم المجدلية.

هذه بعض الصفات والأخلاق التي أمكن استنتاجها، ولا يمنع ذلك أن تشترك المرأة في أكثر من صفة، ولكن ما ذكرناه هو الأعم والمميز لها فقط.

وهذا ما يجعلنا أن نشبِّه المجتمع النسائي في عصوره المختلفة بحديقة غنَّاء فيها الأشجار المختلفة الأزهار والمتباينة الثمار، وفيها المتشابه وغير المتشابه وفيها الحلو الناضج والغض الفاسد.

وهذه هي المرأة في أطوارها المختلفة منذ خلق آدم إلىٰ عهد الإسلام تتشابه فيها الصفات والأخلاق وتتوارث فيها العادات والطباع حتىٰ عصرنا الحاضر فالمرأة هي المرأة.

والذي نرجوه من المرأة اليوم هو التمسك بالدين والتخلق بالفضائل والتحصن بالعلم.. فهي الأم والزوجة والأخت والابنة، بل هي مركز الثقل في المجتمع فإن صلحت رفرفت السعادة والمحبة علىٰ الدور والدنيا بأسرها.

المهندس/ أحمد الجبالي

١٨ يوليـــــو سنة ١٩٦٨م

٢٢ ربيع الآخر سنة ١٣٨٨هـ

المرأة في حياة آدم

«حـــواء»

هي أول امرأة خلقها الله وثاني خلقه بعد آدم عليه السلامن وهي لذلك تعتبر أم البشر جميعًا مثل آدم فإنه أبو البشر، ولقد خلقها الله في الجنة لتؤنس آدم فيها، ولتتمتع بنعيمها مثله، ثم ليسكن إليها آدم. وتكون الزوجة المباركة، ومن نسلهما تكون البشرية، وتعمر الأرض بهم ذلك قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ[1] وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[2]، ولقد تحقق آدم بالخلافة علىٰ الأرض وحده دون حواء ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[3]، كما خص الله الذكور فقط من ذرية آدم وحواء بالنبوة والرسالة ولم تحظ بذلك النساء، وأقصىٰ تكريم لها من أن الله أن تكون صدِّيقة.

خلق الله حواء من أحد ضلوع آدم[4] اليسرىٰ وصوّرها في جسم أنثىٰ وقدرته صارت مكتملة الجسم الإنساني لحمًا ودمًا وروحًا فيما يقرب من حجم آدم.. وهناك قول بأنها خُلقت من قطعة من لحم آدم في جنبه الأيسر انفصلت عنه ونمت وصارت حواء بقدرة الله، وسُمِّيت بذلك لأن أصلها من لحم ودم حي من آدم. ولذلك يعتبر آدم بالنسبة لحواء أبوها وأمها. ولكن

(١) آدم.
(٢) سورة الأعراف ١٨٩.
(٣) سورة البقرة ٣٠.
(٤) الحديث في البخاري، ج٧، ص٣٤.

حواء تمتاز في خلقها عن آدم لأنها خُلقت من جزء حي من آدم بينما هو خُلق من طين، وإلىٰ حواء يرجع الفضل في إنجاب البشرية ونسلها ولولا خلقها لآدم بهذه الصورة لتكون وعاءً للتوالد لما كان هناك أحد من بني آدم يدب علىٰ الأرض، وفي ذلك يقول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾[1].

وفي عقيدة الهندوس يقال.. إن الإله «براهما» خلق جسمًا عملاقًا وعملاقة متعانقين ثم نفخ في الجسد العملاق فإذا به ينشق نصفين نصفًا لرجل ونصفًا لامرأة واجتمع الزوجان وكان من نسلهما البشر[2].

ولقد قال الله لهما تعظيمًا لمقامهما: ﴿قُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3].

السعادة: بقي آدم وحواء في الجنة مدة من الزمن متمتعين فيها بنعيم الجنة وجنة النعم ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٞ ۝٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ۝٢٣ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾[4] تلك الجنة لا شمس فيها ولا حرور ولكنها تضاء دائمًا بنور عرش الرحمن، وبما أنهما من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم.

(١) سورة النساء ١.
(٢) النص ٣٢ ص٢٠ هنوسمرتي كتاب الهندوس القدسي.
(٣) سورة البقرة ٣٥.
(٤) سورة الواقعة ١٥-٢٦.

لم يسبِّب خلق حواء أية مشكلة بل كان مصدر السعادة والهناء لآدم طوال المدة التي قضاها بالجنة والتي كان يتمنىٰ أن تطول إلىٰ الأبد.

أثر خلق آدم: وأما خلق آدم نفسه فقد أثار في الملائكة تساؤلات وأوقع إبليس في مشكلة العصيان كما هو آتٍ:

أولاً: تساؤل الملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(١).

ثانيًا: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٢).

من هذا يتبيَّن أن حواء لم تشهد ما حدث من تساؤل الملائكة مع الله وسجودهم تكريمًا لآدم طوعًا لأمر ربهم، وكذلك لم تعلم حواء بامتناع إبليس عن السجود لآدم وجوزي علىٰ ذلك بالطرد من الجنة. ثم اللعنة

(١) سورة البقرة ٣٠.
(٢) سورة ص ٧١-٨٥.

الدائمة إلىٰ يوم الدين وحتىٰ نهاية البشرية علىٰ الأرض. لهذا أصبح إبليس العدو اللدود لآدم وزاد من حقده وكراهيته له أن يراه وقد أنعم الله علىٰ آدم بحواء يعيشان سعيدين علىٰ أحسن ما تكون عليه الحياة الزوجية. ففكر إبليس أن ينغص عليهما عيشهما ويعمل علىٰ إخراجهما من الجنة إلىٰ الأرض دار الشقاء والتعب. وذلك لأنه سمع قول الله ﷻ لهما: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا[1] عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[2] ففكر في تنفيذ ما حذرهما منه الله بأن يزيِّن لهما الأكل من الشجرة الممنوعة فيغضب عليهما الله ويخرجهما من الجنة.

فقال إبليس لآدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ ثم قال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾[3] فما ذاقا الشجرة الممنوعة عصيانًا منهما لأمر الله، ولكنهما في الحقيقة تنفيذ لإرادة الله؛ حتىٰ يحدث السبب الظاهري من آدم وحواء ليكون خروجهما من الجنة بسبب مخالفتهما للأمر الإلهي أخذًا بالأسباب إذا كان ذلك قدرًا مقدورًا.. وهناك رأي بأنها لم تكن معصية حقيقية، وإنما كانت صورة[4] ليرىٰ بنو آدم كيف يفعلون إذا وقعوا في محظور، كما أن الشجرة كانت مظهرًا فقط لارتكاب المعصية أو الخطيئة أو

(١) يقصد إبليس.
(٢) سورة طه ١١٧-١١٩.
(٣) سورة الأعراف ٢٠-٢٢.
(٤) المعصية حقيقية والآيات المذكورة بعد ذلك تدل دلالة واضحة.

المحرم، ويقول الله تعالىٰ في ذلك تبيانًا للغرض الحقيقي علىٰ هذه السقطة وتخفيفًا عن آدم: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾(١).

الغفران: ومن فضل الله علىٰ آدم أن ألهمه سرعة التوبة والاستغفار، فتاب الله عليه لأنه هو التواب الرحيم، ولو أن آدم هبط إلىٰ الأرض بدون التوبة والغفران لظل عاصيًا هو وذريته من بعده مثل ما عليه إبليس وذريته الآن، ولكن رحمة الله قريب من المحسنين، فأكرم الله آدم وتاب عليه وأصبح من نسله الأنبياء والمرسلون والصديقون والأولياء والعارفون ثم المؤمنون.

نوع الشجرة: كما يقال إن نوع الشجرة التي أكل آدم وحواء منها هي شجرة الحنطة، وظلت تلك الأكلة في بطنهما شهرًا كاملاً وتولد عنها الحاجة إلىٰ التبول والغائط، وليس في الجنة مكان ذلك إلا في الأرض بعد هبوطهما، وربما كانت شجرة الحنطة التي في الجنة هي من نفس النوع الذي ينبت علىٰ الأرض، وهو قوام غذاء البشر، وأوجدها الله في الجنة بقدرته وبذلك كانت مغايرة لشجر الجنة، فبمجرد أن أكل منها آدم تكشف جسمه النوراني، وصار عاريًا، فبدت لهما عوراتهما، ودارت الدورة الدموية في جسمهما، وبدأ العقل يعمل ويفكر، فأخذا يخصفان عليها من ورق الجنة أي يضعان من أوراق

---

(١) سورة طه ١٢٠-١٢٣.

الشجر علىٰ سوآتهما لتغطيتهما خجلاً وحياءً، وقد كانت حواء بطبيعتها أسرع إلىٰ هذا العمل، وصار ذلك بالوراثة في جنسها من البشر..

حمل حواء في الجنة: ولقد ترتب علىٰ هذا التطور في حياة آدم وحواء والشعور بالمسئولية وتولد الحواس فيهما أن آدم قد تغشىٰ حواء، فحملت حملاً خفيفًا فمرت به، ولما أثقلت ولم تكن الجنة محلاً للولادة فإنها وضعت حملها بعد أن نزلت علىٰ الأرض، ومن العجيب أن يكون الابن الذي حملت به في الجنة هو أول عاصٍ علىٰ الأرض من بني آدم بسبب خطيئة القتل التي ارتكبها ضد أخيه؛ وحقق بذلك العمل المشين نبوءة الملائكة الذين قالوا لربهم عن خلق آدم ليكون خليفته في الأرض: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[1].

الهبوط من الجنة: اختلف الناس في مكان الهبوط علىٰ الأرض فبعضهم قال إنه هبط في أرض الهند، وبعضهم قال بالشام في مكان بلاد المقدس، وبعضهم قال كان الهبوط في البيت المعمور مكان الكعبة، وأما كيفية هبوط آدم وحواء من الجنة من السماء إلىٰ الأرض فهذا أمر يتعلق بقدرة الله، بل ويتعلق بالإيمان في تصديقه والتسليم به لأنه شبيه بصعود سيدنا عيسىٰ عليه السلام إلىٰ السماء، وكذلك شبيه بالإسراء والمعراج لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

وزيادة في الشرح نقول: إن آدم وحواء نزلا من السماء إلىٰ الأرض بقدرة الله، ثم صعد سيدنا عيسىٰ من الأرض إلىٰ السماء، كما أن سيدنا محمد

(١) سورة البقرة ٣٠.

ﷺ صعد إلىٰ السماء ثم نزل منها إلىٰ الأرض، فاكتملت بذلك دائرة الإعجاز مثل دائرة الخلق، فإن آدم خُلق بدون أب أو أم، ثم خُلقت حواء من آدم، ثم خُلق عيسىٰ بدون أب، ثم خُلق البشر من أب وأم.

وفي هذه الحالات جميعًا فإن ملائكة الرحمن تسخر في تنفيذ أمر الله بهذا الصعود أو الهبوط ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

وليس في ذلك مجال للمناقشة العقلية، ولكنها من باب التسليم والإيمان، كما أنه في رأيي أن آدم وحواء نزلا في مكان واحد في تلك الأماكن المقدسة سواء في مكان مكة أو مكان بيت المقدس.

كما أني أظن أن كلاً منهما كان ضخم الجسم قوي العضلات، حتىٰ يتلاءم مع المعيشة علىٰ الأرض بين الحيوانات المفترسة من أسود ونمور وفيلة وغيرها، فلا يستبعد أن كان طول آدم خمسين مترًا[1]، حتىٰ يعيش علىٰ الأرض وتكون له الغلبة الجسمانية علىٰ الحيوانات بها.

أبناء حواء: لقد أنجبت حواء علىٰ الأرض عشرين بطنًا في كل مرة توأم أحدهما ذكر والآخر أنثىٰ، أولهم ابنها البكر «قابيل وتوأمته إقليما»، وثانيهما «هابيل وتوأمته لبودا» وكانت إقليما أكثر حسنًا وجمالاً من لبودا.

وقد أوحىٰ الله إلىٰ آدم بعد أن كبر أولاده أن يزوج كل ولد بتوأمة الولد الآخر، أي أن الرجل منهم يستطيع أن يتزوج أي واحدة من أخواته ما عدا توأمته التي وُلِدت معه فإنها لا تحل له، ولهذا أمر آدم أن يتزوج «هابيل» من «إقليما»، فرفض «قابيل» بسبب أن «لبودا» أقل جمالًا من

(١) طول آدم ستون ذراعًا الحديث البخاري، ج٤، ص١٦٠، طبعة الشعب.

«إقليما»، واصر علىٰ أن يتزوج من توأمته «إقليما»، فقال آدم لولديه قابيل وهابيل قربا قربانًا لله فأيكما يُقبل قربانه يتزوج من «إقليما» وفعلاً؛ قدم قابيل كمية من ثمار زرعه لأنه كان يعمل بالزراعة، وقدم قابيل قربانًا ارتضاه فقُبل من هابيل.

وفي ذلك يقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾[1].

أول جريمة قتل: قال «قابيل» لأخيه «هابيل»: لأقتلنك. قال هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧ لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ[2] نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ[3] فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾[4].

عمل الشيطان: بهذا نجح إبليس في أول عمل يقوم به ضد بني آدم فوسوس إلىٰ قابيل أن يرفض زواج «هابيل» من أخته توأمته، وأن يزين له جمالها فيتزوجها «قابيل»، ثم أوغر صدره ثانية في أن يقتل أخاه «هابيل» وتم له ذلك، وكانت أول جريمة قتل في بني آدم وقعت علىٰ الأرض، وصعدت

---

(١) سورة المائدة ٢٧.
(٢) قابيل.
(٣) هابيل.
(٤) سورة المائدة ٢٧-٣١.

روح «هابيل» تشكو إلىٰ ربها ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وكانت هي روح أول شهيد تدخل الجنة، فكان الدافع إلىٰ ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء بإزهاق روح «هابيل» هو المرأة، وبسببها أيضًا دخلت روح قابيل النار، وكانت أول روح من بني آدم تدخل الجحيم.

ولقد حزن آدم وحواء علىٰ قتل ابنهما «هابيل» وبكيا عليه أشد البكاء، ولأول مرة يبكيان وكانت حواء أكثر حزنًا وبكاءً لأنها حُرمت من رؤية ابنها إلىٰ الأبد، ولأول مرة يعرفان الموت في أبنائهما، وأثره المؤلم علىٰ عاطفة الأبوة فيهما، ولم تطق حواء أن ترىٰ ابنها قابيل أمام عينيها ملطخة يداه بدم أخيه البار، وطلبت من آدم أن يبعده عنها هو وتوأمته «إقليما» بسبب تلك الجريمة الكبرىٰ، فطردهما آدم من المعيشة عنده فرحلا إلىٰ الجنوب في مكان أرض اليمن، وعاشا فيها وأنجبا نسلًا كثيرًا، وأما باقي أولاد آدم فاستمروا مع أبيهم وتزوجوا كما أمرهم الله، وأنجبوا ذرية كثيرة في حياته، ثم تفرَّقوا في الأرض لتعمر بهم.

عمر آدم وحواء: لقد عاش آدم ألف عام وكذلك عاشت حواء ألف عام، ثم مات آدم وبعده بعام واحد ماتت حواء ودُفنا بجوار بعضهما، ولكن قبرهما غير معروف موقعه الآن، وهو بالطبع في المنطقة التي عاشا فيها كما سبق ذكرها.

تســاؤل:

١- لو لم يأكل آدم من الشجرة الممنوع عنها في الجنة، لظل هو وحواء في الجنة ما شاء الله حياة أشبه بحياة الملائكة، وبالحياة في الدار الآخرة لا تكليف فيها ولا شقاء بل عباد مكرمون لربهم ساجدون ولخالقهم مسبحون.

٢- لو أن الله استجاب لرجاء الملائكة بأشفاقهم علىٰ الأرض من آدم وذريته بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾(١) واستخلف الملائكة علىٰ الأرض والمعروف أن الملائكة لا تأكل ولا تشرب ولا تنام وليسوا ذكورًا ولا إناثًا. بل هم نوع واحد نوراني مخلدون يتوالدون خلقًا بالانفصال الذاتي علىٰ غير حال الإنس، ولهم القدرة علىٰ التنقل بسرعة لا يصدقها العقل لقوله تعالىٰ: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ﴾(٢) لهذا يكون وجوهم علىٰ الأرض مغايرًا لما عليه البشر، ولكونهم مطيعين بطبيعتهم لأمر الله دائمًا فليس هناك خطيئة ولا عصيان لأنهم معصومون ولا يكونون في حاجة إلىٰ أنبياء ورسل ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(٣)، ولكونهم نورانيين فهم في غنىٰ عن الماديات فينعدم بذلك بينهم الصراع والتنافس وحب السيطرة والتملك لأنهم ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾(٤) لا يجتهدون إلا في عبادة الله تقربًا من رحمته ورجاء في رضائه، وأما عمل الدنيا وخيرات الأرض ومقدراتها من حيوان ونبات وجبال وأنهار وبحار فلا يحتاجون إليها في شيء، وبذلك يتعطل استغلال ما علىٰ الأرض من حيوان ونبات وجماد وتظل الأرض كما هي عليه كونًا طبيعيًا يخضع لسُنَّة الحياة والموت دون عقل أو تفكير يهدي إلىٰ العلم والتقدم ويتعرف إلىٰ الله عن طريق النظر في ملكوته ويتوصل إلىٰ أن لهذا الكون خالق أوجده وهو أحق بالعبادة والإجلال.

(١) سورة البقرة ٣٠.
(٢) سورة فاطر ١.
(٣) سورة التحريم ٦.
(٤) سورة الأنبياء ٢٠.

سيدنا نوح عليه السلام

امرأة نوح: لم يُعرف اسمها وذُكرت في القرآن والتوراة بأنها امرأة نوح أو زوجته فقط، ولكي نناقش قصتها رأينا أن نذكر بعض التفاصيل في حياة نوح مما يلقي الضوء علىٰ المجتمع الذي عاش فيه، وأهم الحوادث في عهده كما يأتي:

قوم نوح: رغم قُرب عهد نوح بعهد آدم إذ إن ميلاد نوح بعد وفاة آدم بمقدار ١٢٦ سنة كما أنه حفيده العاشر إلا أن الكفر والفسق والشرك بالله كان من سمات قوم نوح إذ يقول الله فيهم ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[1] وأيضًا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2].

خيانة امرأة نوح: ومن المؤسف المحزن أن تكون امرأة نوح علىٰ أخلاق قومه من النفاق والكفر، ولم يشفع لها كونها زوجة نوح من عذاب الله الشديد، بل ضاعف لها العذاب، وجعل مأواها جهنم، وبئس المصير، ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[3].

انحراف: لقد تجاوز بعض المفسرين الحد في اتهام امرأة نوح بالزنا، تأويلًا للخيانة المذكورة في القرآن؛ لأنهم ربطوا ذلك بالحادثة المذكورة بابن

(١) سورة الذاريات ٤٦.
(٢) سورة الأنبياء ٧٧.
(٣) سورة التحريم ١٠.

نوح بكنعان» الذي تخلَّف عن الركوب مع أبيه في السفينة أثناء الفيضان ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾[1].

ويخلصون من هذا الربط أن «كنعان» ابن نوح الذي غرق مع القوم الهالكين؛ لأنه لم يكن مؤمنًا بدعوة أبيه، قد تكون أيضًا أمه هي نفسها امرأة نوح التي انحرفت وكانت من الكافرين.

البراءة من الزنا: ولكن يجب استبعاد مثل هذه الآراء، ويُترك أمر زوجة نوح إلىٰ الله احترامًا لبيت النبوة؛ لأنه لا يمكن لامرأة نبي أن تفعل الفاحشة فهي مبرأة من الزنا، وحقيقة جرمها أنها كانت تتهم نوح بالجنون، ولم تؤمن بدعوته، ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾[2]، وأيضًا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[3].

(١) سورة نوح ٤٢-٤٧.
(٢) سورة القمر ٩.
(٣) سورة المؤمنون ٢٥.

تعليق: لقد كان عذاب الله لقوم نوح هو الطوفان الذي أغرق جميع الكافرين من بني آدم ولم ينج منهم إلا من آمن بنوح وركب معه في السفينة ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾(١).

عندئذٍ تكون امرأة نوح قد غرقت مع قومها، أو تكون ماتت من قبل الطوفان؛ لأنه جاء في التوراة بأن الذين ركبوا الفلك مع نوح هم زوجه وأولاده الثلاثة سام وحام ويافث وزوجاتهم، وذكر وأنثىٰ من جميع الحيوانات والطيور والزواحف، تاركين وراءهم الآلاف من القوم الكافرين يتجرعون كأس الموت غرقىٰ لأنهم كانوا أظلم وأطغىٰ، ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾(٢) لتعمر الأرض بالمؤمنين بالله بعد أن تطهرت من الكافرين به، وبارك الله في نسل نوح بعدئذ وكان منهم الأنبياء والصالحون تحقيقًا لقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾(٣)، وكذلك: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٤).

مقارنة: وآية هذه السفينة أنها ظلت طافية سنة تقريبًا، تصارع الأمواج الصاخبة، والرياح العاتية؛ الأمر الذي لا يتيسر لإحدىٰ البواخر في عصرنا هذا، تلك التي تمخر عباب المحيطات وتسيرها الآلات الميكانيكية

---

(١) سورة هود ٢٠.
(٢) سورة الأعراف ٦٤.
(٣) سورة الصافات ٧٧.
(٤) سورة هود ٤٨.

الضخمة، والمحركات الكهربائية الهائلة، أو القوىٰ الذرية الحديثة؛ ورغم ذلك فإن بعض هذه البواخر عابرة المحيطات تتعرض للغرق بسبب العواصف المدمرة والتيارات العارمة والأمواج المتلاطمة ثم في الوقت نفسه لا تستطيع البقاء سنة كاملة دون تموين أو وقود.

ولكن سفينة نوح أدت مهمتها أثناء الطوفان وحفظها الله من الغرق أو العطب، ولما شاء الله بإنهاء الطوفان ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ﴾[1] وهو جبل في شمال العراق أمر الله نوحًا أن ينزل إلىٰ الأرض بقوله تعالىٰ: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾[2]. ولذلك يسمون نوحًا بأنه آدم الثاني لن الأرض عمرت به وبذريته وأتباعه المؤمنين الذين حملهم معه في السفينة.

هذا هو فضل سفينة نوح المباركة المقدسة علىٰ العالم، فلولاها لما وُجد علىٰ الأرض إنسان ولا حيوان ولا طائر، ولأصبحت الدنيا خرابًا، ولا يعلم مصيرها إلا الله.

الطـوفان: هل كان الطوفان عامًا علىٰ جميع سطح الكرة الأرضية أم خاصًا بالمنطقة التي كان يعيش فيها نوح وقومه وهي الجزيرة العربية والعراق والشام؟ فلو كان عامًا فإن ذلك يحتاج إلىٰ أن تكون السفينة كبيرة جدًا، وفي حجم خيالي لتتسع لجميع الحيوانات من أسود ونمور وفيلة، وجميع الحيوانات المفترسة والأليفة وما أكثرها، ثم الطيور والزواحف

---

(١) سورة هود ٤٤-٤٧.

(٢) سورة هود ٤٨.

والنباتات من كل صنف لأنها ستموت جميعها بسبب المياه، ثم يتبع هذه الحيوانات جميعها مشكلة اعتداءاتها علىٰ بعض وتغذيتها جميعًا، وذلك يحتاج إلىٰ كميات كبيرة جدًا طوال مدة الطوفان بجانب غذاء الرجال والنساء فيها، كما أنها تبرز مشكلة خطيرة جدًا يحتار فيها العقل في حالة ما إذا كان الطوفان عامًا وهي كمية الماء التي أغرقت اليابسة جميعًا، إذ تقول التوراة إن المياه كانت أعلىٰ من الجبال بخمسة عشر ذراعًا أي يكون متوسط ارتفاع المياه لا يقل عن خمسمائة متر، فمن أين يأتي هذا الماء جميعه، وكمية الأمطار التي تنتج عن تكاثف بخار مياه المحيطات والبحار بسبب الشمس محدود، ولو ظلت الأمطار تنزل علىٰ الأرض طول العام لما ارتفعت المياه عن سطح الأرض أكثر من بضعة أمتار، ولكن لو افترضنا أن الطوفان كان جزئيًا وخاصًا بالمنطقة التي كان يعيش فيها نوح وقومه، ولأن المقصود من الطوفان هو إغراق قومه الكافرين، فإن هذا يحل لنا موضوع السفينة وموضوع مياه الطوفان لأن السفينة تصبح فقط كافية لجمع زوجين من الحيوانات التي كانت تعيش في منطقة نوح فقط، وأما باقي الحيوانات التي كانت تعيش علىٰ سطح الكرة الأرضية خارج تلك المنطقة فستظل باقية، ولا يصيبها الطوفان، وكذلك الحال بالنسبة للنباتات، وبذلك يصبح حجم السفينة أمرًا معقولًا ومحدودًا.

وأما مياه الطوفان اللازمة لتلك المنطقة فقط وليس للعالم كله فإننا مع تصديقنا بقوله تعالىٰ: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[1].

حدوث انخفاضات وارتفاعات: فإننا نضيف إلىٰ ذلك احتمال حدوث التواء في القشرة الأرضية نتج عنه ارتفاع في قاع أحد المحيطات المجاورة لتلك المنطقة يقابله هبوط وانشقاق في جهة أخرىٰ من الأرض المجاورة مما تسبب عنه اندفاع مياه المحيط فوق منطقة نوح؛ لأن الغرق للقوم كان فجائيًا وحدث بسرعة فائقة، وهذا مما يسببه طغيان مياه المحيط مع هطول الأمطار الشديدة، واندفاع المياه الجوفية من الأرض، وهذه المصادر الثلاث من المياه هي التي كوَّنت الطوفان العظيم، وكانت السفينة تسير في موج كالجبال بهذا الطوفان.

ولا يُستبعد أن يكون البحر الأبيض المتوسط أو البحر الأحمر قد تكوَّن بسبب هذه الارتفاعات والانخفاضات التي حدثت علىٰ الأرض وقتئذ.

عمر نوح: يقول الله في ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[2] ويقول بعض المفسرين إنه أُرسل إلىٰ قومه وهو في الخمسين من عمره وبذلك يكون قد عُمِّر ألف سنة، وكذلك تقول التوراة كان عمره ٩٣٠ سنة، كما أن عمره عند الطوفان ٦٠٠ سنة ومكث بعده ٣٥٠ عامًا. ورغم هذه السنوات الطويلة فلم يؤمن به إلا قليل بالقياس لباقي الأنبياء

(١) سورة القمر ١١-١٣.
(٢) سورة العنكبوت ١٤.

مثل سيدنا عيسىٰ الذي مكث ثلاث سنوات في رسالته، وسيدنا محمد ﷺ قد مكث ثلاث وعشرين عامًا في دعوته، وكذلك مكث سيدنا إبراهيم حوالي مائة عام تقريبًا، فقد آمن بهم آلاف الناس في حياتهم ومن بعدهم أصبحوا بالملايين.

❋ ❋ ❋

سيدنا صالح عليه السلام

ثمـود: هم قوم سيدنا صالح عليه السلام من القبائل التي تسكن فيما بين الحجاز والشام وعددهم حوالي ٢٠ ألف نسمة، وكانت المنطقة عامرة بالزراعة والمراعي كما ورد في سورة الأعراف: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾(١) وقد بسط الله لهؤلاء القوم الرزق بعد أن أهلك قوم عاد من قبلهم لما كذبوا نبيهم هودًا أرسل الله عليهم ريحًا صرصرًا قضت عليهم لكونهم قومًا كافرين.

الدعـوة: وكذلك الحال في قبائل ثمود؛ فقد ضلوا وأشركوا بالله وعبدوا الأصنام والأوثان فبعث الله منهم نبيًا لهم هو صالح عليه السلام ليبلِّغهم رسالة ربه ويهديهم إلىٰ عبادة الله الواحد القهار، كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ۝٦١ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾(٢).

نعَم الله: لقد أعرضت ثمود عن صالح ولكنه استمر يدعوهم إلىٰ الهدىٰ من غير يأس ويذكِّرهم بنعم الله عليهم وينذرهم بعذابه إن ظلوا في طغيانهم يعمهون، وقال لهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٤٢ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۝١٤٣ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ

(١) سورة الأعراف ٧٤.

(٢) سورة هود ٦١-٦٢.

وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[1].

المؤمنون: لقد استجاب كثير إلىٰ دعوة صالح وأعلنوا إيمانهم جهارًا واتبعوا نبيهم في صدق وإخلاص وإن كان أغلبهم من الفقراء والضعفاء والشبان وتبعتهم زوجاتهم، واللاتي أصررن علىٰ الكفر منهن انفصل عنهن أزواجهن من المؤمنين أو خطابهن من الشبان.

الكفار: ولم يستجب لدعوته كبراء قومه وأشرافهم حسدًا منهم واستكبارًا أن يتبعوا رجلًا من أوسطهم حالًا وأقلّهم جاهًا وأن يسلبهم سلطانهم، وكان علىٰ رأس هؤلاء القوام «ذؤاب بن عمرو» من أشراف ثمود وشيخ قبيلته كما جاء في القرآن ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾[2].
فتوجهوا إلىٰ الذين آمنوا واتبعوا صالحًا عسىٰ أن يردوهم إلىٰ دينهم ودين آبائهم ليعبدوا الأصنام ثانية: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[3].

---

(١) سورة الشعراء ١٤٢-١٥٢.
(٢) سورة القمر ٢٣-٢٥.
(٣)

التشاور: بعد أن فشل أشراف ثمود في إقناع المؤمنين أن يرجعوا إلىٰ عبادة الأصنام دعا «ذؤاب بن عمرو» رؤساء القوم إلىٰ قصره للتشاور فيما يتخذونه مع صالح وأتباعه بعد أن أفسد عليهم أتباعهم وشبانهم وخاصةً أن خطيبين لبنتيه قد تركاهما وانفصلا عنهما واتبعا صالحًا، وكذلك بعض أقاربه قد انفصلوا عن زوجاتهم واتبعوا صالحًا، واستقر رأي الجماعة بعد المناقشة والتشاور أن يتخذوا خطوة فيها الإحراج الشديد لصالح أن يطالبوه بمعجزة يستحيل عليه إتيانها.

المعجزة: وفعلًا دعا «ذؤاب بن عمرو» إلىٰ اجتماع عام من قومه والمؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾[1] وطلب من صالح أن يأتيهم بمعجزة مبينة من ربه تدل علىٰ صدق نبوته وحدد له أن يُخرج له من صخرة صلداء بالجبل (ناقة وبراؤ عُشرًا) كما جاء في القرآن: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[2] فأجابهم صالح كما في سورة النمل: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾[3] وكانت مفاجأة أذهلت الحاضرين وخاصةً المؤمنين، ولم يكن صالح متوقعًا مثل هذا الطلب العسير فتجهم وجهه وشخصت أبصار المؤمنين إليه وكأن علىٰ رءوسهم الطير، وفي هذه اللحظة الحرجة والموقف العظيم توجه صالح إلىٰ ربه أن ينقذه برحمته

(١) سورة الأعراف ٧٥-٧٦.
(٢) سورة الشعراء ١٥٣-١٥٤.
(٣) سورة النمل ٤٦-٤٧.

في ساعة العسرة هذه، فأوحىٰ الله إليه أن الله علىٰ كل شيء قدير؛ فانفرجت أساريره وعندئذٍ تصدع سطح الصخرة عن شق كبير وخرجت منه الناقة المطلوبة، فذعر القوم لضخامتها، وفزعوا منها خشية أن تبتلع أحدًا منهم، أو تلحق بهم الأذىٰ، وفروا من أمامها هاربين، فتقدم إليها صالح وأمسك بها وقادها بين تكبير وتهليل المؤمنين معه، وقال صالح لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾[1].

ثم أوحىٰ الله إلىٰ صالح ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ٢٧ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾[2]. لهذا أبلغ صالح قومه أيضًا ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾[3] ولقد استجاب قوم صالح المؤمنون منهم والكافرون بما أمر بالنسبة إلىٰ الناقة وخاصةً أن دعوة صالح كانت سلمية مع قومه تقوم علىٰ الاقتناع، وظل قومه الكافرون علىٰ عقيدتهم من عبادة الأصنام زمنًا طويلاً خاضعين لما أشار به بالنسبة للناقة خوفًا ورهبًا، وولدت الناقة فصيلها الذي كانت عُشرًا به، وأصبحت الناقة وفصيلها ترعىٰ في مراعي القوم دون أن يجرؤ أحد الاقتراب منها، وتجفل منها مواشي القوم وتهرب إذا حلَّت في أي مكان تأكل فيه، وبذلك أصبحت مصدر رعب وهلع، بالإضافة إلىٰ أنها في يوم شربها كانت تأتي علىٰ ماء البئر جميعه، فلا تترك شيئًا لمواشي القوم، فكانت تشرب يومًا وتمتنع يومًا، وكان من فضائل تلك الناقة

(١) سورة هود ٦٤.
(٢) سورة القمر ٢٧-٢٨.
(٣) سورة الشعراء ١٥٥.

أنها كانت تدر لبنًا يوازي ما تشربه من الماء تقريبًا، فكانت تسقي القوم جميعًا من لبنها، وتلك معجزة أخرىٰ فريدة في نوعها، واستمرت الحال هكذا مدة من الزمن، الكافرون في غيظهم كمدًا لا يستطيعون حراكًا، والمؤمنون فرحون مستبشرون يزداد عددهم علىٰ مرِّ الأيام بما ينضم إليهم ممَّن هداهم الله، إلىٰ أن ضاقت السبل بالكافرين فتحركت النساء تحرك الرقطاء في الليل البهيم، واتفقت امرأتان منهن؛ إحداهما عجوزًا شمطاء والأخرىٰ سيدة حسناء، علىٰ تدبير مؤامرة علىٰ قتل الناقة؛ ليخلصوا قومهم من هذا الرعب المسلَّط عليهم، والقلق المفزع لهم بسببها.

عنيزة ابنة غنم بن مجلز: وهي زوجة رئيس القوم «ذؤاب بن عمرو» وكانت مسنة كافرة أكل الحقد قلبها من صالح لأنه تسبب في انصراف خطيبيْ بنتها لأنهما آمنا بصالح واتبعاه وفسخا الخطوبة من بنتيها، هذا بجانب ما سببته تلك الناقة من مزاحمة مواشي القوم في الأكل والشرب، وبالإضافة إلىٰ زعزعة مركز زوجها في القبيلة، وانقسامها فريقين مضادين، ذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾[1] فاستدعت عنيزة رجلًا في القبيلة يقال له «قدار بن سالف بن جزع» مشهور بأنه سفاح وفاسق وشرير، ومعروف أيضًا أنه ابن زنا ولذلك لا يعف عن الخطايا، وعرضت عليه أموالًا كثيرة، ووعدته بالزواج من إحدىٰ بناتها إن هو عقر الناقة وأرداها قتيلة، فوافق فورًا ابتغاء أن يكون له شرف الزواج من ابنة رئيس القبيلة، الأمر الذي لم يكن يحلم به يومًا ما.

(١) سورة الشمس ١١-١٢.

صدفة بنت المحيا بن زهير: كانت امرأة موسرة وجميلة ومن أشراف القوم وتركها زوجها وانفصل عنها؛ لأنه آمن بصالح واتبعه فحزنت عليه، وأراد أن تنتقم لكرامتها والإهانة التي لحقتها؛ فاستدعت ابن عم لها يقال له «مصدع بن صهريج بن المحيا» وكان من قبل قد رغب في زوجها، ولكنها رفضته لدمامة خلقه، ثم عرضت نفسها عليه ليتزوجها إن هو عقر ناقة صالح فأجابها بقبوله هذا الشرط وسيبذل في تنفيذه قصارىٰ جهده، لهذا اتفق قدار ومصدع» علىٰ وضع خطة محكمة لقتل الناقة ووجد أنه لضخامة حجم الناقة من جهة، وخشية أن يتعرض لهم نفر من أتباع صالح فيقتضي ذلك ضم بعض الرجال لهم من قومهم، وبذلك صاروا تسعة رجال وعزموا علىٰ تنفيذ خططهم سريعًا، وجاء ذكرهم في القرآن ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾[1].

قتل الناقة: وكمن الجميع للناقة عند رواحها قبيل الغروب فرماها «مصدع» بسهم أصاب ساقها فشلَّها، وشد «قدار» بالسيف فكشف عن عرقوبها، فخرت ساقطة علىٰ الأرض، فأجهز عليها بالطعن عدة مرات، ثم نحرها فأطلقت صرخة مدوية هلعت لها قلوب القوم جميعًا، وعرفوا أنه لا بد حدث أَلَّم بها وهرع الناس إليها وفي مقدمتهم «صالح» وأما فصيلها لما رأىٰ ما حلَّ بأمه، أطلق ساقيه فرارًا، وأخذ يجري بسرعة ليس لها مثيل حتىٰ دخل الشق الذي كانت قد خرجت منه أمه في الصخرة، وقفل الشق عليه.

حزن صالح: بكىٰ صالح علىٰ الناقة لأنها كانت المعجزة الوحيدة، والسند الذي يعتز به أمام قومه بجانب أنها كانت خيرًا وبركة، كما قال الله

(١) سورة النمل ٤٨.

عنها ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[1] وذلك برغم أن الله أخبر صالحًا من قبل أنه أرسل الناقة فتنة لهم، وكذلك حزن المؤمنون علىٰ تلك الناقة المباركة، ودفنوها في سفح الصخرة التي خرجت منها، ثم أنذر صالح قومه الكافرين بعذاب الله الأليم جزاء ما اقترفت أيديهم وقال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[2] ثم يحل عليهم غضب الله وانتقامه، ولكن وقع هذا الوعيد كان مخيفًا عند أغلب القوم الكافرين، وتوجسوا خيفة من نزول عذاب الله عليهم سريعًا، كما نزل بقوم عاد من قبل، وأخذ بعضهم يلقي بالملامة علىٰ تلك النسوة اللاتي تسببن في تلك المصيبة، وهاج القوم وماجوا وكادوا يفتكون بالمرأتين «عنيزة وصدفة» إنقاذًا لأنفسهم من عذاب محقق لهم مثل قوم «عاد» كما جاء في سورة الشعراء ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ﴾[3].

فأجابه التسعة رهط بكل استهتار وتبجح كما جاء في القرآن الكريم: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[4].

مؤامرة: وتفتق ذهن التسعة رهط عن جريمة أكبر من الأولىٰ: ظنًا منهم أنهم يرضون قومهم، لو أنهم تخلصوا فورًا من صالح وقتلوه هو الآخر، وجاء ذلك في صورة النمل: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ

(١) سورة الإسراء ٥٩.
(٢) سورة هود ٦٥.
(٣) سورة الشعراء ١٥٧.
(٤) سورة الأعراف ٧٧.

﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾[1] وفيما هم يدبرون هذه الجريمة في أحد البيوت المنحوتة في الجبل سقط السقف عليهم فماتوا جميعًا جزاء عزمهم علىٰ قتل نبي الله صالح ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[2].

العذاب: بعد أن أنذر صالح قومه الكافرين بعذاب الله عليهم، أُوحي إليه أن يبتعد وأتباعه من المؤمنين، وكانوا ستمائة نسمة عن ديار القوم الكافرين؛ حتىٰ لا يصيبهم العذاب، ورحلوا إلىٰ الشام، كما ورد في قوله تعالىٰ: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[3]، ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ۝٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾[4]، ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[5].

هكذا كانت نهاية قوم ثمود الكافرين فلم تغن عنهم قوة أجسامهم، ولا كثرة أموالهم، ولا مناعة قصورهم في السهول، أو داخل الجبال ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٤٤ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾[6] وهكذا نفذ أمر الله وعذابه في أولئك القوم الجبارين بسبب مكيدة بعض نسائهم وتدبيرهن أمر قتل الناقة فأصابهم البلاء والدمار والهلاك.

(١) سورة النمل ٤٩-٥٠.
(٢) سورة النمل ٥١.
(٣) سورة الأعراف ٧٩.
(٤) سورة هود ٦٦-٦٧.
(٥) سورة النمل ٥٢.
(٦) سورة الذاريات ٤٤-٤٥.

سيدنا إبراهيم عليه السلام

تعريف: سيدنا إبراهيم عليه السلام ويُعرف بـ«أبي الأنبياء»، وهو الحفيد العاشر لسيدنا نوح عليه السلام من نسل سام ووُلِد بعد الطوفان بمقدار ١٠٨٠ سنة وقبل الهجرة النبوية بمقدار ٢٦٠٠ سنة تقريبًا، أي أن مولده منذ أربعة آلاف سنة تقريبًا وفي قدرة «فدان آرام» وتسمىٰ أيضًا «أيور» عند ملتقىٰ نهري دجلة والفرات بالعراق، ثم انتقل مع أبيه إلىٰ بابل حيث عاش بها منذ طفولته عدة سنوات كثيرة.

ولقد كان سيدنا إبراهيم عليه السلام بركة ونورًا علىٰ البشرية جمعًا، إذ كان من نسله الأنبياء والمرسلون، وخاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من ذرية سيدنا إسماعيل عليه السلام، وقد ذُكر في القرآن عن سيدنا إبراهيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

ولقد عاش سيدنا إبراهيم ١٧٥ سنة ونشأ في بابل بالعراق وهاجر إلىٰ الأقطار المجاورة، ودُفن في «حبرون» مدينة الخليل الآن فلسطين بعد أن أنجب ثلاثة عشر ابنًا أكبرهم سيدنا إسماعيل عليه السلام وهو جد النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

---

(١) سورة الأنعام ٨٤-٨٧.

بونا بنت كريناين كرتي: هي إم سيدنا إبراهيم ويقال أن اسمها أيضًا (إيمتالي) أو (أمبله)، ولقد تزوجها «آزر» أبو إبراهيم وهي شابة في مقتبل شبابها تفيض حيوية وحسنًا، وكان من عادة كل عروسين أن يذهبا إلىٰ كبار العرافين والسحرة ليستوضحا ما تنبئ به النجوم والأفلاك عن مستقبلهما وأبنائهما، وجاء عن السحرة في القرآن وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾[1].

ولقد أنبأ الساحر العروسين «آزر وبونا» بأمور غاية في الغرابة والدهشة سقطت «بونا» علىٰ الأرض من هول ما سمعت، ثم أمسكت نفسها وأشرق وجهها بالابتسام والفرحة في آخر الحديث. وكان مما قاله العرَّاف إن الرمل أمامه لا ينطق بالخير العاجل وينبئ بالعقم الطويل ثم إنجاب الأبناء في سن الكهولة، ومن الغريب أن تكون مثل هذه الحالة في الأبناء والأحفاد، ثم إن البكري صاحب سلطان ونجمه يعلو في الآفاق، ثم تحرقه النيران فيغلب عليه القدوس، وتهرب من وجهه الآلهة، وتنكس الأصنام ثم يدوي صوته في الأنام يدعو لدين الله والإسلام.

ولما بلغ «آزر» سن الـ٧٠ سنة حملت زوجته «بونا» ووضعت غلامًا ذكرًا وسمي إبرام «إبراهيم» لأن الأم رأت في منامها من يقول تسميه إبرام، وكانت فرحة الوالدين به لا توصف وشب إبراهيم بين أحضان أمه تحوطه بالحنان والمحبة، وكلما تذكرت ما قاله لها العرَّاف منذ سنوات طويلة بخصوص النيران تبكي وينقطع نياط قلبها وتضرع للآلهة أن يجنبه ذلك.

(١) سورة البقرة ١٠٢.

ثم أنجبت «بونا» بعد ذلك ولدين آخرين «ناحور وهاران» وكان الأبناء الثلاثة مبعث البهجة والسعادة والسرور في دار آزر، وكبر الأبناء وتخطوا دور الطفولة، وكانوا يمرحون ويلعبون مع أقرانهم من أهليهم وخاصةً «سارة وملكة» بنتي عمهم «هاران الأكبر»، ولقد كان إبراهيم أكثر إخوته نموًا وذكاءً، وكان يساعد أباه في صناعة الأصنام والتماثيل سواء من الخشب أو الحجارة، وكثيرًا ما كان يخبئ إحدىٰ رؤوس التماثيل ليلعب بها مع إخوته في المنزل أو خارجه؛ وتأصَّلت فيه الاستهانة بهذه التماثيل من صغره؛ لأنها كانت ملقاة في داره قطعًا من الأخشاب أو الأحجار، ثم تُنحت أو تُقطع، ويعمل فيها بقادومه أو يدق فيها مسمارًا، فهي علىٰ أية وضع كانت في متناول يديه، أو تحت قدميه دون أي احترام أو تقدير.

وكانت أمه «بونا» حريصة دائمًا علىٰ ألا تحدث منها أي معصية أو خطيئة، وكذلك كانت ترجو زوجها «آزر» ليظل ابنهما البكر في منأىٰ عن طلب الآلهة إياه للمحرقة.

ولما بلغ إبراهيم رشده في الثانية عشر من عمره أنار الله بصيرته وملأ قلبه بنور الإيمان والعقيدة كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[1]، وكان إبراهيم أول رسول يؤتىٰ النبوة صبيًا ومؤيدًا بالحجة القوية والمنطق السليم ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾[2].

(١) سورة الأنبياء ٥١.

(٢) سورة الأنعام ٨٣.

لهذا أراد أن يبدأ بهداية أبويه وأهله ليكونوا له عزة وسندًا ثم بعد ذلك يهدي القوم الآخرين ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾[1].

لقد كبر علىٰ (آزر) وهو الشيخ الكهل في الخامسة والثمانين من عمره أن يصغي لنصيحة ابنه الصغير. وأخذته العزة بالإثم وكان هذا الحوار بينهما غريبًا علىٰ عقلية الوالد الهرم الذي أفنىٰ حياته يصنع الأصنام ويسجد لها ويروِّج لبيعها ليعيش منها، وقد كافأه أخيرًا الملك النمرود بأن عيَّنه في معبد بابل العظيم كبير المهندسين، لترميم تماثيل الآلهة وأصنامها وهو شرف كهنوتي عظيم يضارع مركز الكاهن الأكبر في المعبد، وقد اتفق معه كبار الكهنة أنهم سيحضرون إلىٰ منزله في مساء ذلك اليوم الذي كان يجادل فيه إبراهيم أباه، ليقدموا لآزر التهنئة بالمنصب الديني الجليل الذي أنعم به ربهم الملك النمرود، وربما كان ذلك سببًا قويًا في الإجابة الشديدة من آزر لابنه إبراهيم.

(١) سورة مريم ٤٢-٤٨.

وأما «بونا» فأخذت تطيِّب خاطر ابنها إبراهيم وتمسح علىٰ ظهره بحنان الأمومة، وتقول له إني مقتنعة بما تقول يا ولدي، وإن هذه الأحجار والأخشاب التي تملأ دارنا تبول عليها الكلاب، وأستعمل بعضها في المواقد للطهي وتسوية الخبز فلا تغضب بما قاله لك أبوك واعذره؛ لأن هذه الليلة سيحضر إلىٰ الدار كبار رجال المعبد ليهنئوه بوظيفته الجديدة؛ فقال إبراهيم: حسنًا يا أماه سأستغل هذا الجمع وأعلن رأيي لهم.

وفي المساء عندما حضر رجال الدين والكهنة بمنزل آزر وجاء معهم كثير من أهل بابل يشاركون في تلك المناسبة السعيدة، وبعد أن بدأ الحفل في الدار وشرب الحاضرون المرطبات وقُدمت لهم الأطعمة، وأخذ القوم يتسامرون بمناقب الآلهة وقداسة الأصنام وعبادة الملك النمرود وفوجئ القوم بإبراهيم يدخل عليهم في ثبات وقوة بيان: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1] فقال أحد الكهنة إنه صبي صغير لا يفهم ما يقول إنه يلهو ويلعب في الحواري مع الفتيان ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[2] فقالوا أأنت يا صغير الذي ترشدنا عمَّن نعبد، وقد وجدنا آباءنا كذلك يفعلون وسنظل إلىٰ الأبد نعبد الأصنام ونستمر لها عاكفين.. قال إبراهيم ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾[3] فقالوا له

---

(١) سورة الأنبياء ٥٢-٥٤.
(٢) سورة الأنبياء ٥٥-٥٦.
(٣) سورة الشعراء ٧٢-٧٣.

ومن تعبد أنت يا إبراهيم؟ قال أعبد رب العالمين ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[1] لقد كان وقع هذا القول من إبراهيم علىٰ عقول الكهنة والشيوخ عظيمًا، ولم يسبق لهم أن سمعوا مثل هذه الحجة القوية من كاهن أو حكيم، فكيف بهم يسمعونها من هذا الصبي الصغير آراءً في غاية الخطورة، وأخرست ألسنتهم ولم يجدوا لأسئلته إجابات صادقة مقنعة سوىٰ أنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون.

وخرج القوم والكهنة من دار آزر- تشغل أفكارهم ما أثاره إبراهيم من قضايا هامة لو انتشرت لقضت علىٰ مراكزهم وقوضت سلطانهم، أما «بونا» فقد احتضنت ابنها إبراهيم وأخذت تُقبله فرحة بما كُتب لابنها الصغير الغلبة علىٰ شيوخ القوم والكهنة، ولم تستطع أن تخفي إعجابها وسعادتها وإيمانها فقالت له يا إبراهيم أنا مؤمنة بربك وأول كافرة بتلك الأصنام الكاذبة، وإن نبوة العرَّافة منذ عشرات السنين تتحقق اليوم علىٰ يديك فقد قالت: إن ابني البكر ستهرب من وجهه الآلهة وتنكس الأصنام ثم يدوي صوته في الأنام، يدعو لدين الله والإسلام.. فقال إبراهيم: الحمد لله الذي هدانا لهذا ونسأل الله العون علىٰ أداء هذه الرسالة، وكل ما أرجوه أن يؤمن أبي بدعوتي حتىٰ لا يعيرني الناس فيقولون لي هلّا آمن أبوك بدعوتك أولًا. فقالت الأم: سأبذل كل جهدي يا ولدي في إقناع أبيك ولكن ما رأيك في باقي أهلك وأترابك. فقال إبراهيم: إن إخوتي وأولاد عمي قد أقنعتهم جميعًا وآمنوا بما قلت لأنهم

(١) سورة الشعراء ٧٨-٨٢.

أحبائي وعلىٰ الفطرة. فذهبت الأم «بونا» إلىٰ زوجها آزر وظلت تناقشه في دعوة ابنها إبراهيم من عبادة الله الواحد خالق السموات والأرض، ونبذ عبادة الأصنام فوعدها بالإيمان وقال لإبراهيم بصراحة إني يا بني أعدك باعتناق دينك الجديد ولكني سوف لا أجهر بذلك الآن حرصنا علىٰ مركزنا في المعبد. المركز الذي يُدر علينا أجرًا وفيرًا، عندئذٍ توجه إبراهيم بالدعاء إلىٰ الله تعالىٰ وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1]. فقال «آزر» نعم الابن البار بأبيه. فقال إبراهيم لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾[2].

بهذا اطمأن إبراهيم علىٰ إيمان أهله وأقاربه وأنهم سيحمونه من كل معتدٍ أو غريب يسفِّه دعوته، وشجعه ذلك علىٰ الجهر بدعوته فآمن بها بعض الشبان والبسطاء من القوم، وكانت أمه أكبر داعية له وتدفع عنه كل من يتعرض له بسوء قولًا أو فعلًا، لأنها أمه ولكونها آمنت بدعوته عن عقيدة ونبوءة صادقة.

وأوحىٰ الله إلىٰ إبراهيم أن يفعل حدثًا يكون له دوي يلفت الأنظار إلىٰ دعوته ليزلزل عقيدة القوم الكافرين. وجاءت الفكرة سريعة مواتية فكان من عادة القوم في بابل أن يحتفلوا بعيد الربيع بأن يبكروا في صبيحة يوم العيد

(١) سورة الشعراء ٨٣-٨٩.

(٢) سورة الممتحنة ٤.

إلىٰ المعبد ويضعون الطعام أمام الأصنام، ثم يخرجون إلىٰ المزارع يقضون اليوم كله بين الحدائق، ثم يعودون في المساء ويذهبون أيضًا إلىٰ المعابد يأخذون طعامهم بعد أن تباركه الآلهة ويأكلونه طعامًا مقدسًا.

وفي ذلك اليوم ذهب معهم إبراهيم إلىٰ المعبد وبعد أن غادروا المعبد وساروا مبتعدين عن المدينة تظاهر إبراهيم بالمرض ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾(١) فرجع من الطريق وقال في نفسه: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾(٢) وفعلاً عاد مسرعًا إلىٰ المعبد ولم يجد به أحدًا غير الأصنام في أماكنها صامتة ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾(٣) ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾(٤) ولما عاد القوم في نهاية يوم عيدهم ليأخذوا الطعام المبارك ويسجدوا للآلهة وجدوها وقد تحولت جميعًا إلىٰ حطام إلا واحدًا وقد علق في عنقه فأس ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝٥٩ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾(٥) بهذا التساؤل أحرجهم إبراهيم وأوقعهم في مأزق لا يستطيعون الخروج منه فقالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾(٦) بهذا العجز عن

---

(١) سورة الصافات ٨٩-٩٠.
(٢) سورة الأنبياء ٥٧.
(٣) سورة الصافات ٩١-٩٣.
(٤) سورة الأنبياء ٥٨.
(٥) سورة الأنبياء ٥٩-٦٣.
(٦) سورة الأنبياء ٦٥.

الإجابة انتهز إبراهيم هذه الفرصة وأقام الدليل علىٰ بطلان عبادتهم للأصنام ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(١) لم يستطع الكهنة التمادي في النقاش والحوار مع إبراهيم، وأرادوا تغطية موقفهم أمام الشعب، حتىٰ لا يفلت الزمام منهم، وتنقلب دعوة إبراهيم عقيدة للشعب فيعتنقها عن اقتناع، ويزول بذلك سلطان الكهنة، ولا يُعبد الأصنام، ولا يُعبد الملك النمرود أيضًا؛ عندئذٍ صاح الكهنة في صوت واحد وفي حضور مندوب الملك ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾(٢) فصرخت أمه «بونا» معلنة احتجاجها علىٰ ذلك الحكم الظالم وأيدها في هذا الصراخ والعويل والرفض أهلها الأقربون. وأخذت تناقش الكهنة أن يعفوا عن ابنها وهو صبي صغير لا تقبل أن تحل به هذه العقوبة الظالمة ويموت حرقًا بالنار، وطالبت الأم أن يؤخذ ابنها بالرأفة لصغر سنه وأنها ستقوم بإصلاح كل الأصنام التي كُسرت في بيتها أو تصنع بديلاً عنها، ولكن الكهنة رفضوا كل التماس لأنهم أرادوا أن يقضوا علىٰ الدعوة الجديدة في مهدها بقتل صاحبها نفسه، وقبض رسل الملك علىٰ إبراهيم واقتادوه إلىٰ السجن حتىٰ ينفذ فيه الحكم حرقًا بالنار، ونادىٰ إبراهيم أمه قائلاً لا تخافي ولا تحزني إن الله معنا لقد قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾(٣).

(١) سورة الأنبياء ٦٦-٦٧.

(٢) سورة الأنبياء ٦٨.

(٣) سورة يوسف ١١٠.

لا يستطيع القلم أن يصف ما حلَّ بأسرة إبراهيم وهم أبيه وأمه وأخوته وأعمامه وأولادهم وأتباعهم من حزنٍ عميق وبكاء مستمر وعويل وصراخ يشق عنان السماء، يستمطرون رحمة الله علىٰ إبراهيم الصغير رسول الله وخليله الذي سيتعذب في جحيم النار علىٰ يد أولئك الكهنة القاسية قلوبهم.

وبعد أيام قلائل أُشعلت النيران في أكبر ميادين بابل وعلا لهيبها يناطح السماء ويتطاير الشرر لمسافات بعيدة من شدة اللهب.

وجيء بإبراهيم رابط الجأش ثابت الجنان لا ينظر إلىٰ القوم ولكن فكره وقلبه معلقان بربّه، وثبت نظره فقط في الجهة التي بها أمه وأبوه وإخوته وأولاد عمه سارة وملكة وغيرهم، وكان هؤلاء الأهل غرقىٰ في دموعهم وصراخهم فشقت أمه الجيوب ولطمت الخدود وعفَّرت رأسها بالتراب وأخذت تلعن الأصنام وعابديها والكهنة وتابعيهم.

وحانت ساعة إلقاء إبراهيم في النار وهي مستعرة تتلظىٰ ووضع في منجنيق وقُذف به ليسقط في وسط النار، وهنالك صاح القوم الكافرون وصفق الكهنة بانتصارهم وتخلصهم من عدوهم إبراهيم، ليكون مثلاً لكل من يتعرض بسوء لمعبوداتهم من الأصنام والتماثيل وعندئذٍ سقطت أم إبراهيم مغشيًا عليها.

وإذا بالقوم يسمعون قعقعة في السماء هلعت لها قلوبهم وكأنها أصوات رعد فظيع لم يُسمع مثله من قبل، فأصمت آذانهم وروعت قلوبهم

بما سمعوا فإذا بصوت من السماء يقول ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾[1] فلما سمع القوم هذا النداء من السماء سكن ضجيجهم وكأن علىٰ رءوسهم الطير، وتوقعوا صاعقة تنزل عليهم مثل صاعقة ثمود فهرب الكثيرون منهم وولوا مدبرين إلا الكهنة الفاجرين وجند الملك النمرود، وأما أم إبراهيم وأهله فانقلبوا فرحين يرقصون ويبتهلون لرب إبراهيم أن يعيده إليهم سالمًا معافًا، وأبصر القوم إبراهيم يسير وسط النيران لم يمسّه فيها سوء أو حزن وكأنه يتنزه في حديقة.

ولم تتمالك أم إبراهيم أن نادته وهو وسط النيران: يا بني أريد أن أجيء إليك فادعوا ربك أن لا تحرقني، فقال لها: تعالي يا أماه فالنار لا تحرق مؤمنًا بإذن الله.

ولما خمدت النيران بعد بعض ساعات خرج منها إبراهيم سليمًا لم تحرق النيران منه شيئًا غير وثاقه الذي كان موثوقًا به عندما ألقي به في النار، وقد حمله إخوته علىٰ الأعناق وساروا به هاتفين في شوارع مدينة بابل هاتفين بنصر الله لهم وأنه الواحد خالق السموات والأرض، وأما الكهنة ورجال الدين وباقي القوم الكافرين فأنزل الله عليهم الخزي والذهول وباءوا بغضب من الله، فقد سمعوا بآذانهم ورأوا بأعينهم ما حدث لإبراهيم فصغرت أصنامهم في أعينهم، ولكنه محافظة علىٰ مراكزهم قرروا أن يصمدوا في عبادتهم لأصنامهم ويتجنبوا الالتحام مع إبراهيم في أي جدل أو مناقشة.

---

(١) سورة الأنبياء ٦٩.

عاد إبراهيم إلىٰ منزله بين تهليل وتكبير أبويه وإخوته وسارة وملكة وأتباعه الذين آمنوا معه، وأخذت أم إبراهيم تنحر الذبائح وتوزعها علىٰ الفقراء ابتهاجًا بنجاة ولدها إبراهيم من النار، ولشد ما كانت مندهشة من تحقق نبوءة العرَّاف الذي أخبرها من عشرات السنين أن ابنها البكر ستحرقه النيران فيغلب عليه القدوس وتهرب من وجهه الآلهة وتنكس الأصنام فقال لها: يا أماه كذب المنجمون ولو صدقوا فلا تعيريهم بالاً ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1] فقالت له سارة: هل هي رحمة الله التي منعت النار أن تحرقك؟ فقال لها: يا سارة: أما سمعت قول الرب وهو يقول: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فقالت سارة: نعم سمعت هذا الصوت من السماء ووقعت علىٰ الأرض من شدة الصوت، فقال لها: هذه هي رحمة الله.. فقالت له سارة: يعني الرحمة تأتي في وسط الرعد دائمًا؟ فقال لها: لا ولكن ما حدث كان معجزة خاصة بي فقط..

ولما علم الملك النمرود بما حدث لإبراهيم أرسل في استدعائه ولما مَثل إبراهيم بين يديه في هدوء وثقة وتوكل تام علىٰ ربه، أخذ الملك يستوضحه عن دينه الجديد الذي يدعو إليه وربه الذي يعبده ويؤمن به، فأخذ إبراهيم يشرح للملك عقيدة التوحيد ودين الإسلام الحنيف وإيمانه بالبعث والنشور والحساب، وأن الله هو خالق كل ما في الوجود من سماء وأرض وجبال وأنهار ومخلوقات وحيوانات ونباتات، وأن كل إنسان سيُحاسب علىٰ عمله خيرًا أو شرًا وسيُجازىٰ بالجنة أو الجحيم في حياة خالدة بعد الحياة

(١) سورة الأعراف ٥٦.

الدنيا، فقال له الملك: هل بعد أن يموت الناس يحيون مرة أخرىٰ؟ فقال إبراهيم: نعم إن الله علىٰ كل شيء قدير كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾[1] فقال له إبراهيم وكيف يكون ذلك. قال إذا حُكم علىٰ اثنين بالقتل فأنا أملك أن أعفو عن أحدهما وأنفذ الحكم في الثاني. فقال له إبراهيم: إن الله قادر علىٰ أن يحيي الناس بعد موتهم ويبعثهم في الآخرة ليحاسبهم، ثم سأل إبراهيم الملك سؤالاً آخر لأنه هو الذي كان في موقف التساؤل منا لملك باستمرار وطبعًا هذا أمر عجيب ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[2]. وبعد هذه المناظرة التي تمت بين الملك وإبراهيم وانتصر فيها إبراهيم لم يشأ الملك أن يلحق أي أذىٰ به. بل تلطَّف معه ووعده أنه سيقرب قربانًا لإله إبراهيم وكان تصرف الملك حكيمًا مع إبراهيم إذ خشي الملك أن يقوم إبراهيم بمعجزة معه تودي بملكه أمام الشعب أو تقوض عرشه فأخذ معه طرق المهادنة والملاينة وأمر بعدم التعرض له بسوء، ولكنه أمر جنده بمراقبة إبراهيم لتكون دعوته في أهله فقط.

ولما رجع إبراهيم إلىٰ أمه (بونا) وقصَّ عليها ما حدث بينه وبين الملك وفي حضور إخوته وأقاربه كانت الأم تفيض فرحًا وسرورًا ويملأ قلبها نور النبوة المنبعث من ابنها، ولفرط حنانها علىٰ ابنها قالت له: ابني إبراهيم هل لو سألك الملك عما إذا كنت رأيت ربك يحيي ميتًا فتصفه له فبماذا كنت

(١) سورة البقرة ٢٥٨.
(٢) سورة البقرة ٢٥٨.

تجيب. فأجاب إبراهيم حقًا يا أماه ما رأيت هذا المنظر من قبل وما كنت أعرف كيف أجيب، ولكن الله سلم فعندئذٍ كان يرشدني الله إلىٰ الإجابة السديدة، ولكن هذا السؤال من أم إبراهيم قد رسَّب في ذهن إبراهيم وحرَّك فيه تساؤلًا لربه ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[1]، ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

ولهذا قال إبراهيم لأمه وإخوته تعالوا معي نشهد كيف يحيي الله الموتىٰ فقد أوحىٰ إليَّ الله بتجربتها. فقالت أمه (بونا): وكيف يكون ذلك؟ فقال إبراهيم أحضري أربعة من الطير، فجاءت بحمامة وعصفور وديك وإوزة، فذبح هذه الطيور الأربعة، وذهب خارج المدينة ومعه أمه وإخوته ووضع علىٰ كل جبل جزءًا من الطير ووقف هو في مكانه ووضع رؤوسها الأربعة أمامه. ثم نادىٰ أجزاء الطيور من فوق الجبال أن تعالي بإذن الله. فأخذت الأجزاء تطير إلىٰ بعضها كل ريشة إلىٰ مكانها وكل عظمة تلتصق بجوار الأخرىٰ وكل نقطة دم تعود إلىٰ أصلها، وأخذت هذه الطيور بعد أن استكملت أجزاءها من علىٰ الجبال ما عدا رؤوسها تسعىٰ مشيًا علىٰ أرجلها إلىٰ إبراهيم، ولما دنت منه أخذت كل راس تعلو جسم طائرها وعادت الطيور الأربعة المختلفة حيَّة كما كانت قبل ذبحها، فطارت الحمامة والعصفور وبقي الديك والإوزة يدبان علىٰ الأرض أمامهم حتىٰ وصلوا إلىٰ

(١) سورة البقرة ٢٦٠.
(٢) سورة البقرة ٢٦٠.

منزل إبراهيم. وهم يرتلون قوله تعالىٰ: ﴿مَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[1].

بقي إبراهيم وأهله في بابل عدة سنين أخرىٰ ولكن دعوة إبراهيم لم يُكتب لها الانتشار الكافي بل كانت مقصورة علىٰ عدد قليل من الأهل والأتباع بسبب محاربة الكهنة والملك لهم.

وتزوج إبراهيم بابنة عمه سارة وأُقيم لهما فرح كبير شهده كثير من الناس وخاصةً من آمن بدعوة إبراهيم وأهلهم أجمعون، وكان (آزر) قد قارب المائة سنة كهلًا هرمًا لا يقوىٰ علىٰ الحركة إلا بصعوبة.

وأما (بونا) أم إبراهيم فقد أصبحت مُسنة ولكن وجهها كان يتلألأ بالنور والفيوضات الربانية: وقد أسرت إلىٰ ابنها إبراهيم بباقي النبوءة التي أخبرها بها العرَّاف إبان عرسها وتحققت كلها. إذ قالت له: إن ذريتي تنجب بنيها في سن الكهولة فلا تبتئس من ذلك واصبر حتىٰ يحكم الله، وبعد زواج إبراهيم وأخوه من ملكة أخت سارة بنت عمه هاران الكبير، كما أن أخاها هاران الصغير تزوج أيضًا وأنجب لوطًا، وبعد ذلك ماتت (بونا) زوجة «آزر» وحزن عليها إبراهيم أشد الحزن ودُفنت في بابل.

وقام إبراهيم بضم لوط إليه يربيه في بيته لأن إبراهيم لم ينجب أطفالًا في أول حياته.

❁ ❁ ❁

(١) سورة النساء ١٢٥.

ســـارة

هي زوجة إبراهيم عليه السلام وابنة عمه، وتصغره بعشر سنوات، وكانت أحب الناس إليه بعد أمه، وأول من آمن به من النساء بعد أمه، ولزمته قبل الزواج وبعده ملازمة الظل؛ في محنته مع الكهنة وأثناء إلقائه في النيران، وكانت نعم المعين له في الدفاع عنه وعن دعوته بعقيدة التوحيد بين نساء أهله وقومه، ولقد بقي إبراهيم وأهله نحو عشرين عامًا في بابل يدعو لدينه الجديد دين الإسلام والتوحيد ولم يؤمن إلا قليل بسبب تكتل رجال الدين والكهنة ورجال الملك ضد دعوته دون أن يمسوه بأذىٰ خشية أن يمسهم عذاب من ربه.

لهذا رحل إبراهيم عليه السلام وأهله أجمعون من بابل وأخذ معه إبله وقد صار كهلًا عجوزًا وزوجته سارة وأخاه ناحور وزوجته ملكة وابن أخيه لوط، وكل من يمت له بصلة القرابة من أعمامه وزوجاتهم، وعاشت هذه الأسرة المؤمنة في مدينة «حاران» بشمال العراق سنوات عدة في رخاء وسعادة، فقد بارك الله لهم في أموالهم وأرزاقهم ولم يأل إبراهيم جهدًا في الاستمرار في نشر دعوته بين أهل «حاران»، وقد كانوا أيضًا علىٰ ديانة بابل يعبدون القمر ويسجدون لصنمه «نانا»، وكما كان الحال في بابل كانت النتيجة في «حاران» فلم يؤمن م أهلها إلا قليل رغم أن إبراهيم كان يقوم بمحاجة الكهنة في المعبد ويناقشهم علىٰ ملأ من الناس ولكن قلوبهم كانت غافلة، ومن المفارقات المحزنة لقلب إبراهيم أنه رأىٰ أباه «آزر» يومًا في معبد «نانا» ساجدًا أمام الصنم فبهت وحمله محزون إلىٰ منزله يقطر قلبه ألمًا وأسفًا، وأمام سارة وإخوته وباقي أهله أعلن إبراهيم في حزن مميت براءته من أبيه «آزر» ذلك

قوله: ﴿مَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[1] ومات عقب ذلك «آزر» ودُفِن في «حاران».

ولما بلغ إبراهيم عليه السلام الخامسة والسبعين أوحىٰ إليه الله أن يرحل عن مدينة «حاران» ويذهب إلىٰ أرض الشام «أرض كنعان» ليبشر برسالته هناك أيضًا كما جاء في التوراة، «كان إبراهيم ابن خمسة وسبعين سنة لما خرج من حران فأخذ سارة امرأته ولوطًا ابن أخيه وكل مقتنياتهما والنفوس التي امتلكها في حاران وخرجوا ليذهبوا إلىٰ أرض كنعام بالشام»[2] وعبرت قافلة إبراهيم نهر الفرات إلىٰ سوريا عند المعبر القديم ولذلك سُمِّي إبراهيم «العبراني» وأُطلق لقب «العبرانيين» علىٰ ذريته من بعده من نسل يهوذا.

ووصلت قافلة إبراهيم وأهله إلىٰ دمشق ثم منها إلىٰ «حبرون» مدينة الخليل الآن حيث استقر به المقام وليؤدي رسالته كما أمره الله، وعاشت سارة مع إبراهيم في «حبرون» مدينة الخليل حوالي ستين عامًا شاهدت معه أحداثًا عظامًا، فقد أيَّد الله لوطًا بالنبوة أيضًا وشرح صدره بالإيمان ليكون عونًا لعمه إبراهيم في نشر عقيدة التوحيد ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[3].

وكان لوط قد تزوج من قبل وأصبح له أغنامًا وأبقارًا كثيرة منفصلة عن أموال عمه، وبارك الله لهما في أنعامها بدرجة كبيرة كما تقول التوراة:

(١) سورة التوبة ١١٤.
(٢) التوراة.
(٣) العنكبوت ٢٦.

«كان إبراهيم غنيًّا جدًّا في المواشي والفضة والذهب، وكان للوط أيضًا غنم وبقر وخيام»، وكان هناك علّة الخصام بين رعاة إبراهيم ورعاة لوط ولم تحتملهما الأرض أن يسكنا معها إذ كانت أملاكهما كثيرة، وإن أهل بيت إبراهيم وحده كان يتألف من ٣١٨ شاكي للسلاح (العبيد) ومعسكره أكثر من ١٠٠٠ نسمة، ولقد ترتب علىٰ ذلك مشاجرة العبيد أن قرر لوط أن يذهب ليعيش في مدينة سدوم بلا أرض ويترك عمه إبراهيم في «حبرون» وكان أهل سدوم أشرار خطاة لدىٰ الرب جدًّا»[1].

وحدث جدب في أرض الشام بسبب عدم نزول أمطار فلم يجد إبراهيم مرعىٰ لأنعامه، فذهب إلىٰ مصر يطلب المرعىٰ لمواشيه لأنها متوفرة في وادي النيل، وتلك عادة أهل الشام ينزحون إلىٰ مصر كلما ألمت بهم نازلة فيجدون في مصر الصدر الرحب والإقامة الكريمة، وأتحدث الآن عما حدث لإبراهيم وسارة في مصر حسب ما تقوله التوراة أو ما كتبه المفسرون العرب في هذا الموضوع بالذات.

إذ تقول التوراة: «وحدث جوع في الأرض فانحدر إبراهيم إلىٰ مصر ليتغرّب هناك لأن الجوع في الأرض كان شديدًا، وحدث لما قرب أن يدخل مصر قال لسارة امرأته إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون إنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبقوك قولي إنك أختي ليكون لي الخير بسببك وتحيا نفسي من أجلك، فحدث لما دخل إبراهيم مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدًّا ورآها رؤساء فرعون ومدحوها

(١) التوراة.

لدىٰ فرعون، فأُخِذَت المرأة إلىٰ بيت فرعون فصنع لإبراهيم خيرًا بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال، فضرب الرب فرعون وبنيه ضربات عظيمة بسبب سارة امرأة إبراهيم فدعا فرعون إبراهيم وقال: ما هذا الذي صنعت بي لماذا لم تخبرني أنها امرأتك.. لماذا قلت هي أختي حتىٰ أخذتها لتكون زوجتها، الآن هي ذي امرأتك خذها واذهب فأوصىٰ عليه فرعون رجالًا فشيعوه وامرأته وكل ما كان له.

ويُفهم من هذا أن إبراهيم لم يقم بمصر إلا فترة بسيطة قد تكون أيامًا وشهورًا، ويُلاحَظ هنا أن التوراة لم تذكر أن فرعون وهب سارة جارية مصرية. هي هاجر، ولكن جاء ذكر هاجر المصرية في موضوع آخر في التوراة هو: (أما سارة امرأة إبراهيم فلم تلد وكانت لها جارية مصرية هي هاجر)[1] فيحتمل جدًّا أن تكون سارة قد اشترت هاجر المصرية أو اشتراها لها إبراهيم أثناء إقامتها بمصر[2].

لما رجع إبراهيم وسارة وهاجر وباقي العبيد ومواشيهم من مصر إلىٰ الشام نزلوا ثانية في قريتهم حبرون (الخليل)، وكانت سارة عاقرًا ولم يشأ زوجها إبراهيم أن يتزوج عليها لأنه عندما تزوجها من قبل بخمسين عامًا تقريبًا اشترطت في عقد الزواج ألا يضرها، فكان إبراهيم بارًا بعهده، ومَن غير الأنبياء يوفون بالعهود إذا عاهدوا؟! ولكن بعد عودتهم من مصر ظلت هاجر تخدم سيدتها سارة بكل إخلاص وتفانٍ، وقد اعتنقت عقيدة التوحيد مع

(١) التوراة.

(٢) وهبت هاجر لسارة من فرعون مصر. انظر قصتها في: البخاري، ج٣، ص١٠٥-١٠٦؛ ومسلم حديث ٢٣٧١.

سيدتها وأحسنت في تعبدها وصارت أمة مؤمنة مشرقة القلب والجبين بنور الله، وكثيرًا ما كانت سارة تسمع إبراهيم في صلاته لربه يسأله خلفًا صالحًا، فأرادت سارة أن تهيء تحقيق هذه الأمنية لزوجها إبراهيم بأن تهبه جاريتها هاجر عساه أن ينجب منها ابنًا تقر به عيونهم جميعًا، لأن سارة لا يخطر علىٰ بالها أن تنجب لأنها قاربت الثمانين عامًا وقد جاوزت سن اليأس عند النساء بعشرات السنين؛ ولما فاتحت زوجها إبراهيم في ذلك قبل هبتها ودخل بهاجر المصرية وكانت في مقتبل العمر في الثلاثين من عمرها فحملت وأنجبت ابنه البكر «إسماعيل» ففرحت به سارة وهاجر وإبراهيم وجميع المؤمنين وكان مصدر البهجة والسرور والسعادة في بيت إبراهيم.

ولكن الغيرة بعد ذلك دبت في قلب سارة لما رأت إبراهيم قد تعلَّق بابنه إسماعيل وأمه هاجر، وتغيّرت معاملته لها عن ذي قبل فطلبت سارة من إبراهيم أن يطرد هاجر وابنها من بيته، لأنها لم تعد تطيق رؤيتها فأطاعها إبراهيم وأخذ هاجر ووليدها إسماعيل وسافر إلىٰ الجنوب كما أوحىٰ الله له، حتىٰ حط به الرحيل بين الجبال في المكان الذي تقع فيه «مكة» الآن، وتذكر التوراة تفاصيل هذه القصة: «قالت سارة لإبراهيم هو الرب قد أمسكني عن الولادة أدخل علىٰ جاريتي لعلي أرزق منها بنين فسمع إبراهيم لقول سارة، فأخذت سارة امرأة إبراهيم هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لإقامة إبراهيم بأرض كنعان وأعطتها لإبراهيم زوجة له فدخل علىٰ هاجر فحملت، وقال ملاك الرب لهاجر ها أنت حبلىٰ فتلدين ابنًا وتدعين اسمه «إسماعيل» لأن الرب قد سمع لذلتك، فولدت هاجر لإبراهيم ابنًا ودعا اسمه إسماعيل،

وكان إبراهيم ابن ستة وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل»[1] وبعد ثلاثة عشر عامًا من ميلاد إسماعيل أرسل الله ملائكته إلىٰ إبراهيم عليه السلام، ليبشروه بابن له من زوجته سارة يدعىٰ إسحاق جزاء صبرها علىٰ عقمها طوال هذه السنين معه وما تحملته مع زوجها إبراهيم في سبيل نشر دعوته، وكانت طاهرة مؤمنة صادقة العقيدة في دينها وكان ذلك رحمة من الله وفضلاً لسارة، فلما سمعت هذه البشرىٰ من الملائكة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2].

لقد ذكرت التوراة في ذلك «قال الله لإبراهيم بل سارة اباركها وأعطيك أيضًا منها ابنًا أباركها فتكون أممًا وملوكًا شعوب منها يكونون فسقط إبراهيم علىٰ وجهه وضحك وقال في قلبه هل يولد لابن مائة سنة وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة[3] يلاحظ في المقارنة أنه ورد في القرآن ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[4] وكذلك تعجب سارة أن تلد وهي عجوز، وفي التوراة كان التعجب العقلي من إبراهيم حتىٰ إنه قال لربه «ليت إسماعيل يعيش أمامك»[5] في حالة عدم ولادة سارة لشيخوختها، ولكن الله يكرر له الوعيد ويجيبه بالنسبة لرجائه في إسماعيل بقوله في التوراة «وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرًا جدًا اثني عشر رئيسًا بلد واجعله أمة كبيرة، بل سارة امرأتك تلد لك ابنًا وتدعو اسمه

---

(١) التوراة.
(٢) سورة الذاريات ٢٩-٣٠.
(٣) التوراة.
(٤) النحل ١٢٠.
(٥) التوراة.

إسحاق[1] ولقد ورد في القرآن عن هذه الحادثة قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[2] حملت سارة وكان ذلك حدثًا عجبًا ومعجزة كبرىٰ لم يحدث مثلها في البشرية قاطبة للآن أن تحمل امرأة وهي في سن التسعين، لأن ذلك مخالف لتكوين المرأة الطبيعي وخارق للناموس وهي في نظري تقارب معجزة حمل العذراء بالمسيح، لأنه معروف أن الرجل يستطيع أن ينجب حتىٰ المائة والخمسين عامًا وأما المرأة فلا تحمل بعد الخمسين من عمرها. فما بالك بالعجوز في التسعين من عمرها فيعتبر معجزة ربانية والله علىٰ كل شيء قدير.

ولدت سارة ابنها الوحيد إسحاق وكان وضَّاء الجبين ولا غرابة في ذلك فقد ورث الحسن كله عن أمه وبقي ذلك الجمال متوارثًا في ذريته من بعده في ابنه يعقوب، ثم في حفيده يوسف الصديق عليه السلام الذي هامت في حسنه امرأة العزيز ونسوة المدينة جميعًا ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[3].

(١) التوراة.
(٢) سورة هود ٦٩-٧٣.
(٣) يوسف ٣١.

وفرحت سارة بوليدها إسحاق فردَّ عليها شبابها الذي ولّىٰ وكان يزاحمها في حب الطفل أبوه إبراهيم وكذلك بقية المؤمنين. وشبَّ إسحاق في بيت النبوة الكريم تحوطه دعوات أبويه وابتهالات المؤمنين أن يحفظه الله ويباركه؛ لأن إبراهيم قد تجاوز المائة عام. وشبَّ إسحاق وأصبح رجلًا قوي الجسم شديد التدين مهاب الجانب وقارب الأربعين من عمره، تحوطه أمه سارة بالحنان والعطف الجارف فلم تطق عنه بُعدًا ولا تصبر علىٰ فراقه وقتًا إلىٰ أن توفاها الله صدّيقة مؤمنة، ودفنها زوجها إبراهيم وابنها إسحاق في مقبرة (مغارة المكفيلة) بحبرون «الخليل» وقبرها موجود بها للآن.

رحم الله سارة أم الأنبياء وجعل مثواها الجنة ونعم المآب.

هاجـــر

سبق أن قلنا إن هاجر المصرية جارية سارة ووهبتها سيدتها سارة لزوجها إبراهيم، ولما ولدت إسماعيل الابن الأول البكر لإبراهيم غارت منها سارة، فطردتها من بيتها فحملها إبراهيم وطفلها الرضيع علىٰ دابته، وساروا إلىٰ بلاد الحجاز حتىٰ شاء الله أن يتركها بوادٍ غير ذي زرع في مكان «مكة» الآن- وأقام لها مسكنًا تحت شجرة فوق زمزم الحالية وتركها إبراهيم وابنها الرضيع إسماعيل في ذلك المكان القفر ولم يكن معها إلا قليل من التمر وقربة ماء، ولما همَّ إبراهيم بالعودة إلىٰ الشام تشبثت به هاجر وسألته كيف يتركها وابنها في ذلك المكان الموحش فهل أمره الله بذلك- فقال لها: نعم، عندئذٍ اقتنعت عن طريق الإيمان فقط وقالت له: إذن فإن الله لن يضيعنا، وذلك لأن المنطق والعقل لا يسلمان بذلك لأن فيه هلاكهما لا محالة،

ولم يغب ذلك عن إبراهيم عند تركهما ولذلك توجه بالدعاء إلىٰ الله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[1].

وبعد أن نفد زادها من التمر والماء وجف ثديها من اللبن أخذ طفلها يصرخ ويتلوىٰ من الجوع، فأخذت تصعد جبل الصفا عساها تجد أحدًا في تلك المنطقة فيسعفها وطفلها بشربة ماء، ثم تغادره لجبل المروة لنفس الغرض، ولم تجد أحدًا، والمسافة بين جبلي الصفا والمروة نصف كيلو متر تقريبًا، وكررت هذا السعي بين الجبلين مهرولة سبعة أشواط تصرخ وتنادي بأعلىٰ صوتها هل من مغيث لها، وتتضرع إلىٰ الله أن يدركها برحمته فذهبت إلىٰ وليدها تحت الدوحة، فارتمت إلىٰ جواره بعد أن أنهكها التعب والجوع والعطش وراحت في غيبوبة، ورأت ما بين اليقظة والمنام أن ملائكة السماء تهبط إلىٰ الأرض وسمعت صوتًا من السماء ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾[2] وإذا بها تجد الماء ينبع من تحت قدم إسماعيل ويتدفق من باطن الأرض عذبًا زلالًا فشربت وارتوت وسرعان ما در ثديها وامتلأ باللبن، فأرضعت إسماعيل وخرّت ساجدة لله علىٰ رحمته بها، وتقول التوراة في ذلك: «ونادىٰ ملاك الله هاجر من السماء وقال لها لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو- قومي واحملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة وسقت

(١) سورة إبراهيم ٣٧.
(٢) سورة الأنعام ٥٤.

الغلام وكان الله مع الغلام»[1] ولقد كان تفجير بئر زمزم تحت قدم إسماعيل معجزة أخرىٰ له كنبيّ وكرامة لأمه هاجر التقيَّة الورعة التي استسلمت لقضاء الله وقبلت أن تعيش في ذلك المكان الموحش، أليس هذا إيمانًا مطلقًا منها بربها، وتوكل صادق علىٰ الله لا تشوبه ذرة في قضاء الله وقدره؟

كانت بئر زمزم خيرًا وبركة علىٰ هاجر فقد جاء قوم من عرب «جرهم» وحطوا رحالهم بجوار البئر بعد أن استأذنوا هاجر في ذلك، لأنها صاحبة الماء وأمدوها بالطعام ومستلزمات المعيشة وعمّر المكان بكثير من الناس تسكن بجوارها طلبًا للماء، وشب إسماعيل بين أبناء القبائل المجاورة وتوثقت صلة الجوار بينهم، وكان إبراهيم عليه السلام يأتي لزيارة هاجر وإسماعيل من الشام كلما سنحت له الظروف لبُعد المسافة وكبر سنه.

ولما بلغ إسماعيل الثانية عشرة تقريبًا حضر إبراهيم لزيارته ورأىٰ في منامه حينئذ أنه يذبح ابنه إسماعيل وذهبا إلىٰ الجبل وأخبره برؤياه، فما كان جواب ابنه إلا الطاعة لأمر الله وتنفيذ ما رأىٰ في منامه استجابة لأمر الله لقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[2] لقد كان هذا البلاء أشد ما يُبتلىٰ به إنسان كهل تخطىٰ المائة من عمره، يؤمر أن يذبح ابنه ووحيده

(١) التوراة.

(٢) سورة الصافات ١٠٢-١٠٧.

وأين عاطفة الأبوة في هذا المقام، وأغلب الظن أنه يذبح هذه العاطفة قبل ابنه، والأعجب من ذلك أن ترىٰ الابن يستجيب لذلك دون تردد ويساعد والده في تنفيذ ما يبغي، لأن أباه يطلب منه أن يفكر في الأمر بقوله ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ﴾ وفي ذلك احتمال لأن يرفض الابن ولكنه يجيب والده ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فهل هذه بشرية عادية حقًا؟.. لا.. ليس في الوجود من يقف هذا الموقف ويجيب هذه الإجابة إنهم ليسوا بشرًا عاديًا ولكنهم أنبياء، ولذلك لا نستطيع أن نحكِّم عقولنا في أقوالهم وأفعالهم أو نلتمس لهم المبررات أو نصل إلىٰ الحقيقة معهم فنترك أمرهم إلىٰ الله ونصدق لهم أعمالهم إيمانًا منا وتسليمًا بما جاء عنهم ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾[1] ثم قيل أيضًا ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2].

ولما علمت هاجر بما حدث لإسماعل من قصة الذبح هلع قلبها وأغمي عليها من هول الصدمة ولما أفاقت خرَّت ساجدة لله مستغفرة تائبة شاكرة فضل الله عليها أن فدىٰ ابنها بكبش ولم يفجعها في وحيدها الذي تعيش من أجله، وهي أمه والأمهات في الخليقة سواء تحكمها عاطفة الأمومة قبل العقل وتقبل أن تقدم نفسها طيعة مختارة فداء لوليدها ولكن الله سلم من أجل هاجر، وأصبحت سنَّة عند المسلمين أن يذبحوا ضحية في كل عام في عيدهم الأضحىٰ تذكرهم بفداء جدهم إسماعيل، ولما رجع إبراهيم إلىٰ سارة في حبرون «الخليل» بالشام جاءته البشرىٰ بأن تلد زوجته سارة العجوز

(١) سورة مريم ٥٤.
(٢) سورة الصافات ١٠٩-١١١.

ابنًا له آخر ويسميه إسحاق وأغلب الظن أن ذلك فضلاً من الله وتكريمًا لإبراهيم بعد أن امتحنه وابتلاه بذبح ابنه وحيده إسماعيل فلم يتردد إبراهيم عن تنفيذه طوعًا لأمر ربه فكافأه الله علىٰ ذلك بإسحاق من سارة العقيم: ورحمة وتكريمًا لسارة علىٰ صبرها.

وبعد أن شبَّ إسماعيل وبلغ مبلغ الرجال زوَّجته أمه هاجر من إحدىٰ بنات قبيلة «جرهم» المقيمة بجوارها، ثم حضر إبراهيم عليه السلام مرة أخرىٰ لزيارة هاجر وإسماعيل وكان يتردد بين الشام ومكة كثيرًا، ويقول بعض المفسرين إنه كان يستعمل «البراق» في سفره الطويل لأنه يقال إن البراق دابة الأنبياء ولا يُستبعد ذلك ولكنا لم نجد سندًا في القرآن لهذا، والواقع أن المسافة بين الشام ومكة طويلة والطريق وعر بين الجبال والصحاري، وإبراهيم تجاوز عمره المائة بكثير واستعمال الدابة في ذلك السفر الطويل فيه مشقة كبرىٰ.

ولما حضر إبراهيم إلىٰ إسماعيل وهاجر وقال إن الله أمره أن يبني بيتًا لله في ذلك المكان؛ ليتعبد حوله المؤمنون بعبادة التوحيد وفرحت هاجر وإسماعيل بهذا الخبر، وفعلًا قام إبراهيم وإسماعيل ومعه نفر من العرب والعبيد بقطع الأحجار من الجبال المجاورة ودبروا كل مستلزمات البناء، وأخذت هاجر تهيء لهم وللعمال الطعام وتساعدهم في حمل الأحجار، ولقد حدد لهما مكان البيت عمود من النور ظل ممتدًا بين السماء والأرض ليبيِّن لهم موقع الكعبة، وأتمَّ إبراهيم وإسماعيل بناء الكعبة المباركة بيت الله الحرام بين التهليل والتكبير من المؤمنين، وتراتيل وتسابيح الملائكة في السماء: ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ

بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا﴾(١).

ولقد كانت فرحة إبراهيم وإسماعيل وهاجر ببناء الكعبة فرحة كبرىٰ لا يقدر علىٰ وصفها قلم؛ لأنها رمز عقيدة التوحيد والعلم الذي يلتف حوله المؤمنون بدين إبراهيم، بل هي تجسيد لدعوة إبراهيم عليه السلام لتظل أبد الدهر مبعث الهدىٰ ونور الإيمان للدين الحنيف وعبادة الواحد القهار، ثم لتكون قبلة المسلمين إلىٰ يوم الدين ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾(٢).

واستمر إبراهيم في الدعاء إلىٰ الله في المكان المقدس والأيام المفتحة فيه أبواب السماء، ليستكمل أسس هذا العمل العظيم الذي يختتم به حياته ويجعله الأثر الخالد لرسالته وقال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾(٣) وكذلك استمر إبراهيم في الدعاء ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾(٤)، ثم أخذ إبراهيم يفكر في كيفية إعلام الناس ببيت الله الحرام بمكة ليحجوا إليه وأوحىٰ إليه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ

---

(١) سورة آل عمران ٩٦-٩٧.
(٢) سورة البقرة ١٢٧-١٢٩.
(٣) سورة إبراهيم ٣٥.
(٤) سورة البقرة ١٢٦.

ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾[1].

عندئذٍ اعتلىٰ إبراهيم سطح الكعبة الشريفة ودوىٰ صوته في الآفاق يدعو الناس للحج والطواف بالكعبة، وكان أول مؤذن في الوجود باسم الله أكبر الواحد الأحد، فحملت الملائكة أذانه إلىٰ جميع القلوب المؤمنة بالتوحيد؛ فأجابت القلوب المؤمنة في مشارق الأرض ومغاربها والأجنة في أرحامها والأرواح في برزها التي قُدِّر لها الحج بقولها «لبيك اللهم لبيك» واستمر يرن صداه منذ أربعة آلاف عام وسيستمر إلىٰ قيام الساعة يجلجل صوته في قلوب المؤمنين، ليؤدوا فريضة الحج إحدىٰ الأركان الخمسة في الدين الإسلامي الحنيف، وبعد أن أذَّن إبراهيم أخذ يطوف حول الكعبة هو وإسماعيل وهاجر وباقي المؤمنين من القبائل العربية، فكانت أول جماعة تطوف البيت العتيق محرمة لله وهي الأسس الأولىٰ لمناسك الحج إلىٰ يومنا هذا.

عاد إبراهيم إلىٰ سارة في الشام وأخبرها ببناء الكعبة الشريفة، وتاقت نفسها أن تذهب للحج والزيارة هي وولدها إسحاق ليزور هاجر وإسماعيل، وتمتع عينيها برؤية بيت الله الحرام، ولكن حدث أن مرضت هاجر بعد ذلك بقليل ولم يمهلها المرض إلا أيامًا معدودات، وكانت في الستين من عمرها وانتقلت روحها الطاهرة النقيَّة إلىٰ ربها مطمئنة مرضية، ودُفن جثمانها

(١) سورة الحج ٢٦-٢٨.

الشريف بجوار الكعبة المكرمة ولم يحضر دفنها إبراهيم لأنه كان في الشام وقتئذ؛ والمصريون جميعًا يفخرون بهاجر المصرية رحمها الله رحمة واسعة، ويعتبر المصريون أخوال إسماعيل عليه السلام والعرب جميعًا، وفي حديث شريف يقول رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم: «إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرًا فإن لهم ذمة ورحمًا»[1].

بعد أن توفيت هاجر ودُفنت في مكة، وتوفيت أيضًا سارة ودُفنت في الشام في حبرون «الخليل»، وكان إسماعيل في مكة يتصدر العرب ويقوم بنشر رسالة التوحيد بينهم، وكذلك كان إسحاق في الشام مع أبيه إبراهيم، وكان عند وفاة أمه سارة في حوالي الأربعين من عمره، وتزوج إسحاق عقب ذلك مباشرة من حفيدة ملكة خالته، ولم يشأ إبراهيم عليه السلام أن يبقىٰ رغم كبره بدون زوجة بعد وفاة زوجتيه هاجر وسارة وقد بلغ المائة والأربعين سنة ولهذا تزوج بزوجتين آخرتين واحدة من الشام من الكنعانيين، والأخرىٰ من مكة من العرب، وهما:

١- قطوة ابنة يقظان: تزوجها إبراهيم عليه السلام من الكنعانيين وأنجب منها ستة أبناء هم: يقشان/ زمران/ مدان/ مدين/ أشيق/ شيوخ.

٢- حجون بنت أمين: تزوجها من العرب بمكة فولدت له خمسة أبناء هم: كيسان/ فروح/ أهيم/ لوطًا/ نافس- وبذلك أصبح مجموع أبناء إبراهيم عليه السلام ثلاثة عشر رجلًا بما فيهم إسماعيل وإسحاق.

---

(١) الطبراني في الكبير عن كعب بن مالك.

ومن العجيب أن سارة لم تلد إلا ابنًا واحدًا هو إسحاق ولها العذر لأنها كانت عجوزًا، أما هاجر فكان سنها مناسبًا ولكنها لم تلد إلا واحدً هو إسماعيل، كما أنجب إبراهيم عليه بعد بلوغ المائة والأربعين سنة أحد عشر ابنًا آخرين وجميعهم ذكور ولله في خلقه شئون.

أضف إلىٰ ذلك أن إسماعيل عليه السلام قد أنجب أيضًا اثنا عشر ابنًا، وإسحاق أنجب اثنين هما العيسو ويعقوب، ثم أنجب يعقوب عليه السلام اثنا عشر سبطًا.

وقد طال عمر سيدنا إبراهيم عليه السلام حتىٰ رأىٰ أحفاده وقد قاربوا الخمسين رجلًا وتفرقوا في بقاع الأرض يحملون عقيدة التوحيد وينشرونها في المناطق المجاورة للجزيرة العربية في الشام والعراق وإيران، وصدق الله العظيم في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

وهكذا أتمَّ سيدنا إبراهيم عليه السلام رسالته كاملة بجهاده وجهاد أولاده وأحفاده في حياته وبعده، وبقيت دعوته في عقبه من بعده يتوارثها الأنبياء ومَن بعدهم من المؤمنين حتىٰ يرث الله الأرض ومن عليها، وكان أبرز دعوة سيدنا إبراهيم أنه أرسىٰ قواعد التوحيد عصب الدين الإسلامي والأديان السماوية كلها، وأقام الكعبة الشريفة مركز الحج السنوي علىٰ مدىٰ الدهور منذ عهد سيدنا إبراهيم إلىٰ قيام الساعة، وكفىٰ سيدنا إبراهيم فخرًا أنه باني الكعبة

(١) سورة النحل ١٢٠-١٢٢.

المقدسة التي يحج إليها ملايين المسلمين كل عام من مشارق الأرض ومغاربها، ملبين دعوته منذ أربعة آلاف سنة وسيظل هذا الفرض الديني العظيم يؤديه المسلمون القادرون إلىٰ نهاية البشرية. ولا ينقطع الطواف حول الكعبة المشرفة ليلًا أو نهارًا طوال أيام السنة بجانب أيام الحج التي يزدحم فيها الطواف بدرجة كبيرة، وتلك آية من آيات الله، وفي أحد أركان الكعبة يوجد الحجر الأسود، وكذلك يوجد بجوار الكعبة الحجر الأثري الذي كان يقف عليه سيدنا إبراهيم وهو يبني الكعبة وهو محفوظ داخل قبة من البللور.

وفاته: وتوفي سيدنا إبراهيم عليه السلام عن ١٧٥ عامًا قضاها وهو في اقوىٰ صحة متنقلًا بين الأقطار يدعو للإيمان بأن لا إله إلا الله- وحج البيت من استطاع إليه سبيلًا.

ثم دفنه بنوه وفي مقدمتهم إسماعيل في مقبرة المكفيلة بمدينة «الخليل» حبرون بالشام بجوار زوجته سارة رحمة الله وبركاته عليهم أجمعين.

❋ ❋ ❋

سيدنا إسماعيل عليه السلام

عاش إسماعيل ١٣٧ سنة، وكانت زوجته وأولاده هم:

السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي:

هي زوجة إسماعيل عليه السلام، وقد ولدت اثني عشر ابنًا هم:

نايتا/ قيدار/ أديئل/ مبسام/ مسمع/ دومه/ مسا/ حدار/ تيما/ بطور/ ونافش/ قيدما.

ثم ولدت له ابنة أرخىٰ اسمها/ نسيمة- وقد تزوجت فيما بعد من العيص ابن عمها إسحاق وأنجبت منه ولدًا اسمه الروم بن العيص.

❁ ❁ ❁

إسحاق عليه السلام

قرر إبراهيم عليه السلام أن يزوِّج ابنه إسحاق وهو في الأربعين من عمره بعد أن توفيت أمه سارة من أسرة إبراهيم، حتىٰ لا يختلط نسله بالكنعانيين، ولذلك تزوج إسحاق من حفيدة أخيه «ناحور» الذي كان مقيمًا في مدينة «حاران» بشمال العراق، وهي في الوقت نفسه حفيدة «ملكة» خالة إسحاق، لأنه كما سبق أن قلنا إن إبراهيم وأخاه ناحور تزوجا الاثنين «سارة وملكة» بنتي عمهما «هاران الكبير» منذ أن كانا ببابل.

رفقة بنت بتويل: زوجة إسحاق وحفيدة ناحور أخو إبراهيم، ولم تنجب من زوجها في أول الأمر إلىٰ وصل إسحاق إلىٰ الستين من عمره فحملت مرة واحدة وولدت توأمين هما «العيص ويعقوب».

❁ ❁ ❁

لوط عليه السلام

هو ابن هاران شقيق إبراهيم الخليل، ولما مات أبوه تبناه عمه «إبراهيم الخليل» لأنه لم ينجب أبناءً حتىٰ بلغ التسعين من عمره، وكان لوط أحد من آمن بإبراهيم من الصبية وهاجر معه من بابل إلىٰ حاران، ثم تزوج وهاجر معه إلىٰ الشام واستقر بمدينة سدوم بالأردن هو وعبيده ومواشيه وزوجته وبناته، ويقول الله عنه: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾(١).

وكان أهل سدوم فاسقين لا أخلاق لهم يرتكبون المنكر والفجور علىٰ قارعة الطريق وفي نواديهم، ويتخطفون الناس ليفسقوا فيهم عنوة وعلىٰ رؤوس الأشهاد دون خجل أو مداراة، وكان لوط ينهاهم عن ذلك ويبيِّن لهم سوء عملهم كما ورد في القرآن ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ٨١ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾(٢)، وكذلك وصفهم الله بقوله: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَ﴾(٣).

امرأة لوط: لم يُعرف اسمها وقد كانت تشايع قوم لوط في فسقهم، ورغم أنها في بيت النبوة، إلا أنها كانت مثلًا للانحراف والفكر السقيم الذي يهوي بصاحبه إلىٰ الهلاك، لم تكن مؤمنة بدعوة لوط للتخلق بالفضائل

(١) سورة العنكبوت ٢٦.
(٢) سورة الأعراف ٨٠-٨٢.
(٣) سورة العنكبوت ٢٩.

وعقيدة التوحيد، ولكنها كانت مثلًا سيئًا للشذوذ العقلي والكفر والضلال، ولما شاء الله بهلاك قوم لوط وأرسل ملائكته أولًا إلىٰ إبراهيم عليه السلام في حبرون ليبشره أولًا بغلام له يُدعىٰ إسحاق، ثم أخبروه بأنهم سيهلكون قوم لوط أجمعين ليكون إبراهيم علىٰ علم بما سيحدث لهم، وأما لوط نفسه وأهله المؤمنون فإن الله منجيهم من العذاب الأليم.

ولما وصلت الملائكة في صورة فتيان مردة ونزلوا ضيوفًا علىٰ لوط، خرجت امرأة لوط مسرعة إلىٰ القوم وأخبرتهم أن ضيوفًا عند لوط في منزله لم تر مثيلًا في الجمال، وهذه هي السقطة الكبرىٰ التي وقعت فيها امرأة لوط وعاقبها الله عليها بالهلاك مع القوم: ﴿لَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[1] إلىٰ هنا يصل الموقف إلىٰ ذروته إصرار من القوم علىٰ أن يأخذوا الضيوف ليأتوا بهم في ناديهم المنكر. ولوط وحيد في داره ليس له القوة الجسمانية لمقاومة أولئك المكرة من القوم، وتحرج الموقف إلىٰ أبعد الحدود حتىٰ عرض عليهم بناته عوضًا عن الضيوف فلم يقبلوا. وما أصعب علىٰ النفس المؤمنة أن تضحي إلىٰ هذا الحد، وتقول التوراة في ذلك: «هوذا لي ابنتان لم تعرفا رجلًا أخرجهما إليكم فاعلوا بهما كما يحسن في عيونكم» هذا هو البلاء العظيم

(١) هود ٧٧-٨٠.

الذي جرته عليه امرأته الكافرة التي صارت مثلًا للشر والانحراف «واذكروا امرأة لوط» ولكن رحمة الله تداركت لوطًا في ساعة العسرة هذه إذ نادته ضيوفه من داخل الدار ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾(١) وألقىٰ أحد الرسل علىٰ أولئك القوم بحفنة من التراب فعميت أبصارهم وحرقت أجسامهم فولوا هاربين يتخبطون في جدران المدينة مما أصابهم ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾(٢).

عندئذٍ سجد لوط لربه شاكرًا له إنقاذه من هذا الكرب العظيم وإنه لم يتركه في هذا الموقف الخطير دون عون عاجل علىٰ يد رسله المكرمين تحقيقًا لقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾(٣) ولقد سمع لوط امرأته من داخل الدار تولول علىٰ ما حل بالقوم من عمىٰ في عيونهم وإصابات محرقة في وجوههم وتنذر باحتمال ثورة أهل المدينة جميعًا عليهم ليفتكوا بهم انتقادًا لذويهم فتوجه لوط إلىٰ ربه أن ينجيه وأهله وضيوفه من هذه القرية الظالم أهلها ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ﴾(٤).

فأجابه الضيوف علىٰ الفور لا تخف إنا أُرسلنا إلىٰ هؤلاء القوم المجرمين: ﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾(٥) فاطمأن لوط لأنه يعلم صدق

---

(١) سورة هود ٨١.

(٢) سورة القمر ٣٧.

(٣) سورة يوسف ١١٠.

(٤) سورة الشعراء ١٦٩.

(٥) سورة هود ٧٦.

رسل الله واستوضحهم الأمر فقالوا له: ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٦٤ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۝٦٥ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾[1] وفعلاً صدع لوط لأمر الرسل وخرج بأهله وهم زوجته وبنتاه قبيل الفجر، وسار غير بعيد من القرية وهو يذكِّر أهله بشرط الملائكة ألا يلتفت منهم أحد إلىٰ القرية، ولكن امرأته كان قلبها معلقًا بأولئك الفاسقين ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[2] ولما سمعت امرأة لوط تساقط المنازل بالقرية وحدوث الصواعق عليه اضطرب قلبها والتفتت وراءها لترىٰ ما حل بالمدينة فأصابها حجر مسوم من سجيل فأرادها قتيلة لأنها خالفت شرط الرسل ولم تكن من المؤمنين بل كانت امرأة سوء بإخبارها القوم الفاسقين بضيوف لوط المكرمين- ولهذا حق عليها عذاب الله بقوله تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[3].

واستمر لوط وبنتاه في السير بعيدًا عن المدينة حتىٰ ضحىٰ اليوم واطمأنوا علىٰ نجاتهم فخروا ساجدين لله شاكرين فضله عليهم ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝١٧٠ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٧١ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾[4].

(١) سورة الحجر ٦٤-٦٦.
(٢) سورة هود ٨٢-٨٣.
(٣) سورة التحريم ١٠.
(٤) سورة الشعراء ١٧٠-١٧٣.

وتلك العجوز هي امرأة لوط التي صارت مثلًا للزوجة المنحرفة التي تكون شرًّا وبيلًا علىٰ زوجها، خلاف المعهود في الزوجة أن تكون عونًا لزوجه تشاركه في سرائه وضرائه تدافع عنه قدر استطاعتها وتحفظ له شرفه وكرامته.

ولهذا انتقم الله من امرأة لوط وجعلها مثلًا للكفر والشذوذ والعصيان وسجلها القرآن مع القوم الفاسقين ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾[1].

وأما لوط عليه السلام وبنتاه فقد وصلوا بسلام إلىٰ مدينة «الخليل» حيث يقيم عمه إبراهيم عليه السلام وقصَّ عليه ما حدث لأهل سدوم الخاطئين. ثم انتقلوا إلىٰ مدينة «صور» ليقيموا بها. كما قال الله عنه: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2].

رئيا وذعرتا: هما ابنتا لوط عليه السلام ولم ينجب غيرهما وكانتا مؤمنتين وأنجاهما الله مع أبيهما من تلك القرية الفاسدة وهما مثلًا للإيمان الصادق بخلاف أمهما زوجة لوط التي كانت مثلًا للفكر والعصيان.

❁ ❁ ❁

(١) سورة هود ٨١.
(٢) سورة الأنبياء ٧٤-٧٥.

يعقوب عليه السلام

عندما شبَّ يعقوب وأراد أن يتزوج، نصحت له أمه «رفقة» أن يتزوج من أهله كما فعل أبوه إسحاق من قبل، وفعلًا سافر من «حبرون» إلىٰ «حاران» في أرض العراق حيث يقيم خاله «لابان أخو رفقة» وطلب منه أن يزوجه إحدىٰ بناته «راحيل» وكان لخاله ابنتان، الكبرىٰ اسمها «ليئة» والصغرىٰ اسمها «راحيل» واتفق يعقوب مع خاله لعدم وجود المال ليدفعه مهرًا لها أن يخدمه سبع سنوات يرعىٰ له الأغنام، وبعد انقضاء تلك السنوات السبع أدخله خاله علىٰ الكبرىٰ- وقال له إن أردت الصغرىٰ فأخدمني سبع سنين أُخر، وفعلًا خدمه سبع سنوات أخرىٰ، وتزوج من الصغرىٰ «راحيل».

وكان مباحًا أن يتزوج الرجل من شقيقتين حتىٰ حرَّمته التوراة في عهد سيدنا موسىٰ بعد ذلك، وكان لكل من الزوجتين «ليئة وراحيل» أمة- أي خادمة- ووهبت كل منهما خادمتها لزوجها، وبذلك أنجب سيدنا يعقوب من زوجتيه وخادمتيهما اثني عشر ولدًا هم المعروفون بالأسباط، كما أن سيدنا يعقوب كان يُدعىٰ أيضًا بـ«إسرائيل»، وأسماء الأسباط وأمهاتهم كما يلي:

أ – **ليئة**: زوجة يعقوب الأولىٰ وبنت خاله الكبرىٰ، وأنجب منها: راوبين- شمعون- لاوي- يهوذا- يساكر- ذبولون.

ب- **راحيل**: زوجة يعقوب الثانية وبنت خاله والأحب إلىٰ قلبه لجمالها وأنجب منها: يوسف- بنيامين.

ج- **بلها**: جارية راحيل، وأنجب منها: دان- نفتالي.

د – **زلفا**: ارية ليئة، وأنجب منها: جاد- أشير.

وقد ماتت زوجته «راحيل» في شبابها وتركت ولديها الصغيرين يوسف في الثالثة، وبنامين في الثانية من عمره، فقامت بتربيتهما أختها «ليئة» زوجته الثانية، وكانا يعتبرانها أمًا لهما.

وعاش يعقوب ١٧٠ سنة ومات في مصر عند ابنه يوسف الصديق الذي كان قد عُيِّن وزيرًا لمملكة مصر، ثم نقله ابنه يوسف وإخوته ودفنوه في احتفال عظيم في مقبرة المكفيلة بمدينة «الخليل» مع أبيه إسحاق وجده إبراهيم عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام.

❁ ❁ ❁

يوسف الصديق عليه السلام

مقـــدمة:

سبق أن قلنا أن سيدنا يعقوب عليه السلام أنجب اثني عشر ولدًا وهم الذين يُعرفون بالأسباط، ومن ضمنهم يوسف وشقيقه بنيامين من زوجته الحبيبة إلىٰ قلبه «راحيل»، التي توفيت في ريعان شبابها أثناء انتقال يعقوب وأبنائه وأسرته من حاران إلىٰ الشام ليقيم في مدينة أبيه وجده «حبرون» مدينة الخليل الآن، وكان يوسف في الثالثة من عمره وشقيقه في الثانية وقد قامت بتربيتهما زوجته الثانية «ليئة» شقيقة أمهما «راحيل».

ولهذا كان يوسف محببًا إلىٰ قلب أبيه أكثر من إخوته مما أثار فهم الحقد والحسد وقرروا أن يتخلصوا منه، وفعلًا تحايلوا علىٰ أبيهم وأخذوه معه وألقوه في بئر عميق وكان عمره ست سنوات، وعادوا إلىٰ أبيهم عشاءًا يبكون بكاء التماسيح وأخبروه كذبًا بأن أكله الذئب ولم يصدقهم أبوهم فيما قالوا ولكنه تجمَّل بالصبر علىٰ كرهٍ منه.

وصادف أن مرَّت قافلة بجوار البئر فأرسلوا أحدهم ليجلب ماءًا منها وألقىٰ دلوه في البئر فتعلق يوسف فيه فأخرجه، وفرحت به القافلة واعتبرته بضاعة رابحة تجني من وراء بيعه ثمنًا كثيرًا، وفعلًا بيع في مصر، ولكن بثمن بخس- دراهم معدودة- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[1].

---

(١) سورة يوسف ٢١.

ذلك هو عزيز مصر أي وزيرها الأول وكان يُدعىٰ «قطفير بن زحيب» هو الذي اشترىٰ يوسف، وكان عقيمًا فتربىٰ يوسف في منزله معززًا مكرمًا يحوطه الثراء الكبير والنعيم الواسع مما عوضه الشيء الكثير عن محنته الأولىٰ بإلقائه في الجب وحرمانه من أبيه.

امرأة العزيز: واسمها «راعيل بنت رعبائيل» أو «زليخة» زوجة قطفير الوزير الأول لفرعون مصر وهي بنت أخت الملك، وقامت بتربية يوسف أعز تربية وأكرم مقام لأنه كان طفلًا صغيرًا في السادسة من عمره، فتبنته لأنها لم تنجب خلفًا فقرت به عينها وتفتح له قلبها منذ وقع نظرها عليه لجمال خلقته وبراءة طفولته.

وشبَّ يوسف في بيت العزيز عبدًا مملوكًا مطيعًا لأمر سيدته ولا يعصي لها أمرًا، بجانب ما كان عليه من ذكاء وآداب وأخلاق فاضلة إلىٰ أن بلغ سن الشباب ومراحل العلم، وأصبح مكتمل الجسم فاتن الحسن والرؤيا كأنه البدر سناءً وبهاءً وقد ورث هذا الجمال الأخذ عن جدته «سارة» كما قيل في الحديث الشريف: «أُعطي يوسف وأمه شطر الحسن» ولقد جرَّ عليه هذا محنة كبرىٰ وابتلاءً جسيمًا فقد افتتن به امرأة العزيز وشغف به حبًا وطار صوابها هيامًا في جماله، فتنازلت عن كبريائها بصفتها سيدته وربة البيت الآمرة الناهية وأخذت تلاطفه وتُظهر له محاسنها ومفاتنها وتغريه بأنوثتها وعواطفها، فلم يلق بالًا لها ولم تتحرك فيه نحوها أية مشاعر أو أحاسيس فزاد هذا الإعراض من لهيب قلبها نحوه، وأقدمت علىٰ آخر خطوة حتمية

تشفي بها غليلها ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾[1].

لم تجد بُدًا من تنفيذ ما أوصىٰ به شيطانها لها إذا دعته إلىٰ مخدعها فأسرع إليها لأنه خادمها المطيع، فأغلقت عليهما باب حجرتها ظنًا منها أن في ذلك أمانًا واطمئنانًا له ودعته إلىٰ نفسها فأبىٰ وامتنع، وهمّت به لترغمه علىٰ ذلك فهمَّ بها يدفعها عن نفسه في لطف وأدب ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2] بهذا الرد الجميل كان يخاطب سيدته بأن زوجها قد أحسن إليه وأكرمه بإقامته وتربيته في منزله فلا يقبل أن يقابل ذلك الإحسان بالفاحشة ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾[3] ولقد تكرر منها الطلب له وبقي يوسف علىٰ رأيه من الإباء والامتناع، ظهرت له صورة أبيه يعقوب تشد أزره في موقفه وتشجعه علىٰ الامتناع وطنَّ في أذنه صوت ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ﴾[4] عندما قرر يوسف أن يضع حدًا لهذه الأزمة المحرجة فأفلت من يدها هاربًا إلىٰ الباب، فأهاج ذلك شعورها وعاطفتها الملتهبة وجرح كبرياءها في الوقت نفسه، فاندفعت وراءه وأمسكت من خلفه تجذبه ليعود إليها فتمزق القميص ولكن يوسف كان قد تمكن من فتح الباب فوجد زوجها علىٰ الباب، فكانت الطامة الكبرىٰ والموقف الحرج

(١) سورة يوسف ٢٣.
(٢) سورة يوسف ٢٣.
(٣) سورة يوسف ٢٤.
(٤) سورة الإسراء ٣٢.

المخزي، فتصرفت المرأة بسرعة مذهلة لأنها مجرمة وسيدة قديرة ومكابرة، وألبست التهمة ليوسف الشاب الحدث البريء كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١). عقدت الدهشة لسان يوسف أن يرىٰ سيدته تبرئ نفسها وتلقي بالتهمة عليه في جرأة وافتراء ثم تطلب معاقبته بالعذاب أو السجن وغلىٰ الدم في عروقه وترقرقت في عينيه الدموع فرقَّ لحاله العزيز وساورته الشكوك وقال له تكلم يا ولدي فقال يوسف: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾(٢) فقال له العزيز وما برهانك علىٰ ما تقول؟ فسكت يوسف ولم يجر جوابًا وتصبب عرقًا لأنه لم يجد دليلًا علىٰ ما يقول، وفي هذه اللحظة الحرجة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾(٣) وشهد شاهد من أقارب الزوجة معجزة ليوسف ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٤).

كان هذا الرأي السديد القول الفصل في القضية ليظهر الحق من الباطل وابتهجت أسارير يوسف عند سماعه هذا الرأي، وأورىٰ مباشرة للعزيز أن قميصه مُزِّق من الخلف لأنه كان يهرب منها وهي تمسك به من الخلف ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

(١) سورة يوسف ٢٥.
(٢) سورة يوسف ٢٦.
(٣) سورة يوسف ١١٠.
(٤) سورة يوسف ٢٦-٢٧.

يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾[1]. بهذا الحكم العادل الصارم قضىٰ العزيز بالحق في القضية وبيَّن براءة يوسف وطلب منه ألَّا يذكر هذا الموضوع لأحد، وأمر زوجته أن تستغفر ربها من هذه الخطيئة التي ارتكبتها.. والفضل كله في الواقع يرجع إلىٰ ذلك الشاهد.

بعد ذلك شاع في المدينة خبر يوسف وامرأة العزيز ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[2] فلما علمت بما تناقلته النساء عنها في هذا الموضوع قالت في نفسها لو شاهدنه لعذرنني ونفَّذت الفكرة ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ٣١ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[3] لقد ظن يوسف أن ما بينه وبين امرأة العزيز قد انتهىٰ إلىٰ غير رجعة ولكنه فوجئ به يتجدد وعلىٰ ملأ من نساء المدينة، ثم يسمع التهديد والوعيد بأن يستجيب لرغبتها أو يُسجن ويُعذب وما يدري فقد تطارده باقي نسوة المدينة، فكلهن قد شغفن به وبعد أن كان حبيس بيت واحد يقاوم فيه بكل مشقة فقد تجاوزه إلىٰ المدينة كلها، فلم يجد يوسف بُدًا من التوجه إلىٰ الله بقلب سليم ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ

(١) سورة يوسف ٢٩.
(٢) سورة يوسف ٣٠.
(٣) سورة يوسف ٣١-٣٢.

مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٣٣ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[1].

لقد طلب يوسف من الله أن يُسجن لينأىٰ بشرفه عن فتنة النساء ويبعد عن مكايدهن لأنه خشي علىٰ نفسه منهن والنفس أمَّارة بالسوء، لولا مدد من الله يقويها ويجعلها في منعة من وساوس الشيطان.

واستجاب الله لدعاء يوسف، وقرر العزيز أن يسجن يوسف إطفاءً للإشاعات التي سرت في المدينة عن يوسف وزوجته حتىٰ ينسىٰ الناس هذا الحديث ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾[2].

دخل يوسف السجن فرارًا بشرفه أن يدنس وهروبًا من امرأة ركبت رأسها ودفعتها عواطفها الأنثوية أن ترتكب معه فاحشة محرمة، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم أي وهو النبي ابن النبي ابن النبي ابن النبي لأنه ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وهذا حديث شريف[3].

وبقي في السجن سنوات كثيرة جاوزت العشر سنوات حتىٰ بلغ الثلاثين من عمره وأُخرج من السجن بسبب معرفته تفسير الرؤيا والأحلام، فقد رأىٰ الملك رؤيا لم يستطع رجال الدين والكُهان تفسيرها وقالوا أضغاث أحلام، ثم سُئل عنها يوسف وفسرها تفسيرًا رضي عنه الملك وتيقنه ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ

---

(١) سورة يوسف ٣٣-٣٤.

(٢) سورة يوسف ٣٥.

(٣) حديث البخاري في كتاب الأبناء، ومسلم في فضائل يوسف عليه السلام.

يَابِسَٰتٖ﴾[1] فقال يوسف ﴿تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ٤٨ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾[2].

لهذا قرر الملك الإفراج عن يوسف من السجن وإحضاره إليه ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾[3] لم يقبل يوسف أن يخرج من السجن إلا بعد أن تثبت براءته من التهمة التي أُلصقت به من نسوة المدينة، وطلب من الملك أن يحضرهن ليسألهن عنها وفعلًا طلبهن الملك ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[4] تبيَّن للملك وللملأ عامة أن يوسف بريء من تلك التهمة التي دخل السجن من أجلها، وشهدت امرأة العزيز بطهارته وعفته وعصمته، عندئذٍ ذهب يوسف إلىٰ الملك وبعد أن استوثق الملك من علمه وإخلاصه وأمانته عيَّنه الوزير الأول لمملكة مصر- بدلًا من «قطفير» الذي مات قبيل ذلك- وتقلد يوسف هذا المنصب الخطير في مصر وزيرًا للخزانة ومخازن الغلال ليباشر بنفسه

(١) سورة يوسف ٤٣.
(٢) سورة يوسف ٤٧-٤٩.
(٣) سورة يوسف ٥٠.
(٤) سورة يوسف ٥١.

تنفيذ ما فسّره من رؤية الملك، وكان في ذلك خيرًا لمصر إذ أنقذ أهلها من قحط محقق لولا حكمة وتصرف يوسف الصديق.

هذا هو الدور الذي لعبته امرأة العزيز في حياة يوسف الصديق إذ كان ربيبها وأسرها جماله ووقعت في حبه وراودته عن نفسه، فأبىٰ واستعصم فهددته بالسجن فطلبه مفضلاً إياه عن أن يقع في رذيلة، وتحمَّل سنين السجن التي زادت عن عشرة سنوات بقلب مطمئن ونفس راضية، وفي داخل السجن أخذ ينشر دعوة آبائه وأجداده دعوة الإيمان بعقيدة التوحيد وأن يُعبد الله الواحد الأحد خالق السموات والأرض.

ذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1].

واستمر يوسف الوزير الأول لملك مصر سنوات طويلة ثم استحضر أباه يعقوب وأخوته الإحدىٰ عشر وباقي أهله من الشام وأسكنهم بمصر- ومات أبوه يعقوب في مصر ثم حمله يوسف وأخوته ودفنوه في مقبرة العائلة في مقبرة المكفيلة بحبرون «مدينة الخليل» بجوار أبيه إسحاق وجده إبراهيم الخليل.

---

(١) سورة يوسف ٣٩-٤٠.

ثم بقي بعد ذلك يوسف يحكم في مصر حتىٰ توفاه الله بعد أن بلغ من العمر مائة وعشرين عامًا، ثم دُفن في مصر إلىٰ أن حمله بنو إسرائيل معهم عند خروجهم من مصر ودفنوه في خارج سور مدينة الخليل.

❁ ❁ ❁

أيـــوب عليه السلام

مقـــدمة:

لقد كان نبي الله أيوب من نسل العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل وكان متزوجًا من السيدة «رحمة» من نسل أفرايم بن يوسف الصديق، وقد وهبه الله وفرة في الرزق وكثرة في الأبناء وبسطة في الصحة، وبذلك تمت له نعم الله في الحياة الدنيا وزينتها، وهي المال والبنون والصحة، ومع هذا الفضل العظيم- شاء الله أن يجعل منه نموذجًا للبشرية في التجمل بالصبر واحتمال المصائب بقلب راضٍ بقضاء الله ولسان شاكر لما أراد الله- فقد ابتلاه الله بذهاب أمواله وأولاده وصحته- فعندما بلغه نبأ هلاك زرعه وموت إبله وأغنامه وجميع أنعامه قال: الحمد لله علىٰ ما أنعم وسلب هو مالك الملك ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

وبعد ذلك بقليل فَقَدَ أولاده السبعة إذ سقط عليهم سقف للدار فماتوا جميعًا، ولما علم أيوب بذلك بكت عيناه ألمًا وحزنًا علىٰ فراق بنيه ولكنه تذرع بالصبر وتوجه إلىٰ الله بقوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[2] إن الأبناء وديعتك عندنا يا رب- أعطيتها ثم أخذتها فلا اعتراض علىٰ ما قضيت ولكن تسليم لما قدَّرت وشئت فعلينا الصبر ولك الشكر.

---

(١) سورة آل عمران ٢٦.

(٢) سورة البقرة ١٢٦.

امتحن الله أيوب في الأموال والأولاد فوجده صابرًا صادق الإيمان بربه، فابتلاه بالمرض في جسده حتىٰ أقعده وطال سقمه حتىٰ صار هيكلًا عظميًا لا قدرة له علىٰ المشيء أو الحركة، ومع ذلك لم ينقطع لسانه عن ذكر الله والرضا بما شاء له الله، وظل علىٰ هذه الحال سبع سنوات مريضًا علىٰ فراشه بعد أن انفض من حوله الأصدقاء والأتباع ولم يكن بجواره طوال هذه السنين غير زوجته لتخدمه بإخلاص ووفاء.

رحمـة: هي زوجة أيوب النبي المبتلىٰ عنوان الوفاء والعطف والإنسانية في أعلىٰ مراتبها، وقفت بجانب زوجها في محنته وشاركته هذا البلاء الذي لا تتحمله الجبال، وأي قلب لهذه الأم التي تفقد بنيها جميعًا في لحظة ثم ترىٰ هلاك أموال زوجها فجأة ويزول عنها النعيم والترف، ثم تنزل المصيبة الكبرىٰ بمرض زوجها مرضًا محزنًا مؤلمًا يُلزمه الفراش سنوات عديدة، ثم تتذرع بالصبر أيضًا مثل زوجها وتشمر عن ساعدها لتكسب القوت لزوجها، ولم تجد في ذلك غضاضة حيث تظهر القيم الخلقية ويكشف عنها عند الشدائد، فما برحت بجوار زوجها توفر له العيش وتجلب له الدواء قدر الاستطاعة دون تبرم أو ملل ولا غرابة في ذلك فهي تعيش في بيت النبوة ومن نسل الأنبياء، فأسبغ الله عليها هذه المكارم والفضائل لتكون نعم العون لزوجها أيوب الذي ابتلاه الله بأشد ما يُبتلىٰ به إنسان يتحقق بالصبر في أسمىٰ درجاته وليكون المثل الأعلىٰ للبشرية في الصبر علىٰ المصائب والرضا بقضاء الله.

وحدث أن خرجت «رحمة» مرة إلىٰ السوق لتبيع غزلها فأبطأت كثيرًا علىٰ زوجها فحلف ليضربها إن برئ مائة ضربة وطردها من منزله حتىٰ يقضي

الله أمرًا كان مفعولًا.. وأصبح أيوب وحيدًا في داره يعاني آلامه وأسقامه بنفس صابرة فتوجه إلىٰ الله بقلب مؤمن ليس متبرمًا ولا ساخطًا ولكنه راجيًا مستعطفًا ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾(١) عندئذٍ تداركته رحمة الله وهو في أعلىٰ درجات الصبر والإيمان الذي تحقق وانفرد بها في البشرية كلها- إذ سمع النداء الإلهي له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾(٢) فسجد لله شكرًا وضرب الأرض بقدمه فنبع الماء زلالًا منها فشرب وارتوىٰ ثم اغتسل منها فشفاه الله من أسقامه فورًا وردَّ عليه صحته وعافيته وكأن لم يمسه ضر من قبل.

وفي هذه الأثناء دخلت عليه زوجته «رحمة» إذ لم تطاوعها نفسها الكريمة أن تتركه وحيدًا وهو في أشد حالات المرض والتمست له العذر فيما قاله لها لأنه ليس علىٰ المريض حرج، ولما دخلت الدار ووجدت أيوب في أحسن صحة عانقته وسجدت شاكرة لله أن ردَّ علىٰ زوجها صحته وقالت له هلا ستنفِّذ قسمك بضربي، قال نعم، فبكت بين يديه مستغفرة تائبة، وفي هذه اللحظة سمع نداء ربه له: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾(٣) فقال لها أيوب لقد استجاب الله لرجائك وأمر برخصة شرعية لهذا القسم بأن أضربك بحزمة بها مائة عود من القش ففرحت رحمة وقالت لزوجها وهي مغرورقة العينين بالدموع لقد كشف الله عنك هذه الغمة في الصحة جزاء الصبر والرضا بالقضاء، فهلا سألت ربك عن أولادنا وفلذات أكبادنا الذين فقدناهم

---

(١) سورة الأنبياء ٨٣-٨٤.

(٢) سورة ص ٤٢.

(٣) سورة ص٤٣.

وهم في زهرة شبابهم فاستودعناهم الله وصبرنا علىٰ موتهم بقلوب راضية وعين باكية.

فإذا بأيوب يسمع نداء ربه الرحيم ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ﴾[1].

فخرَّ أيوب وزوجته ساجدين لرب العالمين وعندما رفعا جبهتيهما من الأرض إذا بأولادهم جميعًا يدخلون عليهم الدار فرحين مهللين معانقين أبويهم- فدوَّىٰ صوت أيوب في الأرجاء الله أكبر- الله أكبر- فتردد هذا النداء في الآفاق وسمعه أهل المدينة جميعهم فجاءوا إليه من كل صوب يشهدون المعجزات من رب العالمين.

لهذا كانت «رحمة» زوجة أيوب مثالًا مشرفًا للنساء فقد كان إخلاصها ووفاؤها لزوجها في السراء والضراء واقتحامها ميدان العمل، لتكسب القوت لزوجها بعد أن تخلت عنه مباهج الحياة الثلاثة وهي المال والبنون والصحة من أروع المثل في التضحية والنبل والأخلاق الكريمة، إنها بحق تحملت فوق الطاقة البشرية صبرًا علىٰ الشدائد ومشاركة وعونًا لزوجها علىٰ اجتياز امتحانه وابتلائه فأكرم بها من زوجة وأنعم بها من امرأة.

❁ ❁ ❁

(١) سورة الأنبياء ٨٤.

موسى عليه السلام

مقـــدمة:

وُلد سيدنا موسىٰ عليه السلام بمصر وتربىٰ في بيت فرعون «رمسيس الثاني»، وأبوه يدعىٰ «عمران» وأمه تدعىٰ «يوكابد» وهما من نسل الإسرائيليين الذين نزحوا إلىٰ مصر مع الأسباط الاثني عشر أولاد سيدنا يعقوب عليه السلام عندما كان يوسف الصديق الوزير الأول لفرعون مصر وذلك سنة ١٦٠٠ ق. م.، وكانت إقامة بني إسرائيل في منطقة جيشان «محافظة الشرقية الآن» وظلوا فيها أربعة قرون حتىٰ ميلاد سيدنا موسىٰ.

وقصة سيدنا موسىٰ في القرآن ذُكرت في أكثر السور، ولم يحدث لنبي آخر أن ذُكر مثله في القرآن بهذه الكثرة من الآيات والمعجزات، وحتىٰ لا يطول بنا الحديث ويُخرجنا عما نحن بصدده يمكن للقارئ الاطلاع علىٰ قصة سيدنا موسىٰ للمؤلف وفيها تفصيل لكل حياته.

يوكـــابد: هي زوجة «عمران» وعمته في الوقت نفسه، وقد كان مثل هذا الزواج مباحًا في العصور السابقة قبل نزول التوراة، وحتىٰ زواج الأخوات كان مباحًا.

وقد أنجبت «يوكابد» من عمران ابنتها «مريم» ثم من بعدها ابنها «هارون»، وفي السنة التي حملت فيها بـ«موسىٰ» أخبر الكاهن الأكبر فرعون أنه يولد مولود من بني إسرائيل في ذلك العام يذهب مُلكه علىٰ يديه، فثار فرعون واستشاط غضبًا وأمر بأن يُذبح كل مولود ذكر من بني إسرائيل- وتنفذ هذا الأمر الفرعوني بكل دقة، بل وزيد عليه استحياء نساء بني إسرائيل أيضًا.

ولكن «يوكابد» كانت تخفي حملها عن أعين الرقباء، ولما وضعت وليدها أخفته أيضًا عن أعين جنود فرعون لمدة ثلاثة شهور، وكان جنود فرعون يقتحمون منازل الإسرائيليين عنوة وبلا استئذان للتفتيش على المواليد الصغيرة الذكورة ويقتلونهم أمام والديهم، ويحملون جثتهم يلقونها في النيل إرضاءً لفرعون وتنفيذًا لأمره، وقد كبر الطفل ولم يعد إخفاؤه مأمون الجانب لكثرة صراخ الأطفال في مثل سنه، خشية أن يسمعه أحد جنود فرعون ويُكتشف أمره فيؤخذ عنوة ويُذبح أمامها ثم تسام هي وزوجها العذاب- بسبب إخفائه وعدم تسليمه للذبح من قبل.

وباتت ليلتها حزينة مرهفة الحس تخشى جنود فرعون أن يدهموها على حين غفلة، ولقد أرّقتها هذه الأفكار، فلم يُغمض لها جفن حتى قارب الله أن ينتهي وحان وقت السحر فغلبها النعاس فإذا بها ترى في منامها ملاك الرب يقول لها: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(١) فقالت لملاك الرب لو ألقيته في الماء سيغوص إلى القاع ويغرق. فقال لها الملاك: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾(٢) وغاب عنها الملاك إلى السماء، فاستيقظت مستبشرة بهذه الرؤية التي طمأنتها على وليدها وإن كان قلبها قلقًا لإلقائه في اليم، وقصَّت على زوجها عمران ما رأت ففرح وسجد شاكرًا لله لأنه وُعد بإنقاذ الطفل ومن يدري لعله يكون هو المقصود بنبوءة كاهن فرعون.

---

(١) سورة القصص ٧.

(٢) سورة طه ٣٩.

وقام عمران علىٰ الفور بصنع التابوت وهو صندوق من الخشب وجهزته «يوكابد» بالوسائد ليكون مريحًا للطفل وكتب علىٰ جوانب التابوت الأربعة عبارات باللغة العبرية «يا رب كما أمرت وضعناه في التابوت» وعلىٰ الوجه الثاني «يا رب كما أمرت ألقيناه في اليم» وعلىٰ الوجه الثالث «يا رب كما أمرت ألقه بالساحل» وعلىٰ الوجه الرابع «يا ربه كما أمرت رده لأمه» وعلىٰ غطاء الصندوق كتب «يا رب كما قلت اجعله من المرسلين».

وقامت يوكابد بوضع الطفل في الصندوق وأجرت ثقوبها في الغطاء ليدخل منها الهواء للطفل، وبعد أن أرضعته حتىٰ شبع قبَّله أبوه عمران وأخوه هارون وأخته مريم ثم قبَّلته أمه باكية وضمته إلىٰ صدرها بحنان، ثم وضعته في التابوت وحملته إلىٰ النيل وأنزلته برفق علىٰ سطح الماء دون أن يراها أحد فجرفه التيار إلىٰ عرض النيل، وطفىٰ علىٰ سطح الماء تحف به ملائكة الرحمة وتحرسه عين الله ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾[(١)] وسار مع التيار وكان ذلك في زمن الفيضان.

ولما كان هناك أمر إلهي للبحر ﴿فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾[(٢)] صدع الماء للأمر وألقىٰ به إلىٰ الساحل في المكان الذي يحقق باقي الآية ﴿يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥ﴾[(٣)] وهو فرعون، ولذلك حجزته بعض شجيرات بالساحل تحت قصر فرعون ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾[(٤)].

(١) سورة طه ٣٩.
(٢) سورة طه ٣٩.
(٣) سورة طه ٣٩.
(٤) سورة القصص ٨.

زوجة فرعون: إذ شاهدت زوجة فرعون ذلك التابوت من شرفة قصرها فأمرت خدمها بإحضاره بين يديها، ولما فتحوا الصندوق وجدوا به غلامًا عبريًا جميل الوجه باسم الفم، فألقىٰ الله محبته في قلب زوجة فرعون فأحبته بكل عواطفها وأحاسيسها وحملته بين يديها وقبَّلته في حنان الأم وشفقة الوالدة، ولم تخف عاطفة الأمومة التي تحركت في قلبها بتدبير من الله وبفضل رعايته له.

ولما رأىٰ فرعون «رمسيس الثاني» الطفل عرف فيه سمات العبرانيين وليس بشكل المصريين فأمر بإحضار الجلاد لقتله وإلقائه في المقابر، ففزعت زوجة فرعون لهول ما سمعت وطوقت الطفل بذراعيها وقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[1] وأبت أن تسلمه لأحد وأخذت تضمه إلىٰ صدرها خوفًا عليه إلىٰ أن رقَّ لها قلب فرعون وطمأنها عليه لما وجدها متشبثة به، ولن يفلح معها أي محاولة لأخذه، عندئذٍ هدأت عواطف زوجة فرعون الثائرة، وقامت به إلىٰ مخدعها وأمرت جواريها بتجهيز سرير له في حجرتها وشغفت بالطفل حبًا ولم تأمن أن تعطيه لأحد ولم تطق أن يفارقها، وأمرت بإحضار المراضع له. ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[2].

يوكـابد: بعد أن ألقت يوكابد التابوت في النيل وبداخله وليدها وفلذة كبدها، هاجت فيها عواطف الأمومة علىٰ ابنها وأخذت الوساوس تحيط بها

---

(١) سورة القصص ٩.
(٢) سورة طه ٣٩.

فقد يغرق وتأكله أسماك البحر أو يلتقطه أحد جنود فرعون فيذبحه، وهكذا صارت فريسة للأفكار المحزنة، ولكن الله ثبت قلبها وأنزل السكينة فيها وذكَّرها بما رأت في منامها ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

مـريم: وحتىٰ يطمئن قلبها لكي تعرف مصير ابنها في التابوت أمرت ابنتها «مريم» أن تسير علىٰ شاطئ النيل في محاذاة التابوت لتعرف مصيره وتأتيها بالخبر ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[2].

ولما جاءت المراضع إلىٰ قصر فرعون امتنع «موسىٰ» أن يرضع منهن ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾[3] فأمرت زوجة فرعون أن يأخذوه إلىٰ السوق خارج القصر ويستحرون عددًا وفيرًا من المراضع عساه أن يقبل إحداهن، وعندئذٍ رأته أخته مريم ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَاصِحُونَ﴾[4] فقالوا لها: نعم فذهبت مسرعة وأحضرت أمها.

يوكـابد: بعد أن أخبرتها بما رأت وما سمعت، ولما وصلت يوكابد إلىٰ الطفل أسرع إلىٰ الرضاعة منها، فأخذوها إلىٰ زوجة فرعون وصارت مرضعة الطفل ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5].

---

(١) سورة القصص ١٠.
(٢) سورة القصص ١١
(٣) سورة القصص ١٢.
(٤) سورة القصص ١٢.
(٥) سورة القصص ١٣.

زوجة فرعون: لقد أطلقت علىٰ اسم الطفل (موسىٰ) أي المنتشَل من بين الشجر والماء، لأن كلمة «مو» تعني الماء، و«شىٰ» تعني الشجر باللغة المصرية القديمة.

ظل موسىٰ يتربىٰ في بيت فرعون ويُطلق عليه موسىٰ ابن فرعون لأن زوجة فرعون قد تبنته، وشبَّ موسىٰ مترفًا معززًا مكرمًا تحميه امرأة فرعون وتدافع عنه من باقي الأمراء وكبار الدولة، وأدخلته معاهد التعليم والتثقيف الديني والكهنوتي ولقد كان متفوقًا في تعلم العلوم الرياضية والأدبية، ولم يتقبل عقله فهم الطقوس والعلوم الدينية ولم يتفتح قلبه لديانة المصريين. وخاصةً أنه بعد أن كبر أفهمته والدته الحقيقية «يوكابد» أنها هي أمه وأنه من نسل العبرانيين الذين يعبدون الواحد الأحد علىٰ ملة وديانة جدهم إبراهيم، وأنهم الإسرائيليون قد قضوا في مصر أربعة قرون يعبدون الله الواحد وهم في معزل عما يعبده المصريين من عجل أبيس أو القط أو قرص الشمس.

فرسخت عقيدة التوحيد في قلب وعقل موسىٰ، ولذلك كان في منأىٰ عن معبودات المصريين الوثنية، وكثيرًا ما كان موسىٰ يصارح زوجة فرعون بهذه الآراء فيجد منها توافقًا للرأي وأنها مثله تميل إلىٰ عبادة الرب الواحد الذي خلق هذا الكون جميعه، تلك كانت ومضات الإيمان في قلب امرأة فرعون.

ولما كبر موسىٰ واشتد ساعده وأصبح شابًا مفتول العضلات ومتيقنًا من قِبَل أمه يوكابد أنها من العبرانيين، وأنها سبق أن جاءها الملاك يبشرها بأن ابنها سيكون من المرسلين وهو موسىٰ نفسه. كما قال الله عنه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ

﴿أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1].

لهذا كان موسىٰ دائمًا نصيرًا للعبرانيين وشاع عنه ذلك في المدينة، وقد حدث أن تشاجر مصري مع عبري فاستغاث العبري بموسىٰ، فوكز موسىٰ المصري فمات فقال هذا من عمل الشيطان واستغفر ربه فغفر له ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾[2]. وفي اليوم الثاني تشاجر العبري نفسه مع مصري آخر وأخذ يستصرخ موسىٰ كما استنصره بالأمس ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ١٨ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِ﴾[3] عندئذٍ عرف أن موسىٰ هو الذي قتل المصري في اليوم الأسبق فتآمر المصريين علىٰ قتله فجاءه رجل صالح وأخبره ﴿إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[4] عندئذٍ هرب موسىٰ من مصر ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[5].

وعبر شبه جزيرة سيناء إلىٰ وادي مدين وقضىٰ هناك نحو عشرين عامًا وتزوج من بنت رجل صالح ورجع ثانية إلىٰ مصر وهو في الأربعين من عمره، وفي طور سيناء كلّمه الله من جانب الطور الأيمن عند الشجرة المباركة، وبلّغه الرسالة ليذهب إلىٰ فرعون ليُخرج بني إسرائيل من أرض مصر لينقذهم من

---

(١) سورة يوسف ٢٢.
(٢) سورة القصص ١٧.
(٣) سورة القصص ١٨-١٩.
(٤) سورة القصص ٢٠.
(٥) سورة القصص ٢١.

العذاب الذي هم فيه، وزوده ربه بمعجزتين لفرعون هما العصا التي تنقلب إلىٰ ثعبان عظيم، ويده التي يضعها في جيبه فتخرج بيضاء تسطع فتنير الآفاق، وبذلك أصبح نبيًّا.

ولما رجع موسىٰ إلىٰ مصر وذهب إلىٰ فرعون ومعه هارون أخوه وطلبا من فرعون أن يسمح بخروج بني إسرائيل معهما من مصر إلىٰ الشام. ودعاه للإيمان بالله خالق الكون رفض فرعون الإيمان برب موسىٰ ولم يسمح بخروج بني إسرائيل معه رغم أنه أجرىٰ أمامه تلك المعجزات الباهرة، وفرحت زوجة فرعون برجوع موسىٰ بعد أن غاب عنها عشرين عامًا في مدين، وأخذت تسمع له دعوته ورسالته وما كلَّمه به الله في سيناء وأخذت تصغي إلىٰ حديثه النبوي وكلام الله المقدس له، فامتلأ قلبها بنور الإيمان وشهدت أمامه بأن لا إله إلا الله الذي خلق السموات والأرض وما فيهن، ووعدته بأنها ستكون العون الكبر له عند فرعون والمدافع عنه كما كانت منذ أن انتشلته من الماء ثم سجدت لله وقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[1].

وهكذا كانت امرأة فرعون رمزًا للمرأة العاقلة المتميزة بحرية الرأي والشخصية والفكر الناضج فآمنت برب موسىٰ عن اقتناع وطلبت من الله أن ينقذها من أعمال فرعون وظلمه وبطشه، فخلدها القرآن مثلًا طيبًا للإرادة الحرة والعقل المستنير والهدي القوي بين الضلال والكفر، ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾[2].

---

(١) سورة التحريم ١١.

(٢) سورة التحريم ١١.

صفورة بنت الرجل الصالح

هي زوجة سيدنا موسىٰ عليه السلام وبنت الرجل الصالح، ولزواجه منها قصة وهي أنه عندما خرج موسىٰ من مصر خائفًا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين وهرب إلىٰ الصحراء شرقًا، وظل يسير في صحراء سيناء علىٰ غير هدىٰ إلا بوحي من الله، واستمر يسير ليلًا ونهارًا لمدة ثمانية أيام حتىٰ أعياه السير ووصل أخيرًا إلىٰ مدينة «مدين» حول خليج العقبة وجلس تحت شجرة بجوارها بئر يتزاحم عليه القوم وكلٌّ يعتمد علىٰ قوته ليسقي غنمه.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾[1] أي تحجزان أغنامهما حتىٰ لا تختلط بأغنام الآخرين وهما في ضعف وذلة، فأخذته الحمية والشجاعة وتقدم إليهما يسألهما ما خطبكما؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[2] فاستشف الضعف فيهما وعدم القدرة علىٰ مزاحمة الرجال فتوجه إلىٰ البئر يدفع القوم عنها وسقىٰ لهما في قوة وشهامة ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[3] لأنه كان يشعر بجوع شديد رغم قوته وشبابه، ولما عادت المرأتان إلىٰ أبيهما مبكرًا علىٰ غير العادة سألهما عن ذلك فأخبرتاه عن ذلك الشاب الغريب الذي سقىٰ لهما، فأرسل إحداهما إليه ليستضيفه ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى

(١) سورة القصص ٢٢-٢٣.
(٢) سورة القصص ٢٣.
(٣) سورة القصص ٢٤.

ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[1]. هنا شعر موسىٰ أن الله استجاب لدعائه ولبىٰ علىٰ الفور دعوة المرأة، وما كان يستطيع أن يفعل غير ذلك لأن هذا تدبير الله وتوفيقه أن يحضر موسىٰ عند البئر في وجود المرأتين ثم يسقي لهما فيكون ذلك سببًا للمصاهرة وإنجاب الذرية فيما بعد.

وقام موسىٰ مع الفتاة يتبعها إلىٰ بيت أبيها استجابة للدعوة وعملًا حتميًا للظروف التي هو فيها، ولما وصل موسىٰ إلىٰ البيت قابله أبوهما الشيخ الكبير «رئيس مدين» بالترحاب والتكريم وحكىٰ للشيخ حقيقة أمره وسبب هروبه من مصر إلىٰ أن وصل إلىٰ مدين فرارًا من قصاص فرعون منه بالقتل جزاء ارتكابه جريمة قتل لأحد المصريين فطمأنه شعيب ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[2].

وهنا تنتهز الفتاة التي صاحبته إلىٰ البيت الفرصة استجابة لطبيعتها في طلب الزواج دون أن يخدش حياؤها ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[3] ويستجيب أبوها لهذا الرجاء فورًا لأنه فهم ما تقصده ابنته وما يدور بخلدها بأن يتخذ منه صهرًا له يشد أذره ويحمي بيته وأمواله.. فقال الشيخ لموسىٰ: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[4].

(١) سورة القصص ٢٥.
(٢) سورة القصص ٢٥.
(٣) سورة القصص ٢٦.
(٤) سورة القصص ٢٧.

ولم يصدق موسىٰ أذنيه إذ يسمع من الشيخ هذا العرض السخي بأن يزوجه إحدىٰ ابنتيه في مقابل أن يخدمه ثماني سنوات يرعىٰ شئونه وأمواله ويقيم معه في بيته معززًا منعمًا، ولما لم تكن هناك أهداف لموسىٰ في رحلته وغربته سوىٰ الفرار بحياته من عقاب فرعون فلم يجد بُدًا من موافقة الشيخ إلىٰ طلبه وقال موسىٰ ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾(١) ولما كان الشيخ قد ترك لموسىٰ حرية اختيار إحدىٰ ابنتيه لتكون زوجة له، وكان ذلك تصرفًا حكيمًا من الأب، لهذا اختار موسىٰ الصغرىٰ (صفورة) ليتزوج منها، وكانت الكبرىٰ تدعىٰ (حنونة).

وعاشت «صفورة» مع موسىٰ في مدين حياة زوجية سعيدة أنجبا فيها ولديها «حبرشوم» و«أليعازر».

قضىٰ موسىٰ في مدين نحو عشرين عامًا وفكر أن يعود إلىٰ مصر بعدها لرؤية أبويه وأهله، وخاصةً أن تلك السنوات الطويلة كانت كافية لأن ينسىٰ فرعون والمصريون حادثة القتل التي سبق أن ارتكبها موسىٰ، أو ربما يكون قد مات فرعون نفسه، ولهذا استقر رأي موسىٰ علىٰ العودة إلىٰ مصر واستأذن صهره شعيب عليه السلام في أن يرحل هو وزوجته وأولاده من مدين إلىٰ مصر، وأذن له بذلك شعيب وذوده بالأغنام والمواشي والأموال؛ وأهداه قبيل الرحيل «عصا» كان يحتفظ بها ويعتز بها ويطلق عليها «عصا الأنبياء المتوارثة» فأخذها موسىٰ شاكرًا ليهش بها علىٰ غنمه.

(١) سورة القصص ٢٨.

وخرج موسىٰ وزوجته وأولاده من مدين وهو في الأربعين من عمره يدفع أمامه أغنامه ومواشيه، واتخذ طريقه بمحاذاة البحر ويحط رحاله حيث توجد المرعىٰ، وظل سائرًا يضرب في الصحراء والجبال، إلىٰ أن وصل في إحدىٰ الليالي جبل طور سيناء وكانت ليلة حالكة الظلمة قارسة البرد شديدة الرياح، فاستوقد نارًا فلم يوفق، ولمح علىٰ البُعد وميض نار ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾[1] أي يأتيهم بجذوة من النار يصطلون عليها أو يجد أُناسًا بجوار تلك النار.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] فخرّ موسىٰ ساجدًا بمجرد أن سمع الإلهي من جميع أجزاء جسمه وجوارحه واهتز كيانه كله واضطرب خوفًا ورهبة من الله، ولكن سرعان ما لفَّته الأنوار القدسية وغشيته الأضواء الإلهية والرحمات الصمدانية فوعىٰ ما سمع وتداركه العقل ليناقش في كلام الله له وما كُلف به من رسالة إذ قال الله له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾[3].

(١) سورة طه ١٠.
(٢) سورة القصص ٣٠.
(٣) سورة طه ١٧-٢٣.

فكر موسىٰ أن وراء هذه المعجزات أمورًا أخرىٰ وتكاليف كبرىٰ ورسالة عظمىٰ، عندئذٍ سمع قول الله علىٰ الفور ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[1] عندئذٍ تنبه عقله إلىٰ ما سبق حدوثه منه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝٣٣ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾[2] لم تمنعه رهبة الموقف من الصراحة والصدق مع ربه أن يشرح ما جال بخاطره في تلك الآونة الحرجة، فاستجاب له ربه وطمأنه علىٰ أداء رسالته بقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[3]. وبعد انتهاء هذا الموقف المبارك المقدس ﴿كَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[4] عاد موسىٰ إلىٰ زوجه «صفورة» فراعها ما رأته عليه من أنوار بهائية تشع من جميع جسمه وكأنه كتلة من الضوء تتحرك في صورة آدمية، وقصّ عليها ما رأىٰ وسمع من الله فبهرت لما حدث وسجدت لله شاكرة أن خصَّ زوجها برسالته وبعثه نبيًّا مباركًا أينما يكون، وحمدت الله أن جعلها زوجة نبي، ومنذ ذلك الوقت كانت «صفورة» نعم الزوجة والمعين لزوجها في أداء رسالته، وذهبت معه إلىٰ مصر وتحملت معه المتاعب والمشاق والصعاب من قِبَل فرعون وأعوانه في سبيل إخراج بني إسرائيل من مصر.

(١) سورة القصص ٢٢.
(٢) سورة القصص ٣٣-٣٤.
(٣) سورة القصص ٣٥.
(٤) سورة النساء ١٦٤.

وظلت «صفورة» بجوار موسىٰ تشد أزره وتشجعه علىٰ الصمود في وجه فرعون دون ملل أو يأس، حتىٰ نصره الله علىٰ سحرة فرعون وأنزل الله العذاب علىٰ أهل مصر بالجراد والقمل والضفادع وغيرها حتىٰ رضخ أخيرًا فرعون وخرج بنو إسرائيل يقودهم موسىٰ إلىٰ سيناء، وظلت «صفورة» تساند موسىٰ وتعضده وتعينه علىٰ تحمل مشاكل قومه بني إسرائيل بعد أن أنجاهم الله من فرعون وعبر بهم البحر الأحمر بعد أن أوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾[1] لأن فرعون اتبعهم بغيًا وعدوانًا ليعيدهم إلىٰ مصر ليستعيدهم ثانية في أعمال البناء والزراعة والخدمة إلىٰ آخره.

وبعد أن خلص موسىٰ وقومه من فرعون إذا به يواجه مطالب قومه العسيرة أن يوفر لهم الماء والغذاء والمأوىٰ حتىٰ لا يموتون جوعًا وعطشًا في صحراء سيناء، علاوة علىٰ أنها صحراء جرداء لا شجر فيها يستظلون تحته ولا مساكن يأوون إليها.

فأخذت «صفورة» تهون علىٰ موسىٰ هذه المآزق التي وضعه فيها قومه بأن الله لا يتركه ولا بد أن يجعل له مخرجًا وفعلًا سرعان ما فرَّج الله أزمته ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ

(١) سورة الشعراء ٦٣-٦٥.

مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[1].

بعد هذا الفضل العظيم مَنَّ الله علىٰ قوم موسىٰ بأن وفر لهم الطعام دون مجهود بأن يجدون في صبيحة كل يوم الأرض مفروشة بالطيور «السلوىٰ» وكذلك المن وهو طعام كورق الشجر به مادة عسلية، كما أن الغمام كان يظللهم دائمًا ويحميهم من حرارة الشمس في النهار، وبعد مضي بضعة أيام تبرم قوم موسىٰ من الطعام وقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾[2].

بهذا القول القاطع هددهم موسىٰ فرضخوا للأمر الواقع ورضوا بما أنزل الله من خير، ولكن عقيدتهم كانت مزلزلة أيضًا ولم يدخل الإيمان قلوبهم بعد ﴿فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3].

ولم تقتصر مضايقات بني إسرائيل لموسىٰ إلىٰ هذا الحد من المشاكل والارتداد عن الإيمان، بل وصلوا إلىٰ درجة الكفر وعبادة العجل في الوقت الذي صعد فيه علىٰ الجبل المقدس ليكلِّم ربه ويتلقىٰ منه التوراة

(١) سورة الأعراف ١٦٠.
(٢) سورة البقرة ٦١.
(٣) سورة الأعراف ١٣٨-١٤٠.

مكتوبة في الألواح ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً﴾[1]، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[2]،﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾[3].

لقد كانت هذه الحادثة من قوم موسىٰ بعبادة العجل قمة الضلال والفسوق، وأخبر الله بها موسىٰ وهو يكلمه بقوله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾[4].

وقد بذلت «صفورة» مجهودًا جبارًا مع هارون والقلّة من المؤمنين ليثنوا القوم عن عبادة العجل، واشتركت مع النساء في عراك شديد حتىٰ لا يلقين بحليّهن للسامري ليخرج لهم عجلًا جسدًا له خوار.. وأصيب «صفورة» عقب ذلك بحمىٰ شديدة لم تمهلها إلا أيامًا معدودات، وانتقلت إلىٰ رحمة الله طاهرة مؤمنة ناضلت مع زوجها موسىٰ في سبيل الله السنوات الطويلة حتىٰ فاضت روحها الشريفة إلىٰ بارئها وقد تجاوزت الأربعين من عمرها ودفنت في سيناء ولم يُعرف قبرها إلىٰ الآن.

❋ ❋ ❋

(١) سورة الأعراف ١٤٥.
(٢) سورة البقرة ٥٤.
(٣) سورة الأعراف ١٥٢.
(٤) سورة طه ٨٥-٨٦.

داود عليه السلام

وفاء ميكال زوجة داود: أقرّ الشعب الإسرائيلي تعيين داود قائدًا للجيش لأنه قتل جالوت الجبار، وأخبرهم نبيهم صمويل أن الله قد أيّد داود بالروح القدس- وتزوج داود ميكال بنت الملك طالوت، ورغم كونه في دور الشباب إلا أنه قاد الجيش وخاص به المعارك الحربية فتوجه الشعب إلىٰ داود وبايعوه ملكًا عليهم؛ ولم يحدث أن أجمع الشعب علىٰ ملك ونبي من قبل مثل إجماعهم علىٰ داود ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾[1]، وقال الله له: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2] عندئذٍ توجه داود الملك بالشكر لزوجته «ميكال» قال لها إن هذا الفضل عليّ بسبب وفائك لي ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[3].

نعَم الله على داود: بعد أن استتب لداود المُلك أخذ ينظم الجيوش ويفتح الأمصار المجاورة حتىٰ اتسعت رقعة مُلكه، وتكللت حروبه كلها بالفوز والغلبة علىٰ أدائه لأن أنبياء الله مؤيدون بالنصر يجاهدون في سبيل الحق وإعلاء كلمة التوحيد، واسبغ الله علىٰ نبيه داود نعمًا قدسية وأخرىٰ دنيوية فاقت ما خصَّ به أنبياء بني إسرائيل من قبل.

(١) سورة البقرة ٢٥١.
(٢) سورة «ص» ٢٦.
(٣) سورة آل عمران ١٤٠.

النعم الدنيـوية:

أ – إنه صار ملكًا منصورًا علىٰ أعدائه ﴿شَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾[1] واتسعت مملكته وهابته الملوك ولم يجرؤ أحد أن يعتدي علىٰ مُلكه طوال حكمه الذي دام نحو أربعين منه.

ب– كان يقضي بين الشعب في أيام محددة بالحق ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾[2] فأقام العدل وأنصف المظلوم فثبت الله ملكه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾[3].

ج– ومن فضل الله علىٰ داود أن علَّمه صنعة فنية انفرد بها دون أحد من العالمين وحتىٰ قيام الساعة وكانت مصدر رزقه يقتات منه ليكون عيشه حلالًا من كسب يده وذلك أن الله ألان له الحديد وجعله في يده كالشمس لينًا يصيغه كيف يشاء دون حاجة إلىٰ نار أو طرق ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾[4] وهو عمل الدروع المسرودة المصنوعة من حلقات الحديد، وهذا عمل دقيق بالغ القوة، وكانت الدروع من قبل تُصنع من صفائح الحديد، ولكنها عندما تكون من الحلقات الحديدية تكون أخف ويكون الجسم داخلها اسهل حركة، كما أنها تقي مرتديها من الأسلحة ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾[5].

(١) سورة «ص» ٢٠.
(٢) سورة الأنبياء ٧٨.
(٣) سورة «ص»٢٠.
(٤) سورة سبأ ١٠-١١.
(٥) سورة الأنبياء ٨٠.

النعم الروحية:

أَيَّده الله بالزبور ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[1] وهو عبارة عن أناشيد وقصائد تسمىٰ مزامير وعددها مائة وخمسون قطعة، كان يرتلها داود بصوته الحسن الرخيم يسبح الله في ملكوته ويمجد ربه في عليائه ويتضرع للمولىٰ أن يفيض برحمته علىٰ عباده جميعًا ويغفر للخاطئين منهم زلاتهم، ثم يختتم مزاميره بالدعاء والشكر والحمد والثناء علىٰ الله لأنه أرحم الراحمين وخالق الخلق أجمعين، وكان كثيرًا ما يعتزل داود الناس ويخرج في الفلوات يرتل مزاميره وحيدًا متعبدًا لربه، فكانت الجبال تردد تسبيحاته وتلك معجزة اختُص بها داود ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾[2] أي يا جبال رجعي معه التسبيحات، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾[3] وكان الوقت بين المغرب والشروق هو المحبب عند داود ليقيم فيه صلاته وتسبيحاته بنغم ملائكي طروب يتلو فيها مزاميره المقدسة التي أنزلها الله علىٰ قلبه.

كذلك كانت الطير تسبح مع داود مثل الجبال ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[4] أي أنها كانت تردد معه الحمد والشكر لله، وتلك معجزة أخرىٰ

(١) سورة النساء ١٦٣.
(٢) سورة سبأ ١٠.
(٣) سورة «ص» ١٨.
(٤) سورة «ص» ١٩.

لداود، كما أنه عُلِّم منطق الطير أيضًا ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾[1].

اتهـــام: لقد وهب الله داود هذه النعَم السابقة وأتاه الحكمة وهي النبوة التي من خصائصها العصمة من الخطايا، ثم نرىٰ فريقًا من الكُتَّاب المسلمين ينهجون في سيرة داود نهج الإسرائيليين في إلصاق تهمة الزنا بنبي الله داود عليه السلام، وهو منها براء، بل وكانت الخطيئة التي نسبوها إلىٰ داود فوق الزنا قتل زوج المرأة التي تسمىٰ (بتشبع بنت اليصاب) زوجة «اوريا الحثي» الجندي الذي كان يحارب في الميدان، واتصل داود بزوجته وارتكب معها فاحشة الزنا وحملت منه، ثم تخلص داود من زوجها بأن أمر قائد جيشه أن يعرضه للقتل، وبذلك تزوج داود من «بتشبع» زواجًا شرعيًا وهي حامل منه ثم ولدت له بعد ابنًا سمَّاه «سليمان».

وبذلك يكون النبي سليمان من أبوين خاطئين وحاشا لله أن نقتنع بذلك بل ننكره، ونقرر صراحة أن داود عليه السلام لم يرتكب خطيئة ولم تكن له صلة بهذه المرأة «بتشبع» وأن زوجته الأصلية (ميكال بنت طالوت) هي أم سيدنا سليمان (علىٰ الأرجح).

شـهادة الله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾[2].

(١) سورة النمل ١٦.
(٢) سورة النمل ١٥-١٦.

وهذه شهادة من رب العالمين تدفع عن داود كل شك وريبة وتجعله في مقدمة الأنبياء الأبرار الأطهار- فقد عاش في أورشليم متعبدًا طاهرًا تقيًّا يحكم بين الناس ولا يأتيه الباطل من بيديه ولا من خلفه، ومات بعد أن أدىٰ رسالته كاملة نقيَّة، وخلفه من بعده ابنه سليمان الحكيم الذائع الصيت.

كما أن هذا العمل المجيد من «ميكال زوجة داود» يُعد مفخرة لإخلاص المرأة لزوجها وتقديسًا للحياة الزوجية بأنها فوق الروابط الأبوية.

ونسأل الله الرحمة لأنبيائه جميعًا عليهم الصلاة والسلام.

* * *

سليمان عليه السلام

مقـــدمة:

قبل وفاة داود عليه السلام أعلن في الشعب الإسرائيلي وفي جميع أنحاء مملكته تعيين ابنه سليمان ملكًا عليهم ليمنع بذلك الفتنة بين أبنائه وانقسام الشعب، لأن داود أنجب تسعة عشر ابنًا ولكنه اختار- بوحي من الله- ابنه الشاب سليمان الذي لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ليخلفه في ملكه ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[1] أي أنه قد ورث عن أبيه النبوة والمُلك والعلم والحكمة والقضاء ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وتولىٰ سليمان السلطان في مملكته الواسعة الأرجاء التي تموج بالخيرات والجيوش الجرارة الظافرة، لأن أباه كان ملك حرب وقتال قضىٰ أكثر حياته في توسيع مملكته حتىٰ استتب له الأمر في تلك الأنحاء، وهذا ما دعا سليمان أن يكون رجل سلم وسلام يعمل في الإصلاحات الداخلية في مملكته ويوفر الأمن والعدالة والرخاء.

وفي أولىٰ أيامه أوحىٰ الله إليه أن الله تفضل عليه بمعرفة لغة الطيور فقام خطيبًا في شعبه وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾[3]، وقد كانت هذه المنّة من الله عليه تتمشىٰ مع

(١) سورة النمل ١٦.
(٢) سورة النمل ١٥.
(٣) سورة النمل ١٦.

خطة العمل التي عزم أن ينفذها بين الناس، ليحكم بين مملكته من الطير والحيوانات ويوفر لهم طريق العدل والأمان، حتىٰ لا تعتدي الجوارح من الطيور علىٰ ضعيفها، ولا المفترس من الحيوانات علىٰ أليفها، وهذا الفضل لم يؤته أحد من قبله.

وللسن حكمه وللبشرية نواميسها، والنفس أمَّارة بالسوء، فأخذ سليمان الزهو لأنه وهو الشاب الصغير يرىٰ نفسه قد أنعم الله عليه بأكثر من أبيه فاختبره الله بأن ألقىٰ علىٰ جسدًا[1]، ذلك قول الله ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾[2] أي شُفي ورجع إلىٰ صحته السابقة وكانت رحمة الله به واسعة وأمله في ربه أكبر وأعظم.

وتوجَّه إليه بأفكار الشباب وحماسه المتدفق ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾[3]، واستجاب له ربه بقوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾[4].

فأعلن سليمان بين شعبه ما خصَّه الله وشرَّفه به من النعَم والمعجزات بقوله تعالىٰ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[5]،

(١) الحديث. البخاري تفسير قول الله تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ مسلم، كتاب الإيمان، ج٦، ص٥.
(٢) سورة «ص» ٣٤.
(٣) سورة «ص» ٣٥.
(٤) سورة «ص» ٣٦-٣٧.
(٥) سورة النمل ١٧.

كما قال تعالىٰ في سورة أخرىٰ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾[1]، ومن أكبر معجزات سيدنا سليمان هو سلطانه علىٰ الجن بقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾[2].

بهذا اكتمل لسليمان المُلك الذي لا ينبغي لأحد، لقد وُهِبَ النبوة والحكمة ثم المُلك الواسع علىٰ الأرض، وسُخِّرت له الرياح في السماء، والطيور في الجو، والحيوانات في الفيافي والجبال، والأسماك في البحار، والجن والشياطين في مشارق الأرض ومغاربها.

هذا هو سليمان الحكيم النبي التقي المعصوم والملك القوي الحاسم، الذي أسس مُلكه وساسه علىٰ النظام والدقة والعدل ولم يبهره هذا السلطان الكبير، ولم يشغله عن عبادة ربه ونشر دينه، أو يمنعه عن السؤال عن أحد رعاياه إن غاب عنه مثل «الهدهد»، أو يستجيب لنداء نملة تحذر النمل أن يدوسها سليمان وجيشه وهم لا يشعرون ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3]، وغيَّر سليمان مسيرة جيشه ليتفادىٰ النمل.

---

(١) سورة الأنبياء ٨١.
(٢) سورة سبأ ١٢-١٣.
(٣) سورة النمل ١٩.

بهذا كان سليمان مثلًا يُحتذىٰ به في الحكم لشدته وعدالته وصرامته في النظام- والسهر علىٰ أحوال رعاياه، ولم ترَ البشرية مَلِكًا مثل سليمان له هذا السلطان علىٰ الإنس وأمم من الجن والطير والرياح.

ولم يكن للنساء في عهد سليمان الحكيم دور بارز غير ما ذكره القرآن بخصوص ملكة سبأ.

بلقيس: هي ملكة سبأ بإقليم اليمن وتبعد عن صنعاء بحوالي ثلاثة أميال، وكانت هي وقومها يعبدون الشمس من دون الله، وقد كانت ملكة حكيمة مثالًا للتعقل والرزانة والاتزان، تشرِّف بنات جنسها في القيادة الحكيمة الرشيدة والتصرف السياسي السليم.

وقد دخلت التاريخ بفضل طائر صغير هو الهدهد وارتبطت بسيرة سليمان عليه السلام في القرآن، فكانت معرضًا لمظاهر الحكم والمدنية في عصر سليمان ومجالًا لإبراز القوة والتصرفات الحكيمة بينهما، وسجلًا قيِّمًا للمساجلة والمناقشات في طريقة الحكم والمعجزات الباهرة.

ولما كان سليمان عليه السلام ملكًا حكيمًا فقد استن مع رعاياه من الإنس والجن والطير والحيوانات أن يجتمع بممثلين عن كل نوع منهم يومًا، ليبحث في شئونها ويحكم فيما يعرض من قضايا أو خلافات بينهم، فكان للإنس يوم خاص كل شهر يجتمع بممثلين عن الشعب بالمدن والقرىٰ والأقاليم يسنون القوانين ويضعون النظم السياسية والمالية للدولة حكومة وشعبًا.

ثم يجتمع كذلك بممثلين عن الحيوانات جميعها؛ الضارية منها والأليفة، والقوي منها والضعيف، ويوقف كل منها عند حده ويُنزل العذاب

علىٰ المعتدين، ثم يجتمع أيضًا بممثلين عن أنواع الطيور المختلفة ليقف علىٰ أمورها ويسمع شكاياتها، ثم يجتمع أيضًا بنواب الجن والشياطين، وهؤلاء لا يراهم إلا سليمان وهم يمثلون الجن التي تسكن الجبال والسهول والمدن والقرىٰ.

ومن هذا العرض لهذه المجالس النيابية التي يحضرها سليمان مع رعاياه من الإنس والجن والطير والحيوانات، بجانب أن كل نوع من الطيور والحيوانات له لغة خاصة وكذلك لغات الجن، استطعنا أن نقدر المجهود الجبار الذي كان يبذله سليمان عليه السلام فقط في هذه المجالس.

وفي أحد الأيام ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾[1] وهذا يعطي صورة كريمة لاهتمام سليمان بكل صغيرة وكبيرة في مُلكه، وماذا يكون الهدهد بين مئات الأنواع من الطيور حتىٰ أن غيابه يثير فيه هذه الغضبة وينذره بالعذاب الشديد والوعيد المخيف بسبب قهري يقتنع به سليمان، وهذا يدل علىٰ منتهىٰ الدقة في الحكم والصرامة في النظام.

وبعد أن مكث الهدهد غائبًا فترة من الزمن يسيرة، حضر إلىٰ سليمان عليه السلام يبسط لديه عذره لينجو من عذابه الواقع لا محالة، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ

(١) سورة النمل ٢٠-٢١.

فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾(١).

وأراد سليمان عليه السلام أن يتحقق من صدق هذه الرواية ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾(٢) وأمر أن يكتب إليها كتاب يدعوها فيه للإيمان بالله وأن تحضر إليه طائعة مسلمة. وهو بذلك قد اتخذ معها الطرق السلمي أولًا.

ثم أمر الهدهد بقوله: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾(٣).

وحمل الهدهد الخطاب من أورشليم بالشام إلىٰ إقليم سبأ بمملكة اليمن ودخل مخدع الملكة من إحدىٰ النوافذ وألقىٰ الخطاب بين يديها وهي جالسة علىٰ سريرها، فذعرت في أول الأمر ثم فضته وقرأت ما به وفهمت مضمونه فخرجت إلىٰ شعبها في مجلسه الخاص ثم قالت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾(٤) ثم قصت نبأ وصوله إليها عن طريق الهدهد من النافذة، وعرف القوم من أنه من سليمان النبي صاحب السلطان علىٰ الطير والجان كما سمعوا من قبل.

(١) سورة النمل ٢٢-٢٦.
(٢) سورة النمل ٢٧.
(٣) سورة النمل ٢٨.
(٤) سورة النمل ٢٩-٣١

ثم أخذت تشاورهم في هذا الموضوع الخطير لأنه سيترتب عليه تغير في العقيدة والعبادة والسيادة في المملكة ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝٣٢ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾(١). هناك تكلم الشعب بلسان القوة والعزة دفاعًا عن كرامته ووطنه وأُوكِل إليها الأمر لثقتهم في حكمتها وسداد رأيها ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(٢) لأنه سيدخل محاربًا غازيًا سيخرب الديار ويقتل النفوس ويأخذ الأسرىٰ، فقالوا لها: وما الحل إذن؟ فقالت: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾(٣). وهذه فكرة قيّمة هداها إليها عقلها السليم وإدراكها الصحيح، فقد يقبل سليمان الهدايا وتخف حدة الغضب عنه أو يفرض عليها جزية تدفعها تجنبًا للحروب، وفي الوقت نفسه سيعود إليها رسلها من مملكة سليمان بأخباره وقوة جيشه وأخبار بلاده، لكي تقيِّم الموقف وتقرر ما تراه علىٰ ضوء المعلومات الصادقة التي يجمعها لها رسلها عن سليمان بأن تذهب إليه صاغرة مطيعة أو تدخل معه في حرب طاحنة..

لقد وافق الشعب علىٰ رأي الملكة وأخذوا في إعداد الهدايا للملك سليمان، ولقد أسرفوا في ذلك، لتكون موضع القبول والرضا ولتليق بمقام ذلك الملك الجبار، وتوجه وفد من سبأ إلىٰ أورشليم في الشام ليقدم تلك الهدايا القيّمة، ولقد علم سليمان بمسيرة رسل الملكة إليه عن طريق الجن،

---

(١) سورة النمل ٣٢-٣٣.
(٢) سورة النمل ٣٤.
(٣) سورة النمل ٣٥.

وعندما وصلوا إلىٰ قصر الملك جعلهم يمرون بين صفين من جند سليمان من الإنس والطير والحيوانات، فأرجفت قلوبهم لتلك المناظر العجيبة، ثم قال لهم المسؤولون في القصر: إن الملك في رحلة يتفقد أحوال الرعية وسوف يحضر علىٰ الفور، وإذا بسليمان الحكيم وحاشيته علىٰ بساط الملك تحمله الرياح في الجو وأخذ يهبط رويدًا رويدًا حتىٰ نزل في ساحة القصر بسلام الله، وزاد إعجاب رسل مملكة سبأ بما رأوا وسألوا عن ذلك، فقيل لهم إن الملك سليمان له سلطان علىٰ الرياح تحمله إلىٰ أي مكان يشاء، والجن والشياطين مسخرة بأمره، ففزعت قلوب الرسل وملأت الرهبة والخوف نفوسهم، ولما مثلوا بين يدي الملك سليمان ليقدموا إليه الهدايا سخر منهم؛ لأنه ليس في حاجة إلىٰ أموال أو هدايا، ولكنه رجل دين وعقيدة يريد نشر دينه وعقيدة التوحيد، وأن الله قد بسط له المُلك والأرزاق وليس في حاجة إلىٰ أموال سبأ ورفض الهدايا، وقال لرئيس الوفد ارجع إلىٰ قومك وأنذرهم بحرب قاضية بجنود لم يروا مثلهم من الإنس والجن والطير وسيكون لنا النصر ويأتون أذلاء خاضعين، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[1].

ولما رجع الرسل إلىٰ الملكة وقصوا عليها ما حدث من الملك سليمان وما رأوا وما سمعوا عن قوة سليمان وسلطانه القاهر في الأرض والسماء وعلىٰ الجن والوحوش والطير، قررت مع شعبها أن تذهب وكبار

(١) سورة النمل ٣٦-٣٧.

قومها إلىٰ سليمان عسىٰ أن يكون اللقاء معه خيرًا علىٰ مملكتها وشعبها، وتصل إلىٰ حل سلمي واتفاقات ودية علىٰ ما يستقر عليه التفاوض فيما بينهما سواء في العقيدة أو المُلك.

وعلم سليمان أيضًا عن طريق الجن بما عزمت عليه من السفر إليه والتجهيز لهذه الرحلة الطويلة الشاقة بين الجبال الوعرة من اليمن إلىٰ الشام، وقد تستغرق ثلاثة شهور علىٰ الإبل والخيل، وفعلًا استقلت الملكة بلقيس هودجًا مريحًا وتبعها الركب من كبار القوم علىٰ الخيل والحمير والإبل وكذلك ثلة من الخدم والعبيد وسارت القافلة إلىٰ الشام، وفرح سليمان مقدمها وقرر أن يكرمها ويبجلها أقصىٰ ما يمكن من التبجيل والاحترام، وأمر رجاله من الإنس والجن أن يشيّدوا لها خاصة قصرًا منيفًا لتنزل به وأن يكون آية من الفن والعظمىٰ، يحكي في صمته عن قدرة سليمان في ثرائه وسلطانه علىٰ الجن الذين يستخدمهم في البناء وقطع الأحجار الكبيرة ونحتها، ويغوصون في المحيطات لاستخراج اللؤلؤ والمرجان، وينقبون في الجبال ليستخرجوا له الذهب والماس، وفعلًا تم تشييد القصر علىٰ صورة ليس لها مثيل في الوجود في ذلك الوقت، وفي مدخله أُقيمت أحواض متسعة وقدور كبيرة ثابتة من الأحجار ثم تماثيل جميلة، وأُثّث بأفخر الأثاث والرياش، وفي قاعة العرش الذي هو الصرح جُعلت أرضيته من زجاج أملس تجري من تحته المياه تحسبه بركة ماء عند أول نظرة إليه.

وأراد سليمان عليه السلام أن يُظهر للملكة معجزة تفوق عظمة ذلك القصر وأن تكون متصلة بالملكة شخصيًا لتدل علىٰ سلطانه الروحي، ففكر أن يحضر لها في القصر كرسي المُلك- أي عرشها الذي تجلس عليه وهي في

سبأ- عندئذٍ توجه إلىٰ جنوده من الإنس والجن بقوله: ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾[1] وطبعًا الإنس العاديون لا يقدرون علىٰ شيء من ذلك مطلقًا لأن هذا فوق استطاعتهم، لأنه يحتاج إلىٰ شهور وترتيبات وإذن من الملك، وسليمان يريده فورًا ليكون مفاجأة للملكة عند حضورها وقد قارب وصولها بعد أيام، ولهذا كان حتميًا أن يتقدم الجن لتنفيذ هذا المطلب ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَاْ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾[2] أي قبل أن يقوم من مجلسه وقد يستغرق ذلك بعض الساعات، وكان هذا القول من العفريت أمرًا طبيعيًا لطول المسافة يحتاج هذه الساعات، ثم هو قوي علىٰ حمل هذا السرير- العرش- كما أنه أمين عليه بحيث لا يفقد منه شيء من الجواهر المرصع بها، واستراح سليمان لهذا القول من العفريت، ولكنه فوجئ بأحد من الإنس وهو وزيره «آصف بن برخيا» ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ[3] أَنَاْ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[4]. وفعلًا بعد لحظة لا تُذكر وهي طرفة العين وجد العرش أمامه ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾[5]. وكانت هذه الحادثة في ذاتها تدل علىٰ معانٍ أكبر من إتيان العرش نفسه من اليمن إلىٰ أورشليم.

---

(١) سورة النمل ٣٨.
(٢) سورة النمل ٣٩.
(٣) الأقرب إلىٰ الصواب هو جبريل ﷺ، وبذلك قال الهيلي: قصص الأنبياء، ج٢، ص٢٩٥ لابن كثير.
(٤) سورة النمل ٤٠.
(٥) سورة النمل ٤٠.

وقال سليمان عليه السلام لعماله الفنانين خذوا عرش الملكة وغيِّروا بعض الأجزاء البسيطة فيه لنختبر ذكاء بلقيس هل تعرفه أم لا؟ ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾(١).

قضت بلقيس ومن معها في الركب حوالي ثلاثة شهور في هذا السفر الشاق حتىٰ وصلوا إلىٰ أورشليم، واستقبلها سليمان عليه السلام أحسن استقبال، فقد استقل سليمان بساطه ومعيته تحمله الريح رخاءً وتظلله الطيور من فوقه، ليستقبل الملكة خارج أورشليم بأميال عديدة مُرحبًا ومُسلمًا بمقدمها الكريم، ولقد بهرتها الحشود التي حشرها سليمان لها من الإنس والطير والحيوانات تكريمًا وابتهاجًا بها، ولما وقع نظرها علىٰ قصر الضيافة الذي بُني خصيصًا لها راعها فخامته وضخامته وتضاءل في نظرها قصرها في سبأ بالمقارنة بهذا القصر المنيف ذي الأبراج العالية والقدور الراسيات، وقادها سليمان إلىٰ البهو الكبير لتجلس علىٰ كرسي العرش لتستريح، ولما رأت أرضية البهو ملساء صافية وهي من الزجاج ويجري من تحتها الماء حسبته بحيرة ورفعت ملابسها عن ساقية خشية البلل فأخبرها سليمان بحقيقته، وقبل أن تجلس علىٰ سريرها قال لها أهكذا عرشك، قالت كأنه هو.

فأدهشها ما رأت وكيف يحضر أمامها عرشها الذي تركته خلفها في قصرها، ولكنها بهذا أيقنت أن سلطانه علىٰ الجن أمر محقق يؤتي بالمعجزات.

---

(١) سورة النمل ٤١.

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ۝٤٢ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ۝٤٣ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَ﴾[1].

وبقيت بلقيس في مقر سليمان فترة من الزمن موضع التكريم والحفاوة عُقدت فيها الاجتماعات بين الطرفين، وتناقشوا في كل ما يهمها من أمور الدولتين وشاهدت الهيكل العظيم الذي بناه سليمان ليعبد الشعب فيه الله الواحد الأحد خالق السموات والأرض وجميع المخلوقات، وقد سخَّر الجن في قطع الأحجار والرخام لبنائه، ورأت ما بداخل الهيكل من طقوس دينية وأماكن خاصة للعبادة الكهنوتية مثل المذبح وتابوت العهد وقدس الأقداس، ثم اللآلئ والثريات المنتشرة في أرجاء الهيكل بجانب الصفائح الذهبية التي تغلف الأبواب والنوافذ مما أدخل في قلب بلقيس الرهبة والخشوع وأخذت غشاوة الوثنية تتبدد عن عينيها شيئًا فشيئًا.

ثم حضرت بلقيس مجلس سليمان مع شعبه ورعاياه من الإنس والطير والحيوانات، ولم تحضر مجلس الجن بطبيعة الحال لأنها لن تراها، وأخذ سليمان يترجم لها ما يدور من مناقشات ومشاكل بين مختلف الطيور وكذلك الحيوانات، وما يلقيه من أوامر وأحكام علىٰ بعضها، ثم أخذت تستعرض ما لسليمان من سلطان أيضًا علىٰ الرياح في السماء، والجن في جميع بقاع الأرض والجبال والبحار، وأنه يعذبها بحرقها بالنار أو السجن في

(١) سورة النمل ٤٢-٤٤.

أعماق الكهوف، واقتنع عقلها الكبير أن سليمان نبي كريم وأنه علىٰ حق فيما يعبد فتفجَّر الإيمان في قلبها وملأه نور اليقين عن اقتناع صادق، فهتفت أمام الشعب وبين يدي سليمان ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

بهذا التصرف الحكيم أسدلت بلقيس ملكة سبأ الستار علىٰ قصة مثيرة بين دولتين وتبعها شعبها فأسلم مثلها.. ويقال إن سليمان عليه السلام تزوجها ثم رجعت إلىٰ مملكتها سبأ تحكمها علىٰ عقيدة التوحيد، وقضت علىٰ الوثنية في بلادها، والفضل في ذلك حقًا يرجع لذلك الهدهد الصغير وحكمة الملكة بلقيس ورجاحة عقلها وتصرفها السليم في جميع المواقف، فأكرم بها من امرأة وملكة كانت تحكم شعبها بأسلوب ديمقراطي صحيح وجنبته ويلات الحرب بسياستها الحكيمة وعقلها الرزين، فأحبها الشعب وأسلم لها القيادة الكلية فقادته إلىٰ بر السلام والإيمان، فلها الفضل والإكرام، وعليها الرحمة والسلام.

❁ ❁ ❁

---

(١) سورة النمل ٤٤.

زكريا عليه السلام وابنه يحيى

مقـــــدمة:

زكريا عليه السلام هو أحد أنبياء بني إسرائيل، وهو من نسل داود الذي يرجعه نسبه إلىٰ سيدنا يعقوب عليه السلام، وكان يخدم في الهيكل حتىٰ بلغ من الكبر عتيًا، وهو الذي كفل العذراء البتول «مريم» أم المسيح في صغرها لأن زوجته كانت خالة مريم.

اليصابات: هي زوجة زكريا عليه السلام، شقيقة «حنة» أم مريم، وكانت عاقرًا، وبلغت هي وزوجها سن الشيخوخة ولم يكن عندها أمل في أن تلد.

ولكن زكريا عليه السلام طمع في رحمة ربه وتوجه إليه بالدعاء أن يهبه ولداً يرثه في النبوة من بعده علىٰ بني إسرائيل لأنه يعلم أن الكهنة من بعده فاسدون و ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[(١)] أي اجعله مرضيـًا عليه من الله ومن الناس. واستجاب الله لدعاء نبيه زكريا وبينما هو قائم في المعبد ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾[(٢)]. أي أن يحيىٰ يكون مصدقـًا بعيسىٰ كلمة الله وسيدًا أي

---

(١) سورة مريم ٢-٦.

(٢) سورة آل عمران ٣٩.

عالمـًا متبحراً في الشريعة ولكنه حصورًا لا يقرب النساء، وأراد زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يستوضح هل سيكون يحيىٰ من امرأته العاقر أم من زوجة أخرىٰ فقال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾[1] فأجابته الملائكة علىٰ الفور ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾[2] فسأل الله آية علىٰ ذلك ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾[3] فقيل له: إن آية ذلك أن يعجز لسانه عن الكلام ثلاثة أيام ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾[4] وذلك من شدة فرحه وسروره بأنه سينجب ولداً فطلب من الشعب أن يصلي لله شكرًا في الصباح والمساء.

وحملت اليصابات رغم عقرها ووضعت ابنها الوحيد يحيىٰ قبل ميلاد المسيح عيسىٰ ابن مريم بستة شهور وهو المسمىٰ عند المسيحيين «يوحنا المعمدان».

وتربىٰ يحيىٰ بين المنزل والمعبد تربية دينية من صغره حتىٰ بلغ أشده وصار عالمـًا وحبرًا جليلًا في أصول الديانة الموسوية كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾[5].

---

(١) سورة مريم ٨.
(٢) سورة مريم ٩.
(٣) سورة مريم ١٠.
(٤) سورة مريم ١٠-١١.
(٥) سورة مريم ١٢-١٥.

وكثيرًا ما كان يحيىٰ يأوي إلىٰ الجبال يتعبد فيها منفرداً يقتا ت من ورق الأشجار وثمارها، وأنست له الوحوش في البرية ثم أخذ يدعو شعب بني إسرائيل والكهنة أن يطهروا الديانة مما أدخلوه عليها، ويخلصوها من الشوائب التي ألصقوها بها حتىٰ طمسوا الجوهر واستغلوا المراكز الدينية لابتزاز الأموال و إرهاق الشعب بالنذور والعشور، ولكن صرخاته لم يكن لها من صدىٰ في قلوب الكهنة و رجال الدين، وأخذ يدعو الناس للتطهر من ذنوبهم بتعميدهم في نهر الأردن أي يغسل عنهم خطاياهم وحتىٰ عيسىٰ ابن مريم قد تعمد علىٰ يديه، و هكذا أخذ يحيىٰ ينشر دعوته للإصلاح والتطهر ليعيد بني إسرائيل إلىٰ حظيرة الديانة ولكنه لم يفلح وكان قتله بسبب امرأة.

هيروديا وابنتها سالوما: كان يحكم اليهود بفلسطين من قبل الرومان الملك «هيرودس»، ونظرًا للانحلال الشديد والفسق المتفشي بين اليهود فقد عشق الحاكم امرأة أخيه وتُدعىٰ «هيروديا» وشاع بين الطائفة ذلك الاتصال السافر الدنس، فقرر أن يتزوجها الملك، وعلم بذلك «يحيىٰ النبي» وكان قد بلغ الثلاثين من عمره فأعلن أن الديانة اليهودية تُحرِّم علىٰ الملك أن يتزوج من امرأة أخيه وهو علىٰ قيد الحياة، وأن ذلك الاتصال بين «هيروديا وهيرودس» يعتبر خيانة زوجية. وتناقل الناس رأي الدين من العابد التقي والكاهن الصغير يحيىٰ ابن الكاهن الكبير زكريا عليه السلام.

ولقد ساء «هيروديا» فقررت أن تدبر خطة محكمة للتخلص من يحيىٰ الذي أفسد عليها زواجها من الملك، لهذا ألبست ابنتها الشابة «سالومي» أفخر الثياب الشفافة وزينتها بأجمل الزينات وأرسلتها إلىٰ عمها الملك في مجلسه الخاص للترفيه عنه بالرقص والشراب وأسرت إليها بتنفيذ مخطط

يؤدي إلىٰ قتل يحيىٰ، وفعلًا أخذت «سالومي» ترقص أمام عمها رقصة الغلالات السبعة، ولما لعبت الخمر برأسه أخذت تنثني وتزيد في إغرائه وتخلع الغلالات الرقيقة الواحدة بعد الأخرىٰ؛ لتكشف عن محاسنها وتعري مفاتنها حتىٰ تخلصت من جميع ملابسها، ووصلت الفتنة قمتها وراح الشيطان يغري بالخطيئة وسالومي تتمنع حتىٰ يجيب الملك المخمور طلبها وهو رأس يحيىٰ، وسرعان ما أمر الملك بتنفيذ ما طلبت، وذُبح عليه السلام وجيء برأس الشهيد في طشت من الذهب فسمعها الملك تصرخ فيه «لا تحل لك» فذعر الملك وأفاق من سكرته وندم علىٰ ما فعل وطرد «سالومي» وأخذ يصرخ سيحل الخراب وعذاب الله علىٰ بني إسرائيل بهذه الفعلة المشينة.

وحدثت فتنة كبرىٰ وساد الهرج والمرج في أورشليم وانتهزت «هيروديا» الفرصة وأرسلت بعض السوء فتعقبوا زكريا عليه السلام حتىٰ قتلوه أيضًا في الهيكل.

هذه المرأة «هيروديا» مثال للفجور والسقوط إلىٰ أسفل الدرك وعنوان لمكائد النساء واستغلال أنوثتهن في تنفيذ الجرائم بكل إحكام وتدبير.

❁ ❁ ❁

المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام

مقـــــدمة:

لا يحتاج المسيح عليه السلام إلىٰ تعريف فهو أشهر من نار علىٰ علم، عرفه العالم كله وخاصةً أهل الديانات السماوية، فهو رسول المحبة والسلام ونبي إلىٰ بني إسرائيل؛ ليهديهم إلىٰ طريق الخير بعد انزلاقهم إلىٰ الفساد وانحرافهم عن أسس الديانة الحقة.

وقد انفرد القرآن الكريم بذكر الآيات الكثيرة عن المسيح وأمه مريم، وأشاد بمعجزاته وبركاته التي تحير العقول وتبهر الأفكار، وكرَّم أمه مريم وخصَّها بالطهارة والتقىٰ والاصطفاء علىٰ نساء العالمين.

حنة بنت فاقود: هي زوجة عمران وأم مريم البتول التي لم تلد غيرها، وقضت حنة مع عمران سنوات طويلة لم تنجب خلفًا، ثم حدث أن ذهب عمران وزوجته من الناصرة إلىٰ أورشليم لزيارة قريبة زكريا وزوجته «اليصابات شقيقة حنة»، وكان زكريا النبي يشغل وظيفة كبير الكهنة في الهيكل بأورشليم، وذهبت حنة مع أختها اليصابات للتعبد في الهيكل، وشاهدت أطفالًا صغارًا يلبسون الملابس البيضاء بجوار الكهنة يرددون معهم التراتيل، فوقع ذلك في نفس حنة موقع التمني أن يكون لها طفل مثلهم فتهبه للمعبد فاستجاب الله لرغبتها، وإذا بها تشعر بالحمل ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[1].

(١) سورة آل عمران ٣٥.

ومضت شهور الحمل و«حنة» في منتهىٰ السعادة لا تشعر بألم أو تعب بل كان حملًا خفيفًا تحفها خلاله أطياف نورانية، وترىٰ في منامها ملائكة السماء يحومون حولها ويباركون ما في بطنها، حتىٰ حان وضع حملها فولدت في يسر وسلام ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[1] أي عوذتها وحصنتها بالله من الشيطان، وكذلك عوذت ذريتها وهو ولدها عيسىٰ عليه السلام.

ولقد سُمِّيت «مريم» تيمنًا باسم مريم أخت موسىٰ وهارون عليهما السلام، كما أن «حنة» فرحت بابنتها كل الفرح، لأنها كانت عاقرًا من قبل وزاد من حبها الطبيعي كأم أن مريم كانت علىٰ جانب كبير من الحسن والجمال.

ومات عمران وابنته طفلة صغيرة وتربت في حجر أمها يتيمة وحيدة حتىٰ تجاوزت سن الطفولة بقليل فذهبت بها أمها إلىٰ الهيكل لتقدمها للكهنة وفاءًا لنذرها ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾[2].

مريم ابنة عمران: تشاور الكهان فيما بينهم أيهم يكفل مريم، وقال زكريا عليه السلام إنه أَوْلىٰ بها وأحق منهم، لأن زوجته اليصابات خالتها وهي التي تقوم علىٰ تربيتها وتنشئتها حتىٰ تكبر، فعارضه باقي الكهنة واقترعوا علىٰ كافلها بأن ألقوا أقلامهم في نهر جاري فرسبت أقلامهم إلا قلم زكريا فطفا،

(١) سورة آل عمران ٣٦.
(٢) سورة آل عمران ٣٧.

لذلك (كفلها زكريا) وأخذت تتردد بين المعبد في النهار ومنزل زكريا بالليل حتىٰ شبَّت وكبرت وبلغت مبلغ النساء.

وكان زكريا يتردد عليها في محرابها بالمعبد ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

هكذا نشأت مريم طاهرة متعبدة في جو كله تقوىٰ وصلاح لم تضع قدمها علىٰ عتبة الدنيا، بل كانت تقوم الليل وتصوم النهار، متبتلة لربها ساجدة، لو رأيتها لحسبتها ملاكًا نورانيًا في محراب مقدس علىٰ بقعة من الأرض طاهرة مباركة، ولو دققت النظر فيها لقرأت في هالة النور التي تحيط بوجهها المشرق ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[2].

ظلت مريم سنوات عمرها الأولىٰ من طفولتها إلىٰ شبابها في الهيكل، حتىٰ قاربت العشرين سنة تعكف علىٰ قراءة التوراة وتصلي وتسبح لربها خاشعة متفرغة للعبادة تدعوه الرحمة والغفران لعباده المؤمنين، وأن يرسل لبني إسرائيل المسيح ليخلصهم من الضلال والكفر والفساد كما تقول ذلك التوراة، ويتناقله الكهان والحبار بأن زمن يسوع المسيح قد ظللهم. تلك كانت إرهاصات الصدّيقة مريم في مناجاتها ودعواتها وصلواتها وابتهالاتها لربها، لصفاء قلبها وشفافية روحها، فكان ينعكس عليها بالفكر والتمني

(١) سورة آل عمران ٣٧.

(٢) سورة آل عمران ٤٢-٤٣.

والإلهام أقدار الملأ الأعلىٰ، وليس ذلك بكثير علىٰ أم نبي وأي أم هي. هي تلك العذراء البتول الطاهرة المطهرة المصطفاة علىٰ نساء العالمين فأكرم بها نسلًا مباركًا من سلالة الأنبياء المكرمين من داود حتىٰ إبراهيم الخليل عليهم السلام أجمعين.

وبعدئذ غادرت العذراء الهيكل لتعود إلىٰ قريتها الناصرة وهي علىٰ بُعد خمسين ميلًا تقريبًا من بيت المقدس «أورشليم» لتعيش مع أمها «حنة» بعد أن وفت نذرها ولكونها قد اكتملت أنوثتها، فقد أصبحت صالحة للزواج، ولم تغير العذراء من نظامها شيئًا كما كانت في المعبد، بل اختارت في بيتها حجرة شرقية تتعبَّد فيها وتؤدي فيها عبادتها وصلواتها، وتحمل إليها الملائكة رزقها كما كانت في الهيكل فضلًا من الله وكرمًا ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾[1] وكانت أمها «حنة» وقد شاخت وكبرت تغمرها السعادة والمحبة لوحيدتها مريم وتحترم تبتلها وانقطاعها للعبادة، لأنها كثيرًا ما كانت ترىٰ حجرة ابنتها يشع منها نور رباني وترىٰ في منامها أن ملائكة السماء تملأ حجرة ابنتها مريم، ولما كان يخبرها به زكريا عليه السلام زوج شقيقتها اليصابات أنه كان يجد عند مريم طعامًا وفاكهة تحضرها لها الملائكة ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2] وفي أحد الأيام ومريم غارقة في صلاتها ونجواها وابتهالاتها لله أحست بوجود أحد في حجرتها، فنظرت حولها فرأت إنسانًا وسيمًا جميل

(١) سورة مريم ١٦-١٧.
(٢) سورة آل عمران ٣٧.

الخلق ففزعت منه وظنته رجلًا يريد منها سوءًا، ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾[1] لقد جاءها جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في صورة رجل كامل الخلقة حسن الصورة ليكون مألوفًا ومحببًا، لأنه لو جاء في صورة الملاك قد لا تطيق رؤيته ولا تقوىٰ علىٰ مخاطبته، ولما قالت له إنها تستعيذ بالله منه إن كان رجلًا تقيًا لأنه بهذا القسم لا يضرها، لهذا طمأنها وقال لها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾[2] فهدأت عواطفها واستراحت نفسها وجال في خاطرها.. ولِمَ حضوره.. فقال لها: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾[3] فاهتزت فيها مشاعر العِفة والكرامة والطُهر وقالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾[4] ولم يشأ جبريل أن يجادلها بل جاءها من زاوية الإيمان بقدرة الله لأنه يعلم مدىٰ تدينها، فقال لها: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾[5].

وأسعفها عقلها الواعي آنئذ بأن المسيح سيولد من عذراء كما تقول التوراة، ولِمَ لا تكون هي صاحبة هذا الشرف، عندئذٍ فرحت وتمنت.

فقال لها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[6] وعقب ذلك مباشرةً غاب ملاك الرب عنها وراحت مريم في

(١) سورة مريم ١٧-١٨.
(٢) سورة مريم ١٩.
(٣) سورة مريم ١٩.
(٤) سورة مريم ٢٠.
(٥) سورة مريم ٢١.
(٦) سورة آل عمران ٤٥-٤٦.

نشوة من السعادة والبهجة والسرور تسمع حولها أنغام الملائكة ترتل مزامير داود بالبشرىٰ والتمجيد للابن السعيد في خلقه الفريد ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[1].

حملت العذراء بالمسيح المبارك حملًا خفيفًا وكيف يتعبها الحمل وفيها كلمة الله وروح منه، وبعد بضعة شهور وضعت «اليصابات» مولودها البكر الوحيد الذي قال عنه الله ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾[2] ويشاء القدر أن يفاجئ المخاض مريم وهي في «بيت لحم» ووضعت حملها، ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[3].

لقد تفوهت مريم بذلك لتنفس عن نفسها من الضيق الذي كانت فيه وآلام الوضع وقذارة المكان الذي ولدت فيه، ولم يكن ذلك يأسًا من رحمة الله، ولكنها حالة بشرية تملكتها فنطق بها لسانها عفوًا منها وتخفيفًا لموقفها- ولهذا أنطق الله وليدها عيسىٰ ليزيل عنها تلك الغشاوة وليذكرها بما قاله لها جبريل عليه السلام من قبل ذلك بتسعة شهور.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾[4] وليريها أوْلىٰ معجزاته فتقرّ بها عينها وتحمد الله علىٰ ما أنعم عليها بوليدها المسيح ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ

(١) سورة آل عمران ٤٨.
(٢) سورة مريم ٧.
(٣) سورة مريم ٢٢-٢٣.
(٤) سورة آل عمران ٤٦.

جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾(١).

هنا يجب أن نطأطئ الرأس إكبارًا وتعظيمًا لهذا المولود المبارك والنبي العظيم الذي ينطق ساعة مولده بهذه الحكمة والمعجزات، وتبوأ مركز القيادة لهذه الأسرة الطاهرة لينقذها من المآزق التي ستتعرض لها، وما أجمل مريم أن تخضع لأمر ابنها الذي يحملها علىٰ طاعته بقوة روحه العالية وهي التي كانت تحمله من قبل بلحظات ويرفس في بطنها فما أعظم هذه المفارقات، ولكن الله يفعل ما يشاء إذا قضىٰ أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، وبعد أيام قلائل غادرت الأسرة المقدسة بيت لحم إلىٰ الناصرة، ولما وصلت إلىٰ قومها في «الناصرة» أنكروا عليها مولودها عيسىٰ، حتىٰ أمها «حنة» نفسها أعرضت عنها وأشاحت بوجهها عنها؛ لأن مريم لم تخبرها من قبل بهذا الحمل، وهي بذلك تخشىٰ الفضيحة والعار لبيتهم الكريم الذي لم يُدنس من قبل ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾(٢).

هذا هو الموقف الصعب والمركز الحرج الذي كانت تخشاه مريم وهي الفتاة الشابة الصغيرة التي أوقِفَت موقف الاتهام وطبعًا لا تستطيع إقناع قومها ببراءتها من القذف، وربما لا يصدقون قصة جبريل معها، فلم تجد بُدًا

(١) سورة مريم ٢٤-٢٦.
(٢) سورة مريم ٢٧-٢٨.

من أن تلجأ إلىٰ ابنها الصغير «عيسىٰ» ليدافع عنها لأنه لا ينطق عن الهوىٰ وهو كله معجزات في حمله وولادته وحياته ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾[1] وذلك لأنها تنفذ وصية ابنها عيسىٰ بحذافيرها إذ قل لها: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[2].

وبهذا قد سهَّل عيسىٰ علىٰ أمه أمرها لأنه ما أيسر الامتناع عن الكلام لكن المهم إنقاذ مريم من هذا الاتهام المشين، عندئذٍ انبرىٰ لهم عيسىٰ وهو في لفافاته وبصوت يجلجل في الآفاق أصم آذانهم وأرجف قلوبهم وزعزع أوصالهم وقوض اتهامهم ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[3] كانت كلماته قذائف من النور بددت ظلمات الاتهام لأمه فاعتذروا لها وأخذوا يتلمسون لفائف الطفل تبركًا وغفرانًا، وأخذوا يتناقلون ما تفوه به عيسىٰ أمامهم لأنها كلمات بسيطة وجمل قليلة إلا أنها دستوره الكبير الذي يحدد أعماله وأخلاقه وحياته.

قامت مريم عليها السلام برعاية ابنها عيسىٰ منذ الطفولة حتىٰ شبَّ وكبر بكل عطف وحنان إلىٰ أن بلغ الثلاثين من عمره، وبعد قتل «يحيىٰ بن زكريا» ابن خالة والدته مريم نزلت علىٰ عيسىٰ عليه السلام الرسالة وقام يبشر في

(١) سورة مريم ٢٩.
(٢) سورة مريم ٢٦.
(٣) سورة مريم ٣٠-٣٣.

اليهود بدعوته، ليخلصهم من الفساد والضلال والزيف الذي ألصقه كهنة اليهود بشريعة موسىٰ وعارضه الكهنة والفريسيون معاندين مستكبرين، فأخذ يفند آراءهم ويكشف أباطيلهم واستغلالهم للشعب اليهودي ظلمًا ليجمعوا العشور والنذور ليتمتع بها الكهنة والفريسيون والكُتّاب، فضاقوا به ذرعًا واتهموه بالجنون وأنه مرتد عن الديانة اليهودية، ولم يجد عيسىٰ بُدًا من الاتجاه إلىٰ الشعب اليهودي ويُظهر له معجزاته التي أيّده الله بها مصادقًا لنبوته ورسالته، وهي إحياء الموتىٰ وشفاء المرضىٰ كالأعمىٰ والأبرص والأبله، وخلق الطير من الطين بإذن الله، وإنزال مائدة من السماء، ورغم كل هذه المعجزات الخارقة التي تنحني لها الرؤوس إكبارًا وتعظيمًا وإيمانًا بسيدنا عيسىٰ عليه السلام، فإن كهنة اليهود قد قابلوها بالنكران والإعراض ورموه بالسحر والشعوذة لكي يمنعوا اليهود من الإيمان به إبقاءً علىٰ مراكزهم الدينية فقط.

وظل سيدنا عيسىٰ يجاهد لنشر دعوته القائمة علىٰ المحبة والسلام وتنقية الشريعة الموسوية من الضلال الذي لحق بها لمدة ثلاث سنوات، كانت أمه مريم نعم المعين له علىٰ تحمل المشاق والمتاعب وما لاقاه من عنت وإهانة في سبيل رسالته، وظلت السيدة مريم تدعو لابنها في الأوساط النسائية مما كان له الأثر في إيمان كثير من النساء واتبعوا المسيح في دعوته.

كذلك تحملت السيدة مريم من اليهود كثيرًا من المضايقات والاتهامات ورموها بالزنا بهتانًا وزورًا كما سجل القرآن علىٰ اليهود

﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمًا﴾[1] وهي الطاهرة المطهرة التقية البتول، وهي التي قيل عنها في القرآن ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2].

بقيت السيدة مريم تشد أزر ابنها عيسىٰ عليه السلام وتهوّن عليه ما يلحقه من أذىٰ كهنة اليهود والأراجيف التي يشيعونها عنهما، إلىٰ أن قرر الكهنة والفريسيون التخلص من المسيح ودبروا مكيدتهم بالقبض عليه وتقديمه للمحاكمة الصورية ليحكموا عليه بالقتل والصلب ولكن الله ردّ كيدهم في نحورهم وألقىٰ شبه عيسىٰ عليه السلام علىٰ يهوذا فقبضوا عليه وحاكموه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡ﴾[3].

وبقيت مريم حتىٰ فاضت روحها الطاهرة إلىٰ ربها راضية مرضية، فأكرم بها من سيدة فاضلة تقية جعلها الله المثل الأعلىٰ للنساء في الطهارة والإيمان بقوله تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾[4].

❋ ❋ ❋

(١) سورة النساء ١٥٦.
(٢) سورة آل عمران ٤٢.
(٣) سورة النساء ١٥٧.
(٤) سورة التحريم ١١-١٢.

مـريم المجدلية

نظرًا لقسوة الاستعمار من الرومان علىٰ فلسطين وكان جنودهم يعيثون فسادًا ويرتكبون الفاحشة قهرًا أو اختيارًا مع بعض نساء اليهود، لهذا انتشرت بيوت للدعارة وأحياء خاصة للرذيلة في بعض القرىٰ والمدن.

وكانت مريم المجدلية وهي تُنسب إلىٰ قرية المجدل بإقليم الجليل واحدة ممَّن كُن يحترفن الدعارة في زمن المسيح، وكانت مفرطة في الجمال فكثر عشاقها واقتنت من وراء ذلك أموالًا كثيرة كانت تجعلها تعيش في ثراء طائل، فكان لها قصر فخم يتوسطه حديقة غنّاء وعبيد وخدم، وكانت صلتها قوية بجميع الحكام والشبان الأثرياء، وكان من بين عشاقها شاب وسيم من الأغنياء يقال له الأمير «توما»، كانت تحبه من قلبها دون غيره من روادها، وفجأة اختفىٰ «توما» ولم يعد يحضر ليالي سمرها وحفلات مجونها وندوات رقصها وشرابها فأرسلت بعض أتباعها ليبحثوا عنه في كل مكان لأنها لم تطق علىٰ بُعده صبراً.

وجاءها الخبر بأن الأمير «توما» قد تبع يسوع الناصري وسحره بمعجزاته وانضم إلىٰ الحواريين للمسيح، تاركًا ضِياعه وقصوره وأهله وعشيرته إلىٰ الحواريين للمسيح ويعيش مع المؤمنين الحواريين عيشة التجريد والتوكل، وهم يتنقلون من قرية إلىٰ أخرىٰ يشرحون لليهود حقيقة الشريعة الموسوية ليهتدوا إلىٰ الطريق المستقيم، والمسيح يقوم بمعجزات خارقة لا يصدقها العقل، فالأعمىٰ يعيد إليه بصره، والأبكم يجعله يتكلم

ويسمع، والأبرص يُشفىٰ، والأعرج يصبح صحيحًا سليمًا، ويمشي علىٰ الماء، ويحيي الموتىٰ.

فلم تهتم مريم المجدلية بما قيل لها عن عيسىٰ وحوارييه ولكنها فقط اطمأنت علىٰ وجود عشيقها الأمير «توما» لكي تذهب إليه لتعيده إلىٰ حظيرتها لأنها لا تستطيع الحياة بعيدة عنه فقد شغفها حبًا.

وعرفت المكان الذي يجتمع فيه المسيح والحواريون والمؤمنون فشدت رحالها إليه وامتطت عربتها المطهمة، وبجوارها أحد عبيدها وهي في أفخر الثياب وأجمل زينة وأندىٰ عطر، ولما وصلت إلىٰ حيث المسيح واقفًا يعظ الناس وحوله الحواريون يسمعون في خشوع، عرفها القوم فأفسحوا لعربتها الطريق وتقدمت هي بجرأتها المعهودة وأخذت تجول بنظرها باحثة عن الأمير «توما»، فوقع نظرها علىٰ المسيح وراعها جماله وحسنه والبريق النوراني الذي يشع من عينيه فتسمرت عيناها في وجه المسيح المشرق بنور الله وهي تنظر إليه بعين البشرية التي كانت عليها، وبينما هي في ذهولها الحسي سمعت المسيح يعظ الخاطئين ويدعوهم للتوبة وطوبىٰ لمن رجع إلىٰ ربه بعد معصية فيفرح به الله ويُدخله جنات النعيم ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

(١) سورة الزمر ٥٣.

وعندئذ سمعت مريم صوت امرأة خلفها تقول: ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾(١) فالتفتت إليها مريم المجدلية فعرفتها وكانت هي «جنة» زوجة «جوزي» ياور الملك «هيرودوس».

ثم سمعت مريم المجدلية صوت أحد الحواريين يقول: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(٢) فعرفت فيه صوت «توما» فاندفعت إليه وهي مرتبة العواطف والأفكار، فتبسم لها «توما» وقال: لقد طلقت الدنيا ومن فيها واشتريت بها ملكوت الله ولا حاجة لي بك اليوم فطأطأت رأسها والدمع ينحدر علىٰ خديها، والجمع من الناس في شغل عنها يستمعون إلىٰ وعظ المسيح، وهنا تسللت مريم المجدلية من بين الجموع الحاشدة واستقلت عربتها وكرّت راجعة إلىٰ قصرها، ولما وصلت أمرت خدمها أن يغلقوا باب القصر في وجه القادمين وأن يخبروهم بأن عهد الفسق والمجون قد انتهىٰ بلا رجعة، وأمرت أن يُضاء من القصر مخدعها فقط ودلفت إليه باكية منتحبة تركع لله مستغفرة تائبة تستمطره الرحمة والغفران، فإن خطاياها كثيرة وآثامها لا تُعد ولا تُحصىٰ وباتت ليلتها مؤرقة لا يغمض لها جفن تراجع بذاكرتها كل ما حدث وما سعت، وتحس بوميض من الإيمان يوقر في قلبها فتطمئن نفسًا وتهدأ حالًا، وكلما رددت قول المسيح أن الله يغفر الذنوب جميعًا يطيب خاطرها، ولكنها توسوس عمَّن يطمئنها بقبول توبتها وغفران الله لها.

---

(١) سورة التحريم ٨.

(٢) سورة آل عمران ١٤٧.

فاستقر رأيها أن تذهب إلىٰ المسيح مرة أخرىٰ مستعطفة مسترحمة عساه يقبلها من أتباعه المؤمنات، وفي ذلك الاطمئنان كله علىٰ أن الله قد قبل توبتها مثل «توما».

وأخذت تبحث عن المسيح والحواريين عقب ذلك فوجدتهم في بيت أحد الحواريين، فذهبت إليه فوجدت المسيح متكئًا علىٰ أريكة وحوله الحواريون، فتقدمت إليه في خوف واستحياء وقبَّلت رجلي المسيح وأخذت تبكي وتبلل قدميه بالدموع فتمسحها بشعرها، ثم كان معها قارورة من الطيب الجيد فسكبتها علىٰ رأس المسيح ورجليه لتطيِّبه بعطرها.

وأحس المسيح فيها صدق توبتها وخالص نيتها في الرجوع إلىٰ زمرة المؤمنين، فقال لها: إن الله قد غفر لها خطاياها بصدق إيمانها وتوبتها النصوح، فخرجت فرحة مستبشرة وانضمت إلىٰ الحواريين الأتقياء، وأخذت تصرف بسخاء وتُحسن باستمرار علىٰ المؤمنين والمؤمنات والفقراء والمساكين.

وظلت مخلصة للمسيح تلازمه كالظل في تنقلاته وتحضر له جميع دروسه وعظاته وكانت عونًا له علىٰ التبشير بدعوته بين النساء، وتَفْتح قلبها للإيمان فأثمرت تعاليم المسيح فيها وكرّست نفسها للدعوة المسيحية.

ولقد خلَّد التاريخ مريم المجدلية رمزًا للمرأة التائبة الصادقة والمخلصة الوفية للدعوة المسيحية، ونموذجًا رائعًا لتغليب الخير علىٰ الشر، والصلاح بعد الضلال، والتقوىٰ والفضلة بعد الخطيئة والرذيلة.

ومكثت مريم المجدلية بعد المسيح سنوات كثيرة تجاهد في سبيل نشر الدعوة كما أوصاهم بذلك المسيح، وتاب علىٰ يديها كثيرون، وعاشت أواخر أيامها في كوخ صغير زاهدة متقشّفة حتىٰ فاضت روحها إلىٰ ربها طاهرة، وتقبَّلها ربها قبول حسن وأدخلها في جنته مع عباده المكرمين.

❁ ❁ ❁

عهد الإسلام

لقد بعث الله سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام نبيًّا ورسولًا للبشرية جمعاء بعد رفع المسيح بستة قرون تقريبًا؛ ليهدي الناس إلىٰ الإيمان الحق وليخرجهم من الظلمات إلىٰ النور وليتمم مكارم الأخلاق ويبلغ الشريعة الأخيرة المكتملة من الله إلىٰ عباده، لكيلا يكون للناس علىٰ الله حجة بعد ذلك وخاصةً بعد أن استكملت البشرية مراحل النضج الإنساني عقلًا وفهمًا وإدراكًا.. وأصبحت شريعة موسىٰ التي أنزلها الله في التوراة لا توافق مقتضيات العصر، آنذاك جاءت شريعة محمد دستورًا سياسيًا ودينيًا واجتماعيًا واقتصاديًا ليسير عليه جميع الناس في مشارق الأرض ومغاربها وإلىٰ أبد الآبدين متطورًا مع الزمن ويتعرض لكل الخصائص ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[1] ولهذا كان القرآن الكريم معجزة محمد ﷺ الكبرىٰ في بلاغته وفصاحته ومعانيه وأهدافه وتفصيلاته، وقد تحدىٰ به الرسول أعداءه من العرب ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾[2]، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[3] ولقد كان الإسلام نقطة تحول كبير في المجتمع العربي، وفاصلًا بين عهدين متناقضين هما العصر الجاهلي قبل بعثة محمد ﷺ وعصر الإسلام بإشراقه النوراني وتقدمه العلمي وانطلاقه إلىٰ جميع أرجاء الدنيا

---

(١) سورة الأنعام ٣٨.

(٢) سورة يونس ٣٨.

(٣) سورة الإسراء ٨٨.

يبشّر بالدين الحنيف علىٰ أسس من المنطق والعقل والفطرة.

ومن الإنصاف أن نقرر ما كان عليه العرب قبل الإسلام، فمن الناحية الدينية كان أهل مكة وثنيين يعبدون الأصنام والأوثان، وكانت هناك قبائل يهودية متوطنة بجوار يثرب في الشمال، كما كانت هناك قبائل مسيحية في الجنوب بنجران واليمن، وباقي سكان اليمن من الطوائف الذين يعبدون الشمس، وكانت العرب جميعًا ما عدا أهل الكتاب تحج إلىٰ مكة سنويًا للطواف بالكعبة ويقدسونها ويحترمون سدنة الكعبة من قريش، هذا بجانب أن مكة نفسها بلد محرم طول العام ومن دخلها كان آمنًا.. ويحرمون القتل والحرب في أربعة أشهر من السنة سموها الأشهر الحرم وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب.

وأما من الناحية الاجتماعية فكانت الحياة في جزيرة العرب فردية قبلية فقط، ولم تكن هناك حكومات تخضع لها هذه القبائل في نظام دولي محكم، بل كانت كل قبيلة تعتبر نفسها مستقلة وتخضع لتقاليد العرب المتعارف عليها فقط.

ولذلك كانت القبائل دائمًا في حروب مع بعضها، القوي فيها يُغير علىٰ الضعيف، والبقاء للأقوىٰ.. وبما أن الجزيرة العربية أراضيها جبلية وليس بها زراعة ولا ينزل بها المطر إلا قليلًا ونادرًا ما تنموا عليها بعض الحشائش لرعي الأغنام، وهذا ما جعل الحياة فيها غير مستقرة ولم تنشأ القرىٰ لتتكون منها الدولة باستثناء قريتي «مكة ويثرب»، كما أن هناك تقاليد خلقية للعرب تُعد مفخرة لهم وظلت باقية ومتمسكين بها بعد الإسلام ومنها: الشجاعة وإكرام الضيف والإباء والمروءة والوفاء والتضحية بالنفس في سبيل

المحتمي بهم، وبجانب هذا كانت هناك أخلاق سيئة اختفت منهم بنهي الإسلام عنها وهي: وأد البنات وشرب الخمر وخطف النساء والتفاخر بالأنساب، هذا ما كان عليه سكان الجزيرة العربية قبل الإسلام في مجالات الدين والدنيا.

وجاء الإسلام بالفضائل والشرائع فقلب هذا المجتمع رأسًا علىٰ عقب فسوَّىٰ بين الناس وجعل أكرمهم عند الله أتقاهم، وأقام المحبة والأخوة بين المسلمين وربط بينهم برباط الدين الذي لا ينفصم، ووضع الأسس الاجتماعية للمعاملات المالية والسياسية وأخضع الجزيرة العربية كلها لحكومة موحدة لها جيش منظم يحميها ودواوين تنظم الحكم الداخلي، وجعل نظام القضاء بين الناس ليشيع العدل ويطمئن كل واحد في المجتمع علىٰ ماله وعرضه ونفسه، وقامت المحبة بين الناس مقام القانون، ويؤثرون علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

ويهمنا من هذه المقدمة الموجزة أن نبيِّن أثر الإسلام علىٰ المرأة لأن انطباعاتها بالإسلام ينعكس علىٰ الدور الذي قامت به المرأة المسلمة في عهد محمد ﷺ، ومن الواجب الحتمي أن نذكر مقدمًا ما قرره الإسلام للمرأة من حقوق وكانت من قبل محرومة منه.

فقد سما الإسلام بالمرأة ورفع إنسانيتها إلىٰ صف الرجل تكليفًا ومسئولية في حياة كريمة مستقلة بحكم الآية الكريمة ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[1] وكانت من قبل تورث الزوجة كالمتاع.. ولذلك

(١) سورة النساء ١.

جُعل التفاضل بين الناس جميعًا عند الله رجالًا ونساءً بالتقوىٰ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1].

كما قرر الإسلام حق المرأة في الميراث وحرية التصرف في ما تملك، وحضانتها لأبنائها لسن معين، ثم قرر نفقة مشروعة للمطلقة.

كذلك كانت العرب تكره إنجاب البنات بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[2] فكان العرب يئدون بناتهم خشية العار وتخلصًا من نفقاتهن لفقرهم فحرَّم الإسلام وأد البنات ﴿إِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[3]، كما قرر الإسلام أن الله هو المتكفل بالأرزاق بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾[4] كما سوَّىٰ الإسلام بين الأبناء بنينًا وبنات وجعلهم قُرة الأعين للإنسان بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[5].

كما أن الإسلام حفظ للمرأة حقها مع الرجل شريكة لحياته وموضع سره وراحته ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[6]، ثم قال تعالىٰ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[7]، وكذلك قال تعالىٰ:

(١) سورة الحجرات ٢.
(٢) سورة النحل ٥٨.
(٣) سورة التكوير ٨-٩.
(٤) سورة الإسراء ٣١.
(٥) سورة الكهف ٤٦.
(٦) سورة الروم ٢١.
(٧) سورة النساء ١٩.

﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِى عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[1] وهو الأساس السليم الذي تقوم عليه الحياة الزوجية، ولقد قرر الإسلام للمرأة حقوقًا كثيرة أخرىٰ مثل التعليم وحرية الرأي وحرية اختيار الزوج والنفقة والتوريث، مما كان له الأثر الكبير الواضح في حياة المرأة المسلمة. وكانت محرومة من هذه الحقوق قبل الإسلام.

ولقد توَّج رسول الله في حديثه الشريف منزلة المرأة بقوله: «الجنة تحت أقدام الأمهات»، وسوف نذكر فيما بعد شرحًا لها المجتمع النسائي في حياة النبي محمد ﷺ، وسنراه مختلفًا عمَّا قامت به النساء في عهود الأنبياء السابقين، ولكي نسهل علىٰ القارئ الإلمام بدور كل امرأة في المجتمع رأيت من التنظيم أن نتناول الكتابة عنهن بهذا الترتيب:

أ - أم النبي ﷺ.

ب- زوجات النبي ﷺ.

ج - بنات النبي ﷺ.

د - نساء شهيرات لهن أثر في الحوادث ومواقف مشرفة.

❊ ❊ ❊

(١) سورة البقرة ٢٢٨.

أم النبيِ العربيِ

«آمنة بنت وهب»

«آمنة بنت وهب» هي أم النبي العربي محمد ﷺ من بني زهرة إحدىٰ بطون قريش، وهي أقرب الفروع من قريش إلىٰ بني عبد مناف أجداد النبي محمد ﷺ.

ولقد تزوجها عبد الله بن عبد المطلب وهو في ريعان شبابه عقب افتدائه من الذبح بمائة من الإبل، لأن أبوه عبد المطلب كان قد نذر لو أنجب عشرة من الأبناء ليذبحن أحدهم، ولهذا بعد أن وُلد له عشرة من الأبناء وبلغوا مبلغ الرجال، وكان أحدهم «عبد الله» أخذهم أبوهم إلىٰ الكعبة واستشار خادمها أن يضرب الأقداح فيمن تُخرجه من أبنائه العشرة ليُذبح وفاءًا للنذر فخرجت الأقدام علىٰ «عبد الله» وكان شابً وسيمًا جميل الطلعة قوي الجسم، وهمَّ أبوه عبد المطلب بذبحه فهرعت إليه أخواته وبناته ونساء قريش ورجالها وفي مقدمتهم خاله «المغيرة بن عبد الله المخزومي» ومنعوه من ذبحه، وأشاروا عليه بالفداء ولهم في ذلك أسوة حسنة في جده إسماعيل فقد فداه الله بكبش وتراجع عبد المطلب، وقال لهم: الرأي لكم فيما تحللوه لنذري وهل هين عليَّ أن أذبح ابني وهو شاب في مقتبل العمر، فأشار عليه أن يضرب دونه الأقداح بالدية للرجل عندهم وهي عشرة إبل، ولكن الأقداح كانت تخرج علىٰ عبد الله، فردوها مرة أخرىٰ حتىٰ وصل الفداء إلىٰ مائة من الإبل، وعندئذٍ خرجت علىٰ الإبل فذُبحت وتُرك لحمها تأكل منه الفقراء والمساكين والطيور في السماء، ولشدة فرح أبيه عبد المطلب بهذا الفداء قرر

أن يزوجه عقب ذلك مباشرةً فيزيل من نفسه أثر الهول الذي تعرَّض له عبد الله، فزوَّجه أبوه من أجمل بنات قريش وأطهرهن وكانت تقاربه في العمر، أي دون العشرين سنة، وهي آمنة بنت وهب التي دخلت التاريخ من هذا الباب الهين وصارت أكرم أم لسيد البشر وخاتم الأنبياء والمرسلين.

ولم تهنأ آمنة بزوجها طويلًا شأن كل عروس، ولكن القدر حرمها منه علىٰ عجل وخضاب العريس في يديها وقدميها، فقد سافر «عبد الله» مع قافلة قريش للتجارة بالشام وترك زوجته «آمنة» حاملًا بوحيدها في الشهور الأولىٰ من الحمل، وعند عودة القافلة تخلف «عبد الله» عند أخواله من بني النجار في يثرب لمرضه، ثم لم يمهله المرض طويلًا فمات بـ«يثرب» ودُفن بها ورُوعت عروسه آمنة بهذا الخبر المحزن، فشقت عليه الجيوب ولطمت الخدود وعفرت رأسها عليه بالتراب وظلت تبكي وتنتحب عليه ما شاء لها البكاء، ولقد شاركها في الندب عليه أخواته وعماته ونساء قريش جميعهن لأنه كان أنضر شباب قريش وأكملهم خُلُقًا، وترك زوجته العروس التي زُفت منذ شهور فأصبحت أرملة، وتحاملت «آمنة» علىٰ نفسها لتصبر علىٰ قضاء الله، وأخذ الجنين الذي تحمله في بطنها يخفف من لوعتها وثكلها وحزنها وعاشت حياتها ثقيلة مكدرة، وخيم الأسىٰ والألم علىٰ بيتها، وكان عزاؤها الوحيد أن تمر أيام حملها سريعة لتضع وليدها شبيه أبيه فتملأ عينيها بالنظر إليه دائمًا، وكأنها تربي زوجها عبد الله من جديد وإن كان هو ابنها وحبيبها، وما أكثر أن يسبح الفكر فيجسد الخيال إلىٰ حقيقة أو يحيل الحقيقة إلىٰ خيال يعيش فيه طيفًا سعيدًا كحلم جميل.. وهكذا مرَّت شهور الحمل بين أنين وبكاء وبين أمل ودعاء، ولو كانت تعلم أنها تحمل بأشرف مخلوق وأكرم نبي

وأعظم رسول، لخلعت ثياب الحزن وارتدت ملابس الفرح ودعت نساء قريش يشاركنها في استقبال رسول الله دعوة إبراهيم الخليل من قبل ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[1] ولكن الله ﷻ قدَّر أن يولد محمد كأي طفل ويدرج في مراحل الطفولة والشباب والرجولة حتىٰ الأربعين من عمره، ثم تنزل عليه الرسالة ليمثل البشرية في جميع أطوارها، ويحكم العقل للاقتناع بدينه دون أن يصاحبه فيها معجزات روحانية، كما حدث مع عيسىٰ عليه السلام فافتتن به قومه، ولذلك كان يؤكد دائمًا ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[2] حتىٰ لا يتكرر ما حدث مع المسيح من قومه.

ولما تمت شهور الحمل وضعت «آمنة» وليدها في يسر وسهولة دون تعب أو ألم، بركة ورحمة بها، وكان ذلك في عام الفيل في شهر ربيع الأول سنة ٥٧١م، وقد سجل في القرآن حادثة الفيل بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[3].

إن القلم يعجز أن يصف السرور والسعادة والفرحة التي ملات قلب «آمنة» بمولودها الصغير، وما أن ذهب البشير إلىٰ جده «عبد المطلب» حتىٰ حضر علىٰ عجل وحمله إلىٰ الكعبة وطاف به سبعًا ثم أسماه «محمدًا»

---

(١) سورة البقرة ١٢٩.
(٢) سورة الكهف ١١٠.
(٣) سورة الفيل ١-٥.

ولم يكن هذا الاسم معروفًا من قبل، ولما سُئل عن هذه التسمية قال: ليكون محمودًا في السماء والأرض، وكان ذلك إلهامًا له من الله.

وبعد فترة من الولادة دفعت به أمه «آمنة» إلىٰ مرضعة من البادية يقال لها «حليمة بنت السعدي» وبقي عندها سنتين حتىٰ أتم الرضاعة والفطام، وكان قَدَم سعد علىٰ «حليمة» فنالت بركة كبيرة بوجوده معها، فكثرت أغنامها وتوفرت مراعيها واخضَّر زرعها، اكتسب الطفل في هذه الفترة قوة ومناعة وفصاحة البادية وشبَّ علىٰ أحسن ما يكون عليه الأطفال صحة ومناعة.

ثم أعادته مرضعته «حليمة» بعد أربع سنوات إلىٰ أمه «آمنة» فتربىٰ في أحضانها وكفله جده عبد المطلب ولم يُشعره باليتم، بل كان موضع العطف والحنان منه، وكان يرتع دائمًا مع عمه «حمزة» لأنه من سنه، لأن جده عبد المطلب عندما ذهب ليخطب «آمنة» لابنه عبد الله كذلك خطب لنفسه «هالة بنت وهيب» بنت عم «آمنة» وتزوجها فولدت له «حمزة» عم الرسول.

ولما بلغ محمد السادسة من عمره عزمت أمه أن تسافر من مكة إلىٰ يثرب لزيارة قبر زوجها الراحل «عبد الله»، وفعلًا عندما تهيأت رحلة الصيف لقريش لتسافر من مكة إلىٰ الشام التحقت «آمنة» بالقافلة تسير معها إلىٰ يثرب، وقد صحبت «آمنة» معها طفلها «محمد»، وكذلك «بركة أم أيمن» واستقلت «آمنة» راحلتها في هودج ليقيها حرارة الشمس المحرقة.

ووصلت «آمنة» وطفلها إلىٰ يثرب بسلامة الله ونزلت عند أخوال زوجها من بني النجار، وزارت قبر زوجها مرات كثيرة وبقيت بجواره شهرًا تذرف الدمع سخينًا عليه، وكذلك كان يبكي بجوار قبره طفلها «محمد» الذي وُلد يتيمًا ولم تكتحل عيناه برؤية أبيه، وكلما سألها عن شكل أبيه تقول له أمه

في حنان مفرط «كأنك هو» فيطرق رأسه حزنًا، وقررت «آمنة» العودة مع القافلة من الشام وركبت راحلتها هي وطفلها ومعها جاريتها «بركة أم أيمن» وعند قرية «الأبواء» حدث ما لم يكن في الحسبان أن انتزع الموت أمه منه فجأة ولم يمهلها المرض إلا ساعات، وقد تكون إصابتها ضربة شمس أو حمىٰ قاتلة كما يسمونها في الطب الآن ودُفنت في قبر «في الأبواء» وحملت أم أيمن الطفل محمد يتيم الأبوين، واستمرت في رحلتها عائدة إلىٰ مكة، فربته السيدة فاطمة بنت أسد زوجة عمه أبي طالب وأكرمته في الإيواء والطعام أكثر من بنيها.

وبهذا يسجل التاريخ صفحة ناصعة البياض لأم النبي «آمنة بنت وهب» فقد تحملت أصعب المواقف في السنوات السبع، التي قضت منها شهرًا عروسًا، والباقي أرملة عطوف.. فاختطف الموت منها زوجها فلم تسعد به إلا كالطيف، ثم عاد الموت ليختطفها هي أيضًا، ولم تنعم بطفلها عوض أبيه إلا سنوات ست كان فيها قُرة العين وملء الدنيا وملاك الرحمة..

فأنعم بها من أم جاءت كنسمة ندية ورحلت عنها سريعًا في فجر حياتها وكأني بها تقول: لقد أديت رسالتي وحملت لكم ما في بطني محررًا نورًا ذاتيًا من رب العالمين ورحمة للإنس والجن أجمعين.

❋ ❋ ❋

زوجات النبي أمهات المؤمنين

رضي الله عنهن أجمعين

يقول الله في كتابه العزيز تكريمًا لأزواج النبي عليه الصلاة والسلام: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾(١) ولقد تزوج الرسول منهن بوحي من الله ولظروف خاصة حتمية اقتضت ذلك- إما لأمر سياسي أو اجتماعي أو تشريعي، حيث كانت حياة الرسول عليه الصلاة والسلام الخاصة والعامة كلها أسوة حسنة للمؤمنين والمسلمين، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾(٢).

وفي مجال الزواج- من وجهة نظر الشريعة الإسلامية- لا يجمع المسلم أكثر من أربع زوجات معًا في وقت واحد إلا أن يبدل واحدة مكان أخرىٰ بعد طلاقها كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾(٣) ولكنَّ الله ﷻ قد أعفىٰ النبي من هذا التحديد العددي وأباح له أن يتزوج بأكثر من ذلك، للظروف القهرية التي تعرَّض لها النبي في سنوات الجهاد والحرب ونشر الدعوة الإسلامية، ليوطد أواصر المحبة والصداقة بينه وبين الآخرين بالمصاهرة، أو قد يكون هذا الزواج لإعالة الأرامل وأولادهن، أو لإكرام قوم أعزاء قلب لهم الدهر ظهر

---

(١) سورة الأحزاب ٣٢.

(٢) سورة الأحزاب ٢١.

(٣) سورة النساء ٣.

المجن، أو للزواج من امرأة وهبت نفسها للنبي عليه الصلاة والسلام، ومن فضل الله علىٰ المسلمين أن سجل في القرآن الكريم كثيرًا من حياة النبي الخاصة وأزواجه حتىٰ لا تكون موضع جدل أو افتراء، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾(١) وكذلك قوله تعالىٰ فيما أُحِلَّ له عليه الصلاة والسلام من أزواج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

وبعد أن استنفذت حكمة تعدد الأزواج للنبي أغراضها ووضعت الحرب أوزارها، وأخذت الدعوة الإسلامية في الانتشار في أواخر حياة النبي بقوة الإيمان والحجة، وخاصةً بعد فتح مكة حيث كان النبي عليه الصلاة والسلام في الستين من عمره نزلت الآية الكريمة للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾(٣).

وهذا يوضح لنا أن زواجه عليه الصلاة والسلام من أمهات المؤمنين وتوقفه عن ذلك كان بأمر من الله وطوعًا لقوله تعالىٰ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٤).

---

(١) سورة الأحزاب ٣٨.
(٢) سورة الأحزاب ٥٠.
(٣) سورة الأحزاب ٥٢.
(٤) سورة الحجر ٩٤.

ولقد كانت نساء النبي عليه الصلاة والسلام موضع التربية الربانية حقًّا، فقد نزلت في حقهن آيات كثيرة في القرآن فيها الإرشاد والنصح ومعالم السلوك القويم في الحياة، وتبيان للمركز الكريم والشرف العظيم الذي أسبغه الله عليهن، ليكُنَّ مثلًا أعلىٰ لنساء المسلمين وأسوة حسنة للمؤمنات الصادقات، كما لم يغفل القرآن في آياته زجرهن وتخويفهن من عذاب الله الشديد إذا ارتكبت إحداهن أمرًا.

ويحلو لنا أن نذكر بالتبجيل بعض هذه الآيات الكريمة:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[(١)].

﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[(٢)].

❋ ❋ ❋

(١) سورة الأحزاب ٥٩.
(٢) سورة الأحزاب ٣٢.

السيدة خديجة بنت خويلد.. أم المؤمنين

هي أول المسلمين والمسلمات.

هي أول مؤمنة لبَّت نداء زوجها وقالت: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله».

هي أول زوجات الرسول ﷺ من أمهات المؤمنين.

هي أكثر زوجات النبي مشاركة لرسول الله ﷺ، فقد قضت معه خمسًا وعشرين سنة منفردة، منها خمس عشرة قبل النبوة وعشر بعدها.

هي أغنىٰ زوجة من نساء النبي ﷺ.

هي الزوجة الوحيدة التي أنجبت للنبي ﷺ البنين والبنات، وعاشت بناته وتزوجن في حياته ﷺ.

هي جدة الأشراف جميعًا من نسل ابنتها فاطمة الزهراء.

هي التي آزرت الرسول ﷺ ووضعت أموالها جميعها لنُصرة الدعوة الإسلامية.

كانت «خديجة بنت خويلد» رضي الله عنها من أعرق بطون قريش بمكة وأشرفهن حسبًا ونسبًا، وكانت سيدة ذكية حازمة ورثت أموالًا طائلة عن أبويها، وعن زوجيها السابقين، إذ كانت متزوجة من «عتيق بن عائذ المخزومي» ومات شابًا، ثم تزوجت من «أبي هالة بن زرارة التميمي» وأنجبت منه اثنين هما «هالة وهند»، ثم طُلقت منه وهي في الخامسة والعشرين من عمرها.

وظلت ﵂ بعد ذلك تدير أموالها وتستثمرها في التجارة، ورغب في زواجها كثير من كبار قريش رجالًا وشبابًا، ولكنها عزفت عن الزواج، لأنها تبيَّنت أنهم يطمعون في مالها، ومع ثرائها هذا واتساع تجارتها كانت علىٰ جانب كبير من الجمال والحسن والعفة والصون، ولذلك كانت تُدعىٰ دائمًا بالطاهرة.

وكانت ﵂ تستأجر رجالًا من قريش في تجارتها للشام واليمن مع عبدها «ميسرة» وكانت تعطي أحيانًا جملين للعامل في رحلة الصيف أجرًا له؛ لأنه كان يقضي شهرين علىٰ الأقل في الرحلة، وكانت تجارتها أيضًا في مكة موضع الثقة والتقدير وبذلك ربحت كثيرًا وبارك الله لها في أموالها لأنها كانت تُحسن كثيرًا، وشاءت الأقدار أن تستأجر «محمد بن عبد الله» في تجارتها لليمن جنوبًا، وللشام شمالًا، وفي مكة أيضًا، وكانت تضاعف له الأجر لقرابته لها ولما لمسته من الأمانة والربح الوفير في تجارتها، وكان «محمد بن عبد الله» قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره مكتمل الشباب موفور الصحة قوي الجسم جميل الوجه كأنه البدر في ليلة تمامه عزب لم تشغله مطالب الحياة، بجانب ما كان يتحلىٰ به من فضائل الصحة والأمانة والإخلاص في العمل والعزوف عن اللهو والمجون.

رحلة الصيف: ولما ذهب «محمد بن عبد الله» في تجارة خديجة مع غلامها ميسرة إلىٰ الشام في رحلة الصيف التي كانت تضم قوافل قريش كلها، ورغم صغر سنه وعدم خبرته بالتجارة وفنونها إلا أنه كان موفقًا في بيعه وشرائه وسبق أترابه من رجالات قريش في بيع تجارت وربح فيها الكثير، وكذلك اشترىٰ ما طاب له من تجارة الشام من الحرير والطيب والديباج

ومصنعات الذهب والفضة والنحاس مما جعل ميسرة يقف مذهولًا مشدوهًا من حُسن تصرفه ومداولته في البيع والشراء، ولقد زاد إكبار ميسرة له أنه وجد «محمد بن عبد الله» يقضي لياليه وحيدًا غارقًا في تأملات فكرية لا يعلمها، ولم يقضِ لياليه في مراكز التجارة بالشام مثل باقي الغلمان بالقافلة في أماكن اللهو والسهر والخمور.. وكانت هذه الأحوال من محمد موضع تفكير ميسرة ورقابته.

ولقد ربط ذلك بما رآه في هذه الرحلة الشاقة المضنية في شهور الصيف من أن غمامة تظلله دائمًا طوال الرحلة، حتىٰ الريح السموم التي كانت تهب في تلك الصحراء القاحلة تتلطف وتصبح نسيمًا نديًا عنده.

لما عادت القافلة بسلام الله، وكانت هذه أولىٰ رحلات محمد إلىٰ الشام، أخبر ميسرة سيدته خديجة ما رأىٰ وما شاهد في الرحلة، وكان الأمر واقعيًا من أرباح كثيرة وبضائع نفيسة قيّمة معتدلة الأسعار في الشراء، غالية الثمن في البيع، فارتفعت منزلة «محمد» عند خديجة كثيرًا، وقررت أن تستبقيه عندها لتجارتها مهما كان أجره، وقَبِل «محمد بن عبد الله» أن يشتغل لها في تجارتها عن طيب خاطر ولم يكن له إلا أن يقبل، فقد كان فقيرًا يتيمًا ويعيش في بيت عمه أبي طالب شقيق والده «عبد الله»، وفي صباه كان يرعىٰ الأغنام بأجر، ولما شبَّ وبلغ الخامسة والعشرين وكان عمه في حالة كفاف من الرزق شجعه علىٰ العمل عند خديجة بنت خويلد.

أثر الرحلة في المستقبل: قدرٌ كلها الحياة حقًّا، ولا يدري الإنسان ما يخبئه له الدهر في غده، فمن كان يظن أن سفر «محمد بن عبد الله» في تجارة خديجة إلىٰ الشام وإلىٰ اليمن ستكون الذرة الطيبة لمشروعات الغزو

والفتح الكبرىٰ بعد ذلك في السام واليمن بعد ثلاثين عامًا من هذه الرحلة، وكيف تكون هذه الرحلات دروسًا للنبي ﷺ بعد ذلك لوضع الخطط الحربية ومستلزمات الجيوش في طرقات الصحراء والجبال، وما كانت عليه المدن والقرىٰ في تلك الأمصار من ثروات ومدنية، وما ترسف فيه تحت وطأة الرومان واحتلال بيت المقدس، لتكون موضع تفكيره لنشر الإسلام فيها وتخليص بيت المقدس من يد المستعمرين الرومان، فكانت تلك الرحلات التجارية فعلًا خيرًا وبركة.

دوافع الزواج: نظرًا لأن «محمد بن عبد الله» كان يعمل في تجارة السيدة خديجة وتوثقت الصلة بينهما لأن مقتضيات العمل عندها تستوجب التردد الكثير للحساب واستلام التجارة وما شابه ذلك، كان «محمد» من فرط أدبه لا يرفع بصره إلىٰ خديجة، ولا يراجعها في أمر، فالمال مالها وهي صاحبة التصريف فيه، وما هو إلا رجلٌ أجير يطيعها في تجارتها أينما توجهه.

ولفت ذلك نظرها فأخذت تفكر فيه بعقلها وقارنته بأترابه من شباب قريش فرجح عنهم بكثير؛ لأنه الصادق الأمين قولًا وعملًا، العازف عن اللهو والمنكر أيًا كان لونه، وهو الحنيفي الذي لم يسجد لصنم، ثم انتقل هذا الفكر عند خديجة من مدارك العقل إلىٰ حيز العاطفة فألفته الفتىٰ الشريف الجميل الصورة الطاهر الذيل اليتيم الفقير العزب.

فأحست بطيفه يلمس شغاف قلبها وما أسرع أن أجابها العقل في عصبية وأنىٰ لشاب مثله في الخامسة والعشرين يقبل الزواج ممن في مثل أمه في الأربعين من عمرها، ولكن قلبها لم يقنع وعاودها الحنين فانتفضت من تأملاتها وأشاحت بوجهها لتبعد عن نفسها تلك الوساوس.

وفي الحق لم تكن تلك وساوس عاطفية أو نزوات غريزية ولكنها إلهامات قدرية ممَّن يملك الخبأ في السموات والأرض إذا قضىٰ أمرًا فإنما يقول له كُن فيكون، فقد كتب في اللوح المحفوظ أن «محمدًا يتزوج من خديجة» ولا بد من نفاذ ذلك فتتهيأ بذلك ظروف عمل محمد عند خديجة ثم يحدث تفكير العقل ثم القلب، ويخضع العقل لما وقر في القلب، ثم يتجاوب القلب الآخر قضاءً لما كتب.

الزواج: شُغلت السيدة خديجة بهذا الموضوع فأسرت به إلىٰ إحدىٰ صديقاتها وتُدعىٰ «نفيسة بنت منبه» فذهبت إلىٰ محمد تستطلعه الرأي وتسأله عن سبب عدم زواجه، فأجابها معتذرًا لقلّة ماله، فقالت: وإذا دُعيت إلىٰ الجمال والمال والشرف في سيدة أنت تعرفها فبادر بالقبول لأنه فهم أنها تعني خديجة بنت خويلد، ولما رجعت «نفيسة» وأخبرت خديجة بما أجاب به محمد طار قلبها فرحًا، وأرسلت إليه تستدعيه فجاءها مسرعًا وعندئذٍ تشجعت وعرضه مباشرةً أن يتزوجها فقبل علىٰ الفور، وذهب إلىٰ أعمامه وأخبرهم برغبته وموافقته علىٰ هذا الزواج فوافقوه، وحضر معه عماه «العباس وحمزة» وأبناء أعمامه وباركوا الزواج الذي قدَّره الله يُمنًا وسعادة، كما بارك هذا الزواج أيضًا عم خديجة وابن عمها «ورقة بن نوفل».

وتزوج «محمد بن عبد الله» وهو في الخامسة والعشرين من خديجة بنت خويلد وهي في الأربعين من عمرها، وهو السن الذي تكون فيه المرأة في مكتمل أنوثتها وفي كامل عقلها ورزانتها وفي أعلىٰ درجات جمالها، وقضىٰ معها النبي ﷺ أسعد سني حياته وزهرة شبابه وهي خمسة وعشرين عامًا حتىٰ توفيت هي إلىٰ الرفيق الأعلىٰ وهي في الخامسة والستين وكان النبي ﷺ

عندئذٍ في الخمسين من عمره، ورغم هذا نجد بعض المستشرقين يتهمون النبي ﷺ بأنه كان مزواجًا، ولو كان ذلك حقًا لما قبل أن يتزوج من سيدة تكبره خمسة عشر عامًا ويقضي معها ربع قرن من الزمان دون أن يتزوج بأخرىٰ عليها مع أن الطبيعة تعري جمال المرأة في منتصف العقد السادس من عمرها، وبذلك تكون السيدة خديجة قد قضت العشرة أعوام الأخيرة من عمرها تقريبًا في مراحل الشيخوخة ومع ذلك لم يتحول النبي عن حبها وإخلاصه لها، حتىٰ بعد مماتها كان دائم الذكرىٰ لها مما كان يوغر صدر عائشة بالغيرة من السيدة خديجة.

التحنث:

اعتاد بعض العرب وخاصةً العقلاء والمتدينون منهم أن يقضوا شهر رمضان من كل عام في التحنث، وهو الخروج من الحنث أي الإثم وهو بمعنىٰ الخلوة للتعبد كلٌّ حسب ما يدين، وكان منهم عبد المطلب بن هاشم وبعض الحنفية الذين كانوا يدينون بشريعة إبراهيم عليه السلام ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(١) وهذه الفئة كانت تعبد الله الواحد الأحد ولم تعترف بالأصنام ولا الأزلام، وكان في مقدمة الحنفاء «عبد الله بن أبي ربيعة الثقفي» فقد آمن بواحدانية الله قبيل الإسلام وحرَّم علىٰ نفسه الخبائث وكان معاصرًا لسيدنا «محمد بن عبد الله» ولكنه لم يسلم بعد البعثة لأنه كان يُمني نفسه بالنبوة لعلمه وثقافته ودرايته بكتب الفرس والتوراة والإنجيل، واطلاعه علىٰ ما في هذه الكتب المقدسة من مجيء نبي عربي لهداية الناس.

(١) سورة آل عمران ٩٥.

وكان من المتحنفين في الجاهلية أيضًا «زيد بن عمرو بن نفيل» وكان يُدعىٰ بموحد الجاهلية، ومن المأثور عنه قوله: «يا معشر قريش والذي نفسي بيده ما أصبح منكم علىٰ دين إبراهيم غيري» كما أنه يصارح قومه في مكة الذين يعبدون الأصنام «إنكم تعبدون ما لا يضر ولا ينفع من الأصنام».

ومن شعره أيضًا قوله:

أربًا واحدًا أم ألف رب ... أدين إذا تقسمت الأمور
فلا عزىٰ أدين ولا ابنتيها ... ولا صنمي بني عمرو أزور
ولكن أعبد الرحمـن ربـــي ... ليغفر ذنبى الرب الغفور [(١)]

وتوفي زيد بن عمرو بن نفيل قبل البعثة بخمس سنوات وخلف ابنه «سعيد بن زيد بن عمرو» وكان من أوائل المسلمين، وزوجته «فاطمة بنت الخطاب» التي كانت سببًا في إسلام أخيها عمر بن الخطاب بعد البعثة بخمس سنوات.

تلك كانت عقائد التوحيد في قلّة من الناس قبل الإسلام وكانت الأكثرية تدين بالوثنية والشرك بالله وتعبد الأصنام تقربًا وزلفىٰ له، وهي بطبيعة الحال كانت مقدمات لرسالة الإسلام وإرهاصات للنبوة ظهرت في سماء الجزيرة العربية قبل البعثة، كما كانت تنبؤات الكهنة والرهبان المنقطعين في صوامعهم أن زمانهم ذلك هو الزمن الذي تظلله نبوة جديدة في العرب وأن بوادرها أخذت تلوح في الأفق طبقًا لما جاء في كتبهم المقدسة بالتوراة والإنجيل.

---

(١) كتاب «الأدب في موكب الحضارة الإسلامية» للدكتور مصطفىٰ الشكعة.

فلقد بشَّر به عيسىٰ بن مريم وعَيَّنَه بالاسم كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾(١)، وكذلك قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾(٢).

نــزول الـوحـــي:

ولما بلغ «محمد بن عبد الله» ﷺ الأربعين من عمره وذهب كعادته كل عام في شهر رمضان يتعبَّد في غار حراء علىٰ بعد ثلاثة أميال من مكة.

وفي شهر رمضان سنة ٦١٠م (في ليلة القدر) نزل عليه لأول مرة الروح القدس وهو «جبريل عليه السلام» ومحمد في الغار إذ جاءه في صورة ملَك وقال له: اقرأ، فقال ما أنا بقارئ، فقال له جبريل: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(٣) فغادر الغار مضطربًا وَجِلًا ليخبر زوجته خديجة بما رأىٰ.

ولقد سجل القرآن هذا اليوم المبارك الذي نزل فيه الوحي من السماء علىٰ رسول الله بقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾(٤)، وكذلك سورة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١

(١) سورة الصف ٦.
(٢) سورة الأعراف ١٥٧.
(٣) سورة العلق ١-٥. حديث بدء الوحي، البخاري ومسلم.
(٤) سورة البقرة ١٨٥.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾[(١)].

ولما وصل النبي ﷺ إلىٰ منزله قصَّ علىٰ زوجته خديجة ما حدث له بالتفصيل فهدَّأت من روعه وسُرت بهذا الخبر السعيد وقالت له في فرح وسرور: «أبشر والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتحمل الكلأ وتقري الضيف» وكانت بذلك أول من أسلم ونطق بالشهادة بعد رسول الله- وقد تبعها في الإسلام بناتها الأربع وعلي بن أبي طالب وهو صبي صغير، وكذلك أسلم من في الدار بعد ذلك، ومنهم زيد ابن حارث مولىٰ النبي عليه الصلاة والسلام، وهند ربيب رسول الله وهو ابن خديجة من زوجها السابق «زرارة».

ولقد كان أول المسلمين من الرجال بعدئذٍ أبو بكر الصديق، فقد كان صديق النبي ﷺ الحميم ورفقيه الذي كان يلازمه دائمًا فكان أول المؤمنين برسالته وانتشر الإسلام بعد ذلك في مكة، ووقفت خديجة بجانب زوجها تشد أزره وتعضده علىٰ احتمال المكاره وتمده بمالها في سبيل نشر دعوته وتخفف عنه الآلام والأحزان التي تعرَّض لها من أهله والمشركين فكانت نعم المعين ونعم الوزير المخلص لزوجها، هوَّنت عليه كل صعب وذللت له كل مستحيل، فكانت سنده الأكبر في الحياة وملاذ السكينة والراحة التي يأوي إليها، ولولا ضيق المكان لسطر القلم صفحات معدودات في فضل السيدة خديجة، ولكننا نختصر القول لنذكر ما يقتضيه المقام فيها.

(١) سورة القدر ١-٥.

الأبنــاء: لقد أنجب الرسول عليه الصلاة والسلام من السيدة خديجة البنين والبنات، فولدت له «القاسم» وكان يُكنىٰ به، و«عبد الله»، وكلاهما مات في طفولته، ومن البنات ولدت له «زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة».

ولقد ولدت صغرىٰ بناته «فاطمة» قبل البعثة بخمس سنوات في سنة ٦٠٥م وهو العام الذي أُعيد فيه بناء الكعبة، وجميع بناته عليه الصلاة والسلام تزوجن، ثم توفاهن الله في حياة أبيهم إلا فاطمة توفيت بعد النبي ﷺ بستة أشهر.

الحصــار: لقد اشتد إيذاء قريش بالمسلمين وخاصةً بالعبيد والموالي الذين اسلموا وتحملوا صنوف العذاب من سادتهم المشركين ليردوهم كفارًا، ولكن هيهات أن يرتدوا فكانت أموال خديجة وأموال أبي بكر تُدفع بسخاء لشراء أولئك المؤمنين من الموالي ويُعتقوا ابتغاء وجه الله.

ثم أمعنت قريش في اضطهاد المسلمين وقررت مقاطعة المسلمين وبني هاشم حُماة النبي لا يتعاملون معهم ولا يتزوجونهم، وفرضوا عليهم حصارًا اقتصاديًا واجتماعيًا بالغ الخطورة وأخرجوهم من مكة إلىٰ شِعب في الجبال حتىٰ يمنعوا الاتصال بهم نهائيًا، وكان ابتداء الحصار بعد البعثة بحوالي سبع سنين واستمر لمدة ثلاث سنوات.

وكانت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها مع رسول الله ﷺ والمسلمين تعاني ما يعانون رغم شيخوختها إذ بلغت الخامسة والستين من عمرها، ولقد أثر ذلك في صحتها وأصابها المرض حتىٰ أنه عقب فك الحصار مباشرةً ورجع المسلمون إلىٰ منازلهم بمكة لم يمهلها المرض إلا أيامًا معدودات.

الوفـاة: وفاضت روحها الشريفة ﵂ إلىٰ بارها طاهرة زكية تزهو بما قدمت في سبيل الله ونشر الإسلام كل غالٍ من مال وصحة وجهد، ودُفن جثمانها الطاهر بمكة، وقبرها يُزار الآن.

لقد رافقت الرسول عليه الصلاة والسلام قبل البعثة خمسة عشر عامًا، وبعد البعثة عشر سنوات، كانت مثال الزوجة الوفية المخلصة الشريفة، فقد وفرت له الهناء والسعادة المنزلية تمسح عنه آلامه وأشجانه وتهيئ له الراحة والسكينة فتفرَّغ لأداء رسالته بفضل حكمتها وحُسن تصرفها، ولم تبخل عليه بمالها قط بل أطلقت يده في ثروتها منذ زواجه بها، وكان يسعدها أن ترىٰ رسول الله ﷺ ينفق من مالها في سعة وبسخاء علىٰ الفقراء والمساكين والأرامل والمحتاجين، فتهتف من أعماق قلبها الحنون في وجه الرسول الكريم صدق الله إذ يقول فيك: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

❋ ❋ ❋

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

السيدة «سودة بنت زمعة» أم المؤمنين

في العام العاشر بعد البعثة توفيت أم المؤمنين «خديجة بنت خويلد» ﵂، وكان النبي ﷺ في الخمسين من عمره وقد حزن عليها حزنًا شديدًا وأحس بالفراغ الكبير الذي تركته، وزاد من المصيبة أن توفي بعدها بشهر تقريبًا عمه أبو طالب. فقدَ بموته السند القوي الحامي المهيب الذي كانت تخشاه قريش وأصبح النبي عليه الصلاة والسلام لا يجد له في القوم نصيرًا ولا في بيته أنيسًا فشق عليه ذلك ولزم داره إلا قليلًا، وسُمي ذلك العام بعام الحزن، ولهذا عرض بعض المسلمين علىٰ النبي ﷺ أن يتزوج سيدة ترعاه وتدير شئون بيته وتقوم علىٰ مصالح بنتيه «أم كلثوم وفاطمة» واختيرت له «سودة بنت زمعة» وكانت أرملة مسنة ليست ذات جمال ولا مطمع للرجال فيها، وقد مات عنها زوجها «السكران بن عمر» وكان من المسلمين الأوائل الذين هاجروا بزوجاتهم إلىٰ الحبشة فرارًا من اضطهاد وأذىٰ قريش لهم ثم رجع إلىٰ مكة ومات، وبذلاك كان قبول النبي عليه الصلاة والسلام الزواج من «سودة بنت زمعة» ﵂ جبرًا لخاطرها شفقةً بها وإنقاذًا لها من الفتنة لأن باقي قومها كانوا كفارًا.

وبقيت أم المؤمنين «سودة بنت زمعة» ﵂ في بيت الرسول ﷺ بمكة تخدمه وبنتيه بكل إخلاص ووفاء حتىٰ هاجرت مع الرسول إلىٰ المدينة.

وتزوج النبي ﷺ بعد الهجرة بأمهات المؤمنين، وكانت «سودة» حريصة علىٰ أن توفر الهدوء والهناء للرسول فقد تنازلت عن حقوقها

الزوجية لعائشة وقنعت بشرف انتمائها لأمهات المؤمنين ولم تنجب من الرسول مثل باقي الزوجات.

وقد عمّرت ﵁ كثيرًا حتىٰ توفيت في آخر خلافة عمر بن الخطاب ﵁.

❁ ❁ ❁

السيدة «عائشة» أم المؤمنين

وُلدت «عائشة» بمكة في أول عهد الإسلام من أبوين كريمين هما: «أبو بكر الصديق» أول المسلمين وزوجته الصحابية الجليلة «أم رومان»، ونشأت عائشة وترعرعت في جو من الصلاح والتقوىٰ مشبع بالحماس للتبشير بالدعوة بكل الإمكانيات المادية والأدبية فلم يكن غريبًا أن تسلم عائشة قبل أن تشب علىٰ الطوق هي وأختها «أسماء»، وقد كان «أبو بكر بن أبي قحافة» ﵁ من أكابر تجار مكة وأوفرهم مالًا، وأكثرهم خبرة، وأحسنهم خلقة ومعاشرة، بجانب علمه بأحساب وأنساب العرب عامة، وقريش خاصة، وحفظه لأكثر شعراء الجاهلية، مما جعله شخصية متميزة في قريش يُرجع إليه في تقرير الأنساب ورواية الشعر، وقد كان لهذا العلم عند أبي بكر أثره في ابنته عائشة فحفظت عنه الكثير من الشعر والأدب والتاريخ، مما جعلها هي الأخرىٰ شخصية متميزة عن نساء النبي، وأصبح لها أثر كبير فيما بعد في عهد الخلفاء الراشدين دينيًا وثقافيًا وسياسيًا.

لقد كان زواج النبي محمد ﷺ من عائشة ﵂ بوحي من الله إذ رأىٰ النبيُّ جبريلَ ﵇ في المنام يعرض عليه صورة الطفلة عائشة ويقول له: «إنها زوجتك في الدنيا والآخرة»[1].

ولما كانت رؤيا الأنبياء حقًّا وصدقًا فتقدم النبي لخطبة عائشة من أبيها وهي طفلة لا تتجاوز العاشرة، وعقد عليها بمكة في شهر شوال سنة

(١) الترمذي، حديث ٢٩٦٧.

عشرة من النبوة قبل الهجرة بثلاث سنين، وكان صداقها خمسمائة درهم- ودخل بها النبي في السن الأولىٰ من الهجرة بالمدينة وكانت عائشة في الثالثة عشر تقريبًا من عمرها [(١)]، وكان النبي في الثالثة والخمسين من عمره الشريف وكانت حجرتها بجوار حجرة «سودة بنت زمعة» تفتح علىٰ مسجد المدينة وبُنيت من اللبن- الطوب الني- وسقفها من الجريد، وعلىٰ فتحة الباب ستار من الشعر، وفي داخل الغرفة فراش بسيط علىٰ حصير هو مرتبة من الجلد حشوها ليف. وظل هذا كل أثاث النبي طول حياته عند كل زوجة من زوجاته ليعلم الناس مدىٰ التقشف والفقر الذي كان عليه رسول الله ليكون للفقراء عزاءًا وأسوة حسنة.

وفي تلك الحجرة المتواضعة البسيطة بدأت حياة عائشة الصبية الصغيرة التي كانت تلعب مع صديقاتها بالدمي واللعب في أول الأمر [(٢)] ثم شبت وتدرجت بين يدي الرسول يحدوها بعطفه ويغذيها بأدب النبوة وعلمه الفياض وتحفظ عنه القرآن مباشرة، حتىٰ إذا اكتمل نموها وساعدها استعدادها الذهني وذكاؤها الفطري علىٰ أن تتعلم علىٰ أعظم معلم وتتثقف علىٰ أعظم مثقف، برزت فيها شخصيتها وتفوقت في مدرسة الرسول عن قرنائها وقريناتها وكأن الله كان يعدها ويدخرها لصالح المسلمين فيما بعد وقد كانت كذلك فعلًا.

---

(١) دخل بها وهي بنت تسع سنين.

(٢) قالت: «كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ وكان لي صواحب يلعبن معي..» البخاري، كتاب الأدب ٧٨، باب ٨١. مسلم، كتاب الفضائل، فضائل عائشة.

ولقد كان زواج الرسول بعائشة في الواقع تأكيدًا لرابطة الصداقة والأخوة والإيمان بين أبي بكر وبين رسول الله ومكافأة لأبي بكر علىٰ ما بذله في سبيل الإسلام من جهد ومال وتضحية. فقد ضرب المثل الأكبر في ذلك بين الصحابة، وبذلك كان أبو بكر أول من شرّفه الرسول؛ بالمصاهرة وخصّه بهذا الفضل العظيم، ولقد أنفق أبو بكر من ماله علىٰ الدعوة وشراء العبيد وتحريرهم خمسة وعشرين ألف دينار قبل الهجرة، وحمل معه عند الهجرة خمسة آلاف دينار.

ولقد كانت عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما أحب نساء النبي إليه وأكثرهم دلالًا عليه وكانت هي أيضًا أشدهن غيرة عليه حتىٰ كانت تغار من «السيدة خديجة» رحمة الله عليهما عندما كان يذكرها النبي، وكثيرًا ما كان يذكرها لأن طيفها كان يتمثل له دائمًا وخاصةً عندما يرىٰ إحدىٰ بناته، وفي هذا وفاء للسيدة خديجة التي قضت معه ربع قرن في حياة هنيئة سعيدة، لهذا كان ذكر النبي لها أمرًا طبيعيًا، وكانت غيرة عائشة منها أمرًا حتميًا فتلك من طبيعة النساء، وكان مما يزيد الموقف مرارة أن عائشة كانت عاقرًا بينما خديجة ولدت للرسول البنين والبنات كل واحدة منهن تمثل خديجة، وما أن هوّنت عائشة عن نفسها الغيرة من ضرتها التي ماتت من قبل وقبرها في مكة بعيدًا عنها حتىٰ روعت بضرة جديدة هي أم المؤمنين «حفصة بنت عمر بن الخطاب» وقد تزوجها النبي ليزيد في أواصر المحبة مع صديقه الثاني «عمر ابن الخطاب» في السنة الثالثة من الهجرة بعد موقعة بدر.

وتزوج الرسول بعد- حفصة- زوجات أخريات ومات عن تسع منهن، ولكن عائشة ظلت الزوجة الحبيبة للرسول أكثر منهن، كما كانت تعلم

عائشة أيضًا أن الرسول في زيجاته تلك كانت عن حكمة أو تشريع أو تكريم للقبائل والعشائر أو لظروف سياسية.

ولقد كان من بين زوجات النبي من تفوق عائشة جمالًا مما كان يُلهب عواطف الغيرة في قلبها ويكلفها مشقة كبرىٰ للاستئثار بقلب الرسول، ونظرًا لأن محمدًا ﷺ كان في بيته وبين نسائه بشرًا كسائر الرجال والأزواج فكان يعاملهن بالحسنىٰ والحلم والتسامح والعدل والتجاوز عن تصرفاتهن التي لا تمس الدين أو الأخلاق، ومع هذا لم تخل حياة النبي بين زوجاته من حوادث ومفارقات بعضها كالأعاصير هزت قلوب المسلمين في ذلك الوقت لولا لطف الله برسوله، وقد سُجل كثير منها في آيات من القرآن الكريم سنذكرها في مناسبتها.

التحــزب: ومن طرائف ما حدث بين زوجات النبي أنهن كُنَّ حزبين؛ ترأس عائشة إحداهن ومعها حفصة وسودة، والحزب الآخر أم سلمة وباقي الزوجات.

وحدث أنه لما تزوج الرسول بابنة عمته «زينب بنت جحش» وكانت جميلة حسناء غارت منها عائشة غيرة كبرىٰ لأنها ظنت أن الرسول سيؤثرها عنها لجمالها وقرابتها منه فكادت لها ودبرت مع حزبها حيلة تُنفِّر الرسول منها فاتفقت مع حفصة وسودة أيتهن يدخل عليهن الرسول بعد خروجه من

بيت زينب تقول له: «أأكلت المغافير» والمغافير ثمر حلو له رائحة كريهة ينضجه شجر يسمىٰ العرقط، وكان الرسول يكره الرائحة الكريهة(١).

وجاء الرسول «عائشة» فقالت له: إني أشم ريح المغفاير- هل أكلت مغافير؟ فقال عليه الصلاة والسلام: لا. ما أكلت مغافير، ولكني شربت عسلًا عند زينب، ومرَّ بحفصة فتكرر السؤال والجواب، ومرَّ علىٰ سودة فسألته نفس السؤال فأجابها كما أجاب من قبل: سقتني زينب شربة من عسل. فقالت سودة: إن النحل لا بد وأنه رعىٰ في زهر العرفط وأخذت تؤكد للرسول خبرتها في عسل النحل فما كان من الرسول إلا أن منع شرب العسل عند زينب.

ولكن «سودة» أحسَّت ندمًا علىٰ ما فعلت واشتركت في مكيدة كانت نتيجتها حرمان الرسول من شراب العسل.

تلك صورة مكائد الضرائر وحيل النساء للتشفي من زوج يميل قلبه لواحدة أكثر منهن، وكان ﷺ في هذا الموقف يمثل الزوج البشري الذي يكون هدفًا لمكيدة محكمة من زوجاته.

ومرة أخرىٰ اتفقت نساء النبي جميعًا علىٰ مطالبته عليه الصلاة والسلام بزيادة النفقة عليهن لأنهن يعانين الفاقة والحرمان وخاصةً بعد أن تم النصر للمسلمين علىٰ قبائل اليهود وغنموا منهم أموالًا ونفائس كثيرة، ورفض النبي طلب زوجاته لأنه لا يملك شيئًا ولا يقبل أن تكون زوجاته مثل

(١) ذُكرت القصة في البخاري، تفسير الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التَّحْرِيم الآية ١]، وكتاب الإيمان.

زوجات الملوك والأمراء يلبسن الحرير والديباج ويتزين بالذهب والماس، فقد اختار الفقر عيشة المساكين.

ولهذا قرر النبي ﷺ أن يعتزل نساءه وحرَّمهن علىٰ نفسه شهرًا حتىٰ نزل قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[1].

ولما أبلغ الرسول عائشة بهذه الآية الكريمة قال لها: استشيري أبويك في ذلك، فقالت عائشة: أفيك أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله.

وتلا الرسول علىٰ كل زوجة من زوجاته تلك الآية الكريمة وخيَّرهن فاخترن جميعًا الله ورسوله والدار الآخرة.

وعقب ذلك مباشرة كرَّم الله نساء نبيه بعدم زواج النبي عليهن أو يستبدل بهن أزواجًا أخرىٰ بقوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾[2].

وبهذه المناسبة، فقد نزلت آيات من القرآن في نساء النبي ونساء المؤمنين للنصح والإرشاد والتقويم والسلوك والأدب الاجتماعي والحقوق الفردية والزوجية والتخلُّق بالفضيلة واجتناب الرذيلة، ومنها قوله تعالىٰ:

---

(١) سورة الأحزاب ٢٨-٢٩.
(٢) سورة الأحزاب ٥٢.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾[1].

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[2].

﴿لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

حادثة الإفك[4]

تعرَّض رسول الله ﷺ لأكبر محنة وأعظم ابتلاء في السنة السادسة للهجرة فقد جرىٰ القدر عليه أن يكون عِرض زوجته عائشة هدفًا للقذف والتقولات.. ومن غير الرسول صلوات الله وسلامه عليه يستطيع أن يتحمل هذه الصدمة المفجعة في أعز وأكرم زوجة لديه، ولقد كان وقع هذا الحديث علىٰ قلب النبي ﷺ محزنًا أشد الحزن ومؤلمًا أشد الألم، ولقد شاركه في

(١) سورة الأحزاب ٥٩.
(٢) سورة النور ٣٠.
(٣) سورة النور ٣١.
(٤) الحديث بطوله في البخاري، كتاب المغازي. ومسلم، كتاب التوبة، باب ١٠.

ذلك واغتم من أجله جميع المسلمين إلا عصبة قليلة روّجوه فباءوا بغضب من الله وبئس ما كانوا يرجفون.

وكان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أو عزم علىٰ غزوة فإنه كان يقترع بين نسائه فأيهن خرج سهمها خرجت معه، وفي غزوة بني المصطلق خرج سهم عائشة فاصطحبها الرسول معه في الغزوة. وبعد انتهاء المعركة بنصر المسلمين فيها وعادوا فرحين محملين بالغنائم وقبل أن يصلوا المدينة حطوا رحالهم وعسكر جيشهم في تلك الليلة بالصحراء للراحة من عناء الحرب والسفر؛ وحدث أن خرجت عائشة من هودجها لقضاء حاجة لها في الصحراء بعيدًا عن الجيش، فلما فرغت انفرط من عنقها عقد لها ثمين ولم تشعر به، فلما رجعت إلىٰ المعسكر تحسست عقدها في عنقها فلم تجده، فرجعت إلىٰ مكانها تلتمسه فأخذت تلتقطه من الرمال حبة حبة، وعندئذٍ أذن للجيش بالرحيل فأقبل المختصون بها فحملوا هودجها ووضعوه علىٰ بعيرها دون أن يفطنوا لعدم وجودها فيه لأنها كانت خفيفة الوزن، ورحلوا بالبعير مع الجيش، وبعد أن وجدت عائشة حبات عقدها كلها ورجعت إلىٰ مقر المعسكر لم تجد أحدًا فارتاعت وأرهبها الموقف خوفًا وفزعًا من وجودها وحيدة في الصحراء منفردة معرضة لكل خطر وأذىٰ، وهداها تفكيرها أن تظل في مكانها بموضع المعسكر لأنهم سيفتقدونها فيرجعون إليها، وبينما هي جالسة في مكانها تخطط بأصبعها علىٰ صفحة الرمل غلبها النعاس من شدة التعب فنامت؛ وكان هناك أحد الجنود ويسمىٰ «صفوان بن المعطل السلمي» يتخلف عن الجيش ليحضر ما يكون قد سقط من أحد أو نسيه في مكان المعسكر، ولما وجد السيدة عائشة عرفها وسألها أن تركب بعيره ليلحق

بالجيش وفعلاً تأخر وركبت هي وأخذ هو بزمام البعير حتىٰ أوصلها إلىٰ المدينة في الظهيرة، وعند هذا الحد كان الأمر طبيعيًا ولم يثر عند الرسول أي شك أو يلفت نظر أحد من المسلمين.

ولكي ينفذ الله أمره في الابتلاء أتاح لهذا الحادث لسان أفَّاك كذَّاب هو «عبد الله بن أبي سلول» رأس المنافقين وعدو رسول الله الأول فأشاع بهتانًا وزورًا علىٰ عائشة واتهمها ظلمًا بما يُتهم به غير الشرفاء.

وانتقل حديث الإفك من «ابن سلول» إلىٰ غيره من المسلمين مثل «حسان بن ثابت» شاعر الرسول «ومسطح بن أثاثة» قريب أبي بكر وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش ظنًا منها أن ذلك يرضي أختها.

وأخذت هذه الأكذوبة تنتشر بسرعة البرق ولكنها كانت تقابَل بالاستنكار والتعوذ حتىٰ وصلت إلىٰ مسامع الرسول نفسه، وكذلك مسامع عائشة وأبويها، ومرضت عائشة ولزمت فراشها وأخذت تعتب علىٰ أمها وقالت لها: «يغفر الله لك تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئًا؟ فقالت لها أمها «أم رومان»: هوِّني عليك يا بنيتي فوالله لقلَّما كانت امرأة حسناء عند رجل ولها ضرائر إلا أكثرن عليها».

ولقد روت «عائشة» قصة ما حدث لها بقولها: «قمت حين أذنوا بالرحيل فمشيت حتىٰ جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت إلىٰ رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي قد انقطع فالتمست عقدي فحبسني ابتغاءه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني فاحتملوا هودجي فرحلوه علىٰ بعير الذي كنت أركب عليه وهم يحسبون أني عليه، ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب فيممت منزلي الذي

غلبتني عيني فنمت، وكان «صفوان بن المعطل السلمي» من وراء الجيش فأصبح عند منزلي، فرأىٰ سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني وكان رآني قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي والله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه وهو حتىٰ أناخ راحلته فوطئ علىٰ يدها فقمت إليها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة.

وكان رسول الله ﷺ يعلم في داخل نفسه أنها الطاهرة ضحية الإشاعات الكاذبة والحملة الظالمة من المنافقين، ولهذا قام الرسول في الناس خطيبًا فقال: «يا أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيرًا، ويقولون ذلك لرجل ما علمت منه إلا خيرًا وما يدخل بيتًا من بيوتي إلا وهو معي».

وغضب المسلمون لهذا الاتهام السافل لزوجة النبي وكادت تحدث فتنة يتقاتل فيها الناس وكان هذا هو هدف «ابن سلول» أن ينال من الرسول والمسلمين بالشر والفتنة ما لم ينله بقوة أخرىٰ، واشتد في ترويج الأكذوبة وأخذ يحيك حولها قصصًا مفترة ودسائس مختلفة.

وأضج هذا مضاجع الرسول وأرّقه، وصبر علىٰ هذا البلاء ينتظر قضاء الله فيه، وطال الأمد حتىٰ قارب الشهر، واللغط في ذلك يزداد، والشك ينتشر، والموقف يزداد سوءًا.

واستشار الرسول ابن عمه «علي بن أبي طالب» وأسامة بن زيد. فأما أسامة فقد أثنىٰ عليها وقال: لا نعلم عنها إلا خيرًا وذلك كذب وباطل، وأما سيدنا علي بن أبي طالب: «يا رسول الله النساء كثيرات وإنك لقادر علىٰ أن تستخلف، وسل الجارية فإنها ستصدقك».

فدعا الرسول جاريتها «بريرة» ليسالها فقام سيدنا «علي» فضربها ضربًا شديدًا وهو يقول: «أصدقي رسول الله ﷺ فتقول بريرة: والله ما أعلم إلا خيرًا». ويذهب بعد ذلك الرسول إلىٰ بيت أبي بكر فيجد عائشة باكية حزينة قد أسقمها ذلك القول أضعافًا مضاعفة فوق المرض فقال لها الرسول: «يا عائشة إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس فاتقي الله، وإن كنت قد قارفت سوءًا مما يقول الناس فتوبي إلىٰ الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده».

فقالت عائشة وهي تنتحب في أسىٰ وحزن: «والله لا أتوب إلىٰ الله مما ذكرت أبدًا فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني فوالله لا أجد لي ولكم إلا قول أبي يوسف عليه السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1].

ثم ساد سكون وعمَّ الصمت بسبب نزول الوحي علىٰ الرسول في تلك اللحظة وانتظروا حتىٰ أفاق الرسول فقال عليه الصلاة والسلام: «أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك».

فصاحت عائشة بفرحة قائلة: «الحمد لله الذي برأني».

انبسطت أسارير أبي بكر وزوجته، ورنت في البيت فرحة لا توصف، وخرج الرسول ﷺ إلىٰ المسجد ليتلو علىٰ الناس ما نزل عليه من وحي في تلك الساعة وهو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ۝١٢ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ

(١) سورة يوسف ١٨.

هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] ثم نزلت آيات أخرىٰ في هذا المقام منها: ﴿ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[2]. ونفَّذ الرسول عقوبة الجلد هذه في «مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش» فجلد كل منهم ثمانين جلدة، وانتهت بذلك عاصفة الإفك بعد أن عصفت بالقلوب وهزت العواطف وقرحت الجفون. ورجعت عائشة إلىٰ بيت الرسول مرفوعة الرأس تزهو ببراءة الله لها وتأنس بحب الرسول لها كما كان من قبل، ومن المفارقات العجيبة أن «صفوان بن المعطل السلمي» المتهم مع عائشة في حادثة الإفك عُرف بعد ذلك أنه كان عنينًا «حصورًا» أي لا يقرب النساء.

ومن الآثار السيئة لحادثة الإفك أن عائشة قد أصرت لعلي بن أبي طالب قوله للرسول: «النساء كثيرات وحقدت عليه من أعماق قلبها وكان ذلك سببًا هامًا في قيام الحرب بين عائشة وعلي بن أبي طالب وانتهت بانتصار عليّ في موقعة الجمل الذي استشهد فيها أكثر من خمسة عشر ألف مقاتل من الطرفين».

---

(١) سورة النور ١١-١٩.
(٢) سورة النور ٤.

انتهت حادثة الإفك بهذه الصورة المشرفة لعائشة وأُسدل الستار عليها وبقيت عائشة ﵂ في بيت الرسول ﷺ معززة مكرمة مرفوعة الرأس معتزة بنزول القرآن ببراءتها وطهرها، وظلت في بيت الرسول الكريم زعيمة زوجاته وأحبهن إلىٰ قلبه، حتىٰ إنه ﷺ لما مرض قبيل الوفاة وكان في بيت عائشة بعث إلىٰ نسائه فاجتمعن به وقال لهن: «إني لا أستطيع أن أدور بينكم فإن رأيتن أن تأذنَّ لي أن أكون عند عائشة، فأذِنَّ له» وبقي في بيتها حتىٰ فاضت روحه الشريفة إلىٰ الرفيق الأعلىٰ ودُفن جثمانه الطاهر في بيتها في ١٢ ربيع الأول من السنة الحادية عشرة الهجرية، ٨ يونيو من سنة ٦٣٣م لأنه عليه الصلاة والسلام قد كان صرَّح أن يُدفن حين يموت.. وكان عمره ﷺ ٦٣ سنة، وكانت عائشة عندئذٍ في الثالثة والعشرين من عمرها، ولئن اختُصت عائشة بكثير من حب الرسول إلا أن ذلك لم يؤثر علىٰ النبي في العدالة بين جميع زوجاته، ومَنْ غير الرسول يكون القدوة الحسنة والمثل الأعلىٰ في معاشرة النساء بالعدل والإحسان! وقد روي عن عائشة أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا علىٰ بعض حتىٰ يبلغ إلىٰ التي هو يومها فيبيت عندها».

تحريم زواجهن بعد النبي ﷺ:

ولقد حرَّم الله علىٰ نساء النبي أن يتزوجن من بعده بقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ ...﴾ إلىٰ ﴿... وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾[1].

(١) سورة الأحزاب ٥٣.

بهذا التشريع الحكيم انقطعت أمهات المؤمنين رضي الله عنهن من بعد الرسول للعبادة والاجتهاد في الصيام والصلاة وكانت بيوتهن مدارس يؤمها المسلمون من كل الأقطار للتعليم والاستفتاء في علوم الفقه والتفسير والحديث وظلت بيوتهن علىٰ هذه الحال منارًا للعلم والدين والشريعة قرابة نصف قرن بعد الرسول ﷺ.

وكان بيت أم المؤمنين عائشة أكثرهن استقبالًا لطوائف المسلمين من كل الأقطار للتعليم والاستفتاء وخاصةً ما يتعلق بأحكام النساء وبأحوال النبي البيتية، وكان عمر بن الخطاب يرجع إليها في مثل هذه الحالات. وقد نقل عنها وحدها ربع الشريعة، وقال عنها أحد الصحابة: «ما أشكل علينا أصحاب محمد حديثًا قط فسألا عائشة إلا وجدنا عندها منه علمًا» ولو جُمع علم الناس كلهم وأمهات المؤمنين لكانت أوسعهم علمًا كذلك، قال عنها عروة بن الزبير: «لقد صحبت عائشة فما رأيت أحدًا قط كان أعلم منهن بآية أُنزلت ولا بفريضة ولا بسُنَّة ولا بشعر ولا أروىٰ له ولا بيوم من أيام الحرب ولا بنسب ولا بقضاء ولا بطب منها».

وهذا يعطي صورة تقديرية لما كانت عليه عائشة رضي الله عنها من علم في مختلف المجالات تميزت به عن أمهات المؤمنين، مما جعلها موضع التقدير والاحترام من الخلفاء الراشدين والمسلمين جميعًا في مختلف الأقطار.

❋ ❋ ❋

السيدة «حفصة بنت عمر بن الخطاب»

أم المؤمنين

وُلدت حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما في السنة التي أُعيد فيها بناء الكعبة، أي قبل أن يُبعث النبي عليه بخمس سنوات، وهي نفس السنة التي وُلدت فيها فاطمة الزهراء صغرىٰ بنات الرسول ﷺ.

وكانت حفصة متزوجة من الصحابي الجليل «خنيس بن حذافة السهمي» الذي هاجر وزوجته إلىٰ الحبشة عندما اشتد اضطهاد وأذىٰ قريش للمسلمين الأوائل، وبعد عودته مع زوجته من الحبشة هاجر إلىٰ المدينة واشترك في موقعة «بدر الكبرىٰ» التي تم فيها النصر للمسلمين، وكان «خنيس» من شهداء بدر فترملت زوجته الشابة «حفصة» من بعده وهي في الثامنة عشر من عمرها، ولصغر سنها أضناها الحزن علىٰ زوجها وكاد شبابها يذوي من كثر البكاء والنواح علىٰ زوجها، ففكر أبوها «عمر بن الخطاب» أن يزوجها بعد مضي ستة شهور من استشهاد زوجها في السنة الثالثة من الهجرة وذهب أبوها إلىٰ أبي بكر الصديق وعرض عليه أن يتزوج من حفصة، ولكن أبا بكر لم يجبه بالقبول أو الرفض، فتركه وذهب إلىٰ عثمان بن عفان وعرض عليه أن يتزوج من ابنته حفصة لأن زوجة عثمان السيدة رقية بنت رسول الله توفيت أثناء موقعة بدر، ولكن عثمان أمهله أيامًا ثم اخبره بعدها بالاعتذار عن الزواج من حفصة.

فذهب عمر بن الخطاب حزينًا آسفًا إلىٰ النبي ﷺ يشكو إليه ما حدث من صاحبيه أبي بكر وعثمان لرفضهما الزواج من ابنته حفصة فابتسم الرسول وقال له: «تتزوج حفصة ممَّن هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان ممَّن هي خير من حفصة» وفهم عمر أن الرسول سيتزوج من حفصة ففرح وشكر الرسول علىٰ هذا الشرف العظيم، وخرج عمر بن الخطاب ليزف البشرىٰ لابنته وللمسلمين وقوبل الخبر بالتقدير لرسول الله لأنه بذلك سوَّىٰ بين صديقيه بشرف المصاهرة وهما أبو بكر وعمر.

والتقىٰ أبو بكر بعمر فاعتذر إليه بقوله: «يا عمر لقد ذكر لي النبي ﷺ شيئًا عن ابنتك وكان سرًّا فكرهت إفشاء السر».

ولقد أوصىٰ عمر بن الخطاب ابنته حفصة أن تكون علىٰ علاقة طيبة مع عائشة زوجة الرسول وأن تعمل علىٰ إرضائها دائمًا، ونفذت حفصة وصية أبيها لها وكانت فعلًا أقرب زوجات النبي إلىٰ عائشة، رغم أن حفصة كانت تكبر عائشة بحوالي ست سنوات.

لقد كانت حفصة تتقن الكتابة والقراءة وعلىٰ جانب كبير من الفصاحة والبلاغة وكانت تتابع تدوين السور والآيات القرآنية وتنسقها وتجمعها من أفواه الحفظة ومن الصحف والرقاع واحتفظت في بيتها بالمصحف الجامع للقرآن كله حتىٰ شاء الله أن تُنسخ منه المصاحف في عهد عثمان بن عفان، وكان مصحف حفصة رضي الله عنها هو المرجع الأكبر للنسخ منه وما عداه حرق، وبهذا قد أدت حفصة خدمة كبرىٰ بكتابة القرآن عندها فلم ينقص منه شيء، ومن نماذج فصاحة حفصة وتمكنها من اللغة والتعبير كلمتها في مرض أبيها عمر «يا أبتاه ما يحزنك وفاتك علىٰ الرب الرحيم ولا تبعة لأحد عندك،

ومعي لك بشارة لا أذيع السر مرتين، ونعم الشفيع لك العدل، ولم تخف علىٰ الله ﷻ خشنة عيشتك وعفاف نهمتك وأخبرك بأكظام المشركين والمفسدين في الأرض».

ولما دخلت «حفصة» بيت الرسول ﷺ كان به عائشة وسودة وسارت الأمور علىٰ خير ما تكون المعيشة الزوجية، وإن كانت عائشة قد ضاقت بها في أول الأمر؛ لأنها قد شاركتها في أيام الرسول ﷺ، ولكن لما توالت بعد ذلك زوجات النبي وجدت عائشة في حفصة أقربهن إليها وأكثرهن إخلاصًا ومودة وكانت من حزبها.

وطبعًا مضت السنون في بيت الرسول ووقعت أحداث بعضها بسيط وبعضها خطير، وما كان سهلًا أن تسير الحياة بين الضرائر والعشرة بينهم هادئة دون ما يعكر صفو الحياة علىٰ النبي وهو في بيته وبين زوجاته يمثل البشرية بكامل معانيها كأي رجل مسلم يتعرض لمكايدهن وفتنهن، ولقد حدث في أواخر أيام الرسول ﷺ أن قابل زوجته «مارية القبطية» ﵄ في فراش حفصة حيث كانت غائبة عنه، ولما حضرت وعلمت بذلك بكت بين يدي الرسول، واعتبرت أن ذلك إهانة لها وقالت للرسول: «والله لقد سببتني وما لتصنعها لولا هواني عليك» واستشهد بقول أبيها لها: «والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولولاي لطلقك» فطيَّب الرسول عليه الصلاة والسلام خاطرها وأخذ يسترضيها ووعدها بأن «مارية» قد حرَّمها علىٰ نفسه بعد ذلك بشرط ألا تخبر زوجاته بما حدث وتتناسىٰ الأمر وقال لها أيضًا: وأبشرك بأن أبا بكر وأباك عمر يتوليان أمر أمتي من بعدي.

ولكن «حفصة» لم تحفظ السر وأفشت ما حدث بين زوجاته وكانت عائشة أولىٰ نسائه اللاتي عرفن الخبر وأذاعته متشفية في زوجة الرسول «مارية القبطية» التي استأثرت بحبه بعد أن ولدت له «إبراهيم» وأصبح مشغولًا بابنها عن نسائهن وتألم الرسول من ذيوع ما حدث بتلك الصورة، وتظاهر أمهات المؤمنين علىٰ النبي فاعتزلهن النبي وشاع بين المسلمين أنه طلقهن جميعًا.. وفزع عمر إلىٰ الرسول يستوضحه الأمر فأخبره عليه الصلاة والسلام أنه لم يطلقهن فذهب عمر فرحًا ونادىٰ في المسجد «لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه».

ثم نزل علىٰ الرسول جبريل بقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1].

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَـٰتٍ مُّؤْمِنَـٰتٍ قَـٰنِتَـٰتٍ تَـٰٓئِبَـٰتٍ عَـٰبِدَٰتٍ سَـٰٓئِحَـٰتٍ ثَيِّبَـٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾[2].

(١) سورة التحريم ١-٢.

(٢) سورة التحريم ٣-٥. قال ابن كثير: وقد يقال أنهما واقعتان ولا بعد في ذلك إلا أن كونها سبب لنزول هذه الآية فيه نظر والله أعلم. ابن كثير، ج٤، ص٣٨٧-٣٨٨.

ولقد ندمت السيدة «حفصة» ﵂ علىٰ عدم كتمانها سر رسول الله ﷺ وكانت ستكون السبب في طلاق جميع نساء النبي وتابت إلىٰ ربها واستغفرت وأخذت تستعطف الرسول أن يعفو عنها فصفح عنها.

وبنزول هذه الآيات القرآنية انتهىٰ الحادث ورجعت «مارية» زوجة الرسول بكامل حقوقها بعد أن أعتق الرسول رقبة ليحل تحريمه وكان هذا درسًا قاسيًا للسيدة حفصة وباقي زوجات الرسول اللائي انصرفن جميعًا بعدها للعبادة والصلاة والتفقه في الدين.

وبعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ظلت السيدة حفصة مرجعًا للحديث والفقه والسُّنَّة وكان بيتها مدرسة للاستفتاء وتعلّم المسلمين أصول دينهم وخاصةً ما يتعلق بالنساء، وظلت ملازمة لبيتها حتىٰ توفيت ﵂ في شهر شعبان سنة ٤٥هـ في خلافة معاوية وهي في الستين من عمرها ودُفنت بالبقيع في مقبرة أمهات المؤمنين.

❋ ❋ ❋

السيدة «زينب بنت خزيمة»

الملقبة بـ«أم المساكين»

لقد كانت «زينب بنت خزيمة» زوجة لابن عم الرسول «عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب» كانت هي وزوجها من المسلمين الأوائل الذين جاهدوا في الله حق جهاده، واستشهد زوجها «عبيدة» في موقعة «بدر الكبرىٰ».

ورأىٰ النبي ﷺ أن يكرم زوجة ابن عمه المترملة الحزينة وإشفاقًا عليها لوحدتها وكفالة لها ورعاية لأرامل الشهداء ضمها إلىٰ زوجاته في السنة الرابعة للهجرة بعد زواجه من حفصة.

وكانت «زينب» سيدة فاضلة طيبة القلب كثيرة العطف علىٰ الفقراء تطعمهم وتتصدق عليهم من قبل إسلامها وزادت في هذا الخير والحدب علىٰ المحتاجين بعد ذلك حتىٰ لُقبت بـ«أم المساكين» وقد كانت محبوبة من الناس لأخلاقها الكريم وطباعها الفاضلة رغم أنها كانت معطلة عن الجمال.

ولم يطل بها المقام في بيت رسول الله ﷺ، فقد ماتت بعد ثمانية أشهر من زواجها بالنبي ﷺ وكانت الزوجة الثانية بعد خديجة من أمهات المؤمنين التي ماتت في حياة الرسول ﷺ، ودُفنت بالبقيع في المدينة.

❁ ❁ ❁

السيدة «هند أم سلمة المخزومية»

أم المؤمنين

هي «هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية» ﵂ وكان أبوها من أكابر قريش وأجودهم في الجاهلية وتزوّجت من ابن عمها «عبد الله بن عبد الأسد المخزومي» وهو ابن عمة رسول الله «برة بنت عبد المطلب بن هاشم»، وهذه القرابة من الرسول كان لها اعتبارها في أن يتزوج رسول الله من «هند» بعد أن ترملت واستشهد زوجها من جرح عميق أصابه في موقعة «أُحُد» وكان سببًا في وفاته بعد الموقعة بشهور.

وكانت هند وزوجها من أوائل المسلمين وهاجر إلىٰ الحبشة في أوائل الدعوة فرارًا من اضطهاد كفار قريش للمسلمين، وقد أنجبا وهما في الحبشة ابنهما «سلمة» وقد كانا يكنا به فيقال عنها «أم سلمة» وعن زوجها «أبو سلمة»، وعُرفا بذلك في صدر الإسلام.

وقد كان «أبو سلمة» فارسًا مغوارًا وشهد موقعة بدر الكبرىٰ وكان له فيها صولات وجولات، وكذلك حضر موقعة «أُحُد» وقتل فيها كثيرًا من المشركين وأصيب في تلك الموقعة بجرح ظل يؤلمه حتىٰ مات بسببه.

قد ترك زوجته هند وأبناءه منها «سلمة وعمر وزينب» فتقدم إليها بعد قضاء العدة بعد أربعة شهور أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب فرفضت «أم سلمة» أن تتزوج من أحدهما للتفرغ لتربية أبنائها، وبلغ ذلك الرسول فذهب إليها يواسيها لقرابة زوجها منه عليه الصلاة والسلام وقال لها: «سلي

الله أن يؤجرك في مصيبتك ويخلفك خيرًا»[1] فبكت حزنًا علىٰ موت رفيق عمرها وزوجها الحبيب التي ما كانت تجد في الرجال جميعًا من يعدله وفاءً وشهامة وشجاعة ورعاية لزوجه وأولاده، وبين الزفرات والدموع السائلة علىٰ خديها أجابت رسول الله في صوت متهدج معبرًا أصدق تعبير عن خلجات نفسها وصادق حبها الراحل «ومن يكون خيرًا من أبي سلمة يا رسول الله؟.. وغادرها رسول الله متأثرًا أشد التأثر لأنه كان يعد زوجها أحد الصناديد الشجعان الذي جاهد في سبيل نُصرة الإسلام وكان يعقد له لواء الجهاد في الغزوات فما نكص ولا انهزم في أي موقعة.

وبعدئذٍ ارسل رسول الله ﷺ إلىٰ «أم سلمة» يخطبها لنفسه كفالة لها ولأولادها الصغار وتكريمًا لزوجه الراحل الشهيد ولكنها اعتذرت بقولها: «مرحبًا برسول الله ولكن أبلغه عني أني امرأة مُسنة وأم أيتام وإني فوق ذلك شديدة الغيرة».

فأجابها الرسول ﷺ بأنه أكبر منها سنًا وأن الأيتام إلىٰ الله ورسوله، وأن الغيرة يُذهبها الله تعالىٰ.

وعندئذٍ رضيت «أم سلمة» ودخلت في عداد أمهات المؤمنين وتزوجها الرسول في شهر شوال من السنة الرابعة الهجرية، وكانت بنتها زينب طفلة صغيرة، وفي حديث للسيدة عائشة أم المؤمنين قالت عن «أم سلمة»:

(١) الحديث قالت أم سلمة فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيرًا منه رسول الله ﷺ. مسلم، ج٦، ص٢٢٠، ٢٢٢ شرح النووي.

«لما تزوج رسول الله ﷺ من أم سلمة حزنت شديدًا لما ذكر لنا من جمالها فتلطفت حتىٰ رأيتها فرأيت والله أضعاف ما وُصفت به»[1].

وكانت «أم سلمة» تمتاز بعقل راجح وفكر سليم وكان يستشيرها النبي عليه الصلاة والسلام في كثير من الأمور، ومن ذلك مشورتها علىٰ الرسول يوم «صلح الحديبية» في السنة السادسة من الهجرة، واستاء المسلمون من شروط الصلح وأمرهم الرسول بالتحلل من عمرتهم بحلق رؤوسهم ونحر ذبائحهم، ولكنهم أبطأوا فاستشار الرسول أم سلمة فيما حدث فأشارت عليه أن يخرج إليهم ويحلق هو رأسه وينحر ذبيحته فإنهم لا بد أن يقتدوا بالرسول وفعلًا بمجرد أن خرج الرسول وحلق ونحر قام الجميع بالتحلل والحلق والنحر اقتداءً برسول الله ﷺ.

وكانت «أم سلمة» ﵂ من أعلم أزواج الرسول، وروي عنها كثير من الأحاديث النبوية، وظل بيتها بعد الرسول ﷺ منارة للعلم والفقه والسُّنَّة بعيدة عن إقحام نفسها في السياسة، ولكنها في فتنة الحرب بين علي وعائشة كانت منحازة فكريًا مع علي بن أبي طالب، وكان ابنها «عمر» في جيش سيدنا عليّ كرم الله وجهه، كما أنها ذهبت إلىٰ السيدة عائشة في تلك الفتنة وقالت لها: «أي خروج هذا الذي تخرجين؟ الله من وراء هذه الأمة لو سرت مسيرك هذا ثم قيل لي: ادخلي الفردوس لاستحييت أن ألقىٰ محمدًا هاتكة حجابًا قد ضربه علي». وقد كان هذا القول منها سديدًا ورأيًا موفقًا يدل علىٰ نضج العقل وحنكة الرأي ونفاذ البصيرة.

(١) الإصابة في تخير أسماء الصحابة لأبي حجر، ج٤، ص٤٥٩، بيروت.

وظلت «أم سلمة» معززة مكرمة محترمة طول حياتها وعمرت كثيرًا وكانت آخر من مات من نساء النبي في السنة الثالثة والستين للهجرة في عهد يزيد بن معاوية، ودُفنت في مقابر البقيع بالمدينة، وعليها وعلىٰ جميع المؤمنين الرحمة والرضوان.

❁ ❁ ❁

السيدة «زينب بنت جحش»

أم المؤمنين

لقد كان تعدد الزوجات للنبي ﷺ في الفترة بين الخامسة والخمسين وبين الستين من عمره الشريف حيث منع عليه من الزواج بعد الستين إلىٰ أن توفاه الله إلىٰ الرفيق الأعلىٰ وهو في الثالثة والستين، وسبق أن بيَّنا الحكمة من تعدد الزوجات هو لتوثيق عُرىٰ الصداقة مع صديقيه أبي بكر وعمر ومع القبائل العربية ثم للإيواء بعد قتل كثير من الأزواج المسلمين في الغزوات، ثم للتشريع لوضع سُنَّة تقضي علىٰ عادات أو معتقدات جاهلية كانت سائدة ومتأصلة في المجتمع العربي من قبل.

وكانت «زينب بن جحش» الشريفة القرشية الجميلة هي التي وقع عليها قضاء الله في أن تمثل علىٰ مسرح التشريع دورًا هامًا كانت فيه البطلة من جانب ويقابلها بطل آخر علىٰ نفس المسرح هو عبد عتيق للنبي «زيد بن حارثة» ثم توجهت القصة في النهاية بشرف كبير للسيدة زينب لم تنله أي سيدة في العالم بأن تزوجها النبي ﷺ بأمر السماء ونزل الوحي بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾[1] ولهذا لم يعقد عليها ﷺ كما عقد علىٰ سائر أزواج النبي ﷺ.

---

(١) سورة الأحزاب ٣٧.

وقبل أن نسرد تفاصيل هذه الحوادث وجب أن نوضح معنىٰ العبيد والموالي والرقيق التي كانت تشكل جانبًا هامًا في الجزيرة العربية.

فالأصل في الرق هو الاختطاف أو الأسر في حرب ويقال «عبد» للرجل الرقيق و«أَمة» للأنثىٰ من الرقيق، وإذا ولدت الأَمة من سيدها فيكون الولد ابنه وتسمىٰ هي «أم ولد» وتبقىٰ ملكًا لسيدها بعد أن تلد، ولكن لا يجوز له أن يبيعها أو يهبها، وإذا مات عنها فهي حرّة، وللسيد أن يعتق عبده أو أضمته أي أن يرد له حريته، ولكن تبقىٰ هناك صلة بين السيد وعتيقه، وهذه الصلة تسمىٰ «الولاء» ويظل المعتق بنسب إلىٰ من أعتقه فيقال «زيد بن حارثة» مولىٰ رسول الله أي عتيقه، وإن كانت أنثىٰ فهي مولاته، ويُجمع علىٰ موالٍ، وقد يُنسب المعتق إلىٰ قبيلة فيقال مولىٰ بني هاشم أو مولىٰ ثقيف، وإذا مات المعتق بغير وريث فإن الذي أعتقه يرثه، ونظام الاسترقاق متبع في الحروب فكل من أُسر في غزو يعتبر أسير ورقيق، وتوزع الأسرىٰ كالأسلاب، ويمكن فداؤها بالمال أو تُعتق.

وقصة «زيد بن حارثة» تعطينا صورة طبيعية عن الرق آنذاك، وما كان زيد عبدًا ولكنه من أكرم القبائل العربية وكانت أمه «سعدىٰ بنت ثعلبة» ذهبت به لتزور أهلها وكان صبيًا صغيرًا لا يتجاوز الثامنة من عمره، فأغارت عليهم قبيلة معادية وكان زيد ضمن من أسروه فأخذوه إلىٰ سوق العبيد وبيع لحساب السيدة خديجة بنت خويلد فوهبته لزوجها محمد بن عبد الله، وكان ذلك قبل البعثة بسنوات، وتربىٰ زيد في بيت محمد ﷺ وظل أبوه «حارثة» يبحث عنه حتىٰ علم أنه عند محمد بن عبد الله فجاءه يدفع الثمن وليشتري حرية ابنه بالمال مهما كان، فقال له محمد بن عبد الله: إن اختاركم فخذوه من

غير ثمن، ولما جيء بزيد اختار البقاء، والرِق مع النبي عن الحرية مع والديه وقومه.

فدهش أبوه «حارثة» وقال له: «يا زيد أتختار العبودية علىٰ أبيك وأمك وبلدك وقومك» فأجاب «زيد»: إني قد رأيت من هذا الرجل شيئًا وما أنا بالذي أفارقه أبدًا «فأثَّر ذلك في قلب محمد ﷺ فأعلن من فوره أمام قريش أنه أعتق زيدًا وهو حرّ من ذلك الوقت، وزاد في التكريم بأنه يعتبره أيضًا ابنًا له بالتبني يورث كل منهما لآخر ودعي من ذلك الوقت «زيد بن محمد» وكان أول من أسلم من الصبية بعد «علي بن أبي طالب».

وكان التبني من عادات العرب في الجاهلية ويُلحقون مثل الأبناء بأنسابهم ولهم حقوق الأبناء الشرعيين في المواريث ومحرمات النكاح، حتىٰ جاء الإسلام وحرَّم التبني ونزلت الآية الكريمة: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1] وبعدئذٍ دعي «زيد بن حارثة» بدلًا من «زيد بن محمد» تحقيقًا لقوله تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[2].

وظل زيد بن حارثة مولىٰ الرسول بجوار النبي يجاهد في سبيل الله محاربًا مغوارًا وبطلًا شجاعًا من أبطال المسلمين الأفذاذ الذين حضروا «بدر

(١) سورة الأحزاب ٤-٥.
(٢) سورة الأحزاب ٤٠.

الكبرىٰ» وأبلوا بلاءً عظيمًا، وقد آخىٰ الرسول ﷺ بين زيد وبين سيدنا حمزة عم الرسول عند الهجرة إلىٰ المدينة وهذا مما يعطي صورة من تكريم رسول الله ﷺ لزيد. ومثل أعلىٰ للمساواة بين المسلمين أو قضاء علىٰ الطبقية.

ويبالغ رسول الله في تكريم «زيد» فيختار له زوجة من أعرق عقيلات قريش هي زينب بنت جحش بنت عمته أمية بنت عبد المطلب أجمل فتيات قريش وأعزهم حسبًا ونسبًا، وكان الهدف من ذلك أن يقضي علىٰ الطبقية واقعيًا، وطالما أن الإسلام قد سوَّىٰ بين الناس فلا فرق بين سيد ومسود وجعلهم كأسنان المشط ولا فضل لعربي علىٰ عجمي ولا لأبيض علىٰ أسود إلا بالتقوىٰ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1].

وأراد الرسول بهذا الزواج أن يكون درسًا عمليًّا في تطبيق المساواة بين المسلمين، ولما أرسل سيدنا «علي بن أبي طالب» إلىٰ عمته ليخطب ابنتها زينب فرفض أخوها عبد الله بن جحش، وكذلك كرهت زينب أن تُزف إلىٰ مولىٰ فهذه سُبة في حقها ومركزها، وعار ليس بعده عار أن تتزوج من مولىٰ حرّ اليوم حقًا، وكان بالأمس عبدًا رقيقًا، وأصرّت زينب علىٰ ألا تتزوجه أبدًا، ومما قالته: «يا علي أتتزوج أيم قريش من عبد رقيق؟».

وعاد سيدنا علي ﵁ إلىٰ الرسول ﷺ وأخبره بما حدث من عمته وأبنائها ورفضهم زواج زينب من زيد، واستاء رسول الله ﷺ من هذا الموقف لبقاء هذه الفوارق الطبقية والاجتماعية بين المسلمين رغم تعاليم الإسلام في إزالة هذه الاعتبارات من التعالي والتفاخر بالأحساب والأنساب،

---

(١) سورة الحجرات ١٣.

فأرسل الرسول سيدنا عليًّا مرة أخرىٰ إلىٰ عمته وأبنائها يبلغهم علىٰ لسانه «لقد رضيته لكم وأقضي بأن تنكحوه فأنكحوه».

وساد الصمت ولم تكن هناك إجابة، وعبّرت زينب بالبكاء استنكارًا لهذه التجربة القاسية علىٰ قلبها، وهلا يوجد غيرها ليكون موضع البلاء والامتحان، وما كانت تنتظر من ابن خالها النبي أن يحقّر من شأنها ويجعلها معبرًا للعبيد للوصول إلىٰ مقام الأشراف والمساواة.

ولم يطل هذا الموقف الحرج المرير علىٰ النفس بل قطع فيه نزول الوحي علىٰ رسول الله ﷺ بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[1].

وأمام ما نزل من السماء خشيت أسرة زينب أن توصف بعصيان الله ورسوله، كما خشيت غضب الله ورسوله، فوافقت زينب مكرهة علىٰ الزواج من زيد وزُفت إليه طوعًا لأمر الله بعد أن دفع الرسول ﷺ لها عن زيد مهرها عشرة دنانير وستون درهمًا وبعض المتاع، وأُقيمت وليمة عظيمة أطعم فيها المسلمون الفقراء والمساكين.

وانشرح قلب الرسول ﷺ لإتمام هذا الزواج تشريعًا للمسلمين وإن كان يعلم حقيقة عدم المحبة والإرادة القلبية بينهما وأن الأيام لكفيلة أن تقرب بين قلبيهما ويسعدان بأيام هنيئة في الحياة الزوجية.

(١) سورة الأحزاب ٣٦.

وفعلًا سارت الحياة الزوجية بينهما في أول الأمر سيرًا ثقيلًا ثم بدأت تخف ويسعدا بالزواج كحياة حتمية ويرضيان، وبعد شهور قضىٰ الله أن مثل علىٰ نفس المسرح حدث آخر بنفس الأشخاص لتشريع جديد من لون آخر، فقد أثار الله في قلب زينب أسباب الكراهية والاحتقار لزوجها زيد وأخذت تسيء معاملته وتؤذيه، واستحالت العشرة الزوجية بينهما واشتد كرهه لها وهجر مضجعها وذهب إلىٰ الرسول ﷺ يشتكي له زوجته ويقص عليه ما تفعله معه ويستأذنه في طلاقها لأنه برم بالحياة معها، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام هوَّن عليه الأمر ونصحه بالصبر والاحتمال وقال له: «أمسك عليك زوجك واتق الله» ورجع زيد إلىٰ زينب لينفذ ما أمر به الرسول ويتأسىٰ بالصبر ولكن زينب أمعنت في التعاظم والكبرياء عليه وتؤذيه بلسانها تفاخرًا عليه وعلوًا فلم يطق بعد ذلك صبرًا وطلقها ليستريح من هذه الزيجة غير المتكافئة.

لقد كان الرسول يعلم أنه لا بد من طلاقها ليتم تشريع جديد آخر له أهميته وخطره ليقضي علىٰ تقليد مخلد في الجاهلية، وهو تحريم الزواج من امرأة الابن المتبنىٰ كامرأة الابن الشرعي، ومَن غير رسول الله يتحمل تنفيذ هذا التشريع الجديد وقد أوجده الظروف في هذا الموقف وكان حتمًا عليه ﷺ أن ينفذ التجربة بنفسه فهو الأب المتبني لزيد ومطلقته زينب هي بنت عمة الرسول ﷺ، وفي زواجها من الرسول شرف لها وجبر لخاطرها فيما تحملته من زواجها من زيد طوعًا لأمر الله ورسوله.

ولما كان رسول الله قد أخفىٰ في نفسه أمر الزواج الذي قضىٰ به ربه عسىٰ أن يغير الله في قضائه بإبقاء زينب تحت زيد رفعًا للحرج ويمحو الله

ما أثبت وتضرع بذلك لله عسىٰ أن تنفع فيه شفاعته تحقيقًا لقوله تعالىٰ: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾(1) وكان الرسول يخشىٰ أن يقول الناس، وخاصةً المشركين، أن محمدًا تزوج امرأة ابنه فأنزل الله تعالىٰ قوله: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾(2) أي زيد الذي أنعم الله عليه بالإسلام وأنعم عليه النبي بالعتق ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾(3) أي الإبقاء علىٰ معاشرتها ولا يطلقها ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾(4) أي يخبره بالزواج من امرأة ابنه ولا يخشىٰ الناس فيما يقولون ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾(5) أي بعد أن عاشرها زيد فترة ثم طلقها بإرادته زوجناكها، أي أن الله سبحانه هو الذي أمر النبي ﷺ بزواجها وذلك طبعًا بعد قضاء عدة الطلاق، وكان ذلك في السنة الخامسة للهجرة.

﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾(6) هذا هو التشريع الجديد من هذه القصة بأكملها وهو التصريح لكل مسلم إذا أراد أن يتزوج من زوجة ابنه بالتبني المطلقة منه وكان ذلك مُحرَّمًا من قبل في الجاهلية، وكان الرسول في بيت عائشة عندما نزل الوحي بهذه الآيات فقال: «من يذهب إلىٰ زينب فيبشّرها بأن الله قد زوجنيها

---

(1) سورة الرعد ٣٩.
(2) سورة الأحزاب ٣٧.
(3) سورة الأحزاب ٣٧.
(4) سورة الأحزاب ٣٧.
(5) سورة الأحزاب ٣٧.
(6) سورة الأحزاب ٣٧.

من فوق سبع سماوات طباق؟» ولما بلغ زينب هذا النبأ السعيد سجدت لله شاكرة، وبذلك لم يُعقد للنبي ﷺ علىٰ زينب كما عُقد علىٰ غيرها من أمهات المؤمنين لأن الله هو الذي أمره بالزواج منها، ورفع الله الحرج عن النبي في هذا المقام بقوله تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[1].

وكانت «زينب» ﵂ من أحب نساء النبي ﷺ إلىٰ نفسه الكريمة لقرابتها إليه، وكانت تغار منها السيدة عائشة لجمالها وثرائها وشرفها، كما أن الحجاب علىٰ نساء النبي قد فُرض ليلة بنىٰ رسول الله ﷺ بزينب لأن الرسول دعا إلىٰ وليمة كبرىٰ بمناسبة هذا الزواج وبقي في بيته بعض القوم إلىٰ ساعة متأخرة من الليل ولم يُظهر لهم الرسول ضيقه من تصرفهم بجلوسهم عنده وقتًا طويلًا فنزل قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾[2] هذه إرشادات اجتماعية علىٰ أعلىٰ مستوىٰ من السلوك الراقي في المجتمع نزل بها القرآن منذ أربعة عشر قرنًا لتطهر الطباع الخشنة والعادات القبيحة في بوتقة الآداب

(١) سورة الأحزاب ٣٨-٣٩.
(٢) سورة الأحزاب ٥٣.

الإسلامية فتخرج منها علىٰ أكمل ما تكون عليه الفضيلة والأخلاق والسلوك.

ولقد شهدت لها السيدة عائشة أم المؤمنين بقوله: «ولم أرىٰ قط خيرًا في الدين من زينب وأتقىٰ لله وأصدق حديثًا وأوصل للرحم وأعظم صدقة واشد ابتذالًا لنفسها في العمل الذي يتصدق به ويتقرب به إلىٰ الله ﷻ».

كما قالت عائشة عنها أيضًا بالنسبة لمنزلتها عند الرسول: «كانت زينب تساميني من بين أزواج النبي في المنزلة عند رسول الله».

وفي أوائل زواج السيدة زينب بالرسول تعرضت لكثير من مضايقات ضرائرها من نساء، وقد شرحنا قصة المغافير من قبل، كما كانت السيدة زينب تعتز بجمالها وشبابها وتتعالىٰ بشرفها وتفخر بأن الله هو الذي زوجها وقالت لنسائه: «أنا أكرمكن وليًّا وأكرمكن سفيرًا زوجكن أهلكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات»(١).

وكانت السيدة زينب ﵂ أكثر نساء النبي ﷺ تصدقًا علىٰ المساكين واليتامىٰ والأرامل، وفي عهد عمر بن الخطاب أرسل إليها عطاءها اثني عشر ألف درهم فوزعتها جميعها علىٰ الفقراء وما استبقت منه شيئًا لنفسها.

وتوفيت السيدة زينب أم المؤمنين رحمها الله في خلافة عمر بن الخطاب في سنة عشرين هجرية وهي في الثالثة والخمسين من عمرها، وكانت أولىٰ نساء النبي ﷺ لحوقًا بالرسول بعد وفاته ﷺ.

---

(١) معناه في: أسد الغابة ج٧، ص١٢٦. والإصابة، ج٤، ص٣١٣.

وبشيء من الحساب البسيط نستطيع أن نقول إن السيدة زينب كان عمرها عند الهجرة ٣٣ سنة، أي أنه عندما توفيت أم المؤمنين السيدة خديجة كان سن زينب ٣٠ سنة، وكان عمر النبي عليه الصلاة والسلام ٥٠ سنة، ولو كان النبي يطمع في زينب لجمالها لتزوجها عقب وفاة السيدة خديجة وهي في أعز شبابها وأقرب فتيات قريش إليه، ولكن الله يدخرها لتؤدي دورًا هامًا في التشريع الإسلامي، وهذا ما ينفي شبهة زواج رسول الله ﷺ منها لجمالها أو أنها وقعت في قلبه موقع الاستحسان وكانت أمامه عذراء ترقب الزواج من قبل زواج منها بثمان سنوات منذ توفيت السيدة خديجة حتىٰ بنىٰ رسول الله ﷺ بزينب في السنة الخامسة للهجرة.

لهذا فإن السيدة زينب بنت جحش تمثل المرأة المسلمة المطيعة لأوامر الله ورسوله ولو كان علىٰ حساب عواطفها ومركزها.

❁ ❁ ❁

السيدة «جويرية بنت الحارث»

أم المؤمنين

هي «جويرية بنت الحارث» زعيم اليهود في قبيلة بني المصطلق، كانت تقيم بجوار المدينة، وكانت هذه الفئة من اليهود قد نقضوا عهدًا سبق إبرامه مع الرسول فسار إليهم النبي في جيش جرار في السنة السادسة للهجرة وقضىٰ علىٰ أولئك القوم وعاد بنصر الله يحمل أموالًا طائلة وسبايا كثيرة من يهود بني المصطلق، ولما وصل الرسول ﷺ والمسلمين المدينة أخذ يوزع تلك الأسلاب والسبايا، ووقعت «جويرية» في نصيب أحد المسلمين يُدعىٰ «ثابت بن قيس» فعرض عليها أمر افتدائها بمقدار تسع أواقٍ من الذهب وهو واثق أنها قادرة علىٰ دفعه لأنها بنت سيد بني المصطلق ومن أغنياء اليهود فكاتبته علىٰ نفسها بهذا المبلغ ويطلق سراحها فأبىٰ إلا أن يستلم أولًا الفداء، ولما كانت سبية ليس معها ما تفتدي به نفسها توجهت إلىٰ رسول الله ﷺ وقالت له: «يا رسول الله أنا بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك. فوقعت في السهم لثابت بن قيس فكاتبته علىٰ نفسي فجئتك علىٰ أمر» فتأثر الرسول من هذا الموقف وأخذته شهامته العربية لينقذ سيدة تلوذ به وكانت من قبل سيدة قومها وتلجأ إليه ليخلصها من عار السبي والرق بما يدفعه من مال فداءً لها.

ووردت علىٰ النبي في تلك اللحظة خواطر سماوية فيها الخير والعطف والسياسة الحكيمة فقال لها: «هل لك في خير مما طلبت؟» فقالت: وما هو؟ فقال الرسول: «أدفع كتابتك وأتزوجك؟» فقالت: نعم، وكان قبولها

ذاك عن حصافة ورجاحة عقل، وكانت هذه المفاجأة غريبة لكنها جرَّت بركات علىٰ بني المصطلق والمسلمين، فما إن سمع المسلمون بزواج رسول الله من «جويرية» حتىٰ أطلقوا أسرىٰ بني المصطلق جميعًا من رجال ونساء إكرامًا لمصاهرة الرسول ﷺ لهم، وكان في ذلك فتحًا مبينًا فأسلم أكثرهم وكسب المسلمون بهذا الزواج أكثر مما كسبوه بغلبة الحرب معهم.

وأسلمت «جويرية» وحسن إسلامها وأصبحت من أمهات المؤمنين وكان فضل هذه الأسيرة الحسناء علىٰ قومها موضع الفخار بينهم دائمًا، ولقد كانت «جويرية» علىٰ جانب كبير من الجمال في العشرين من عمرها يوم أن تزوجها النبي وقد كانت متزوجة من أحد أقاربها اليهود ويدعىٰ «مسافع بن صفوان المصطلق».

وفي حديث السيدة عائشة أم المؤمنين عن «جويرية» تقول عنها: لما قسَّم رسول الله سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس فكاتبته علىٰ نفسها وكانت امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله تستعينه في كتابتها فوالله ما هو إلا أن رأيتها علىٰ باب حجرتي فكرهتها وعرفت أن سيرىٰ فيها ﷺ ما رأيت.

وعقب زواج الرسول من «جويرية» روّج المنافقون «محنة الإفك» للسيدة عائشة ﵂ وهي التي سبق ذكرها بالتفصيل من قبل.

ولقد ظلت «جويرية» في بيت الرسول وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام حتىٰ عهد معاوية بن أبي سفيان، وتوفيت إلىٰ رحمة الله بعد سنة الخمسين الهجرية، ودُفنت مع أمهات المؤمنين في البقيع بالمدينة.

لقد كان زواج رسول الله من السيدة «جويرية» اليهودية فيه تشريع للمسلمين في إباحة الزواج من اليهوديات حتىٰ ولو بقيت علىٰ دينها بعد الزواج.

ويعتبر ذلك زواج سياسي عظيم الأثر، كثير الفائدة، بجانب أنه تشريع للزواج من أهل الكتاب. وكان ذلك بفضل شجاعة وتصرف السيدة جويرية بذكاء وحذق ولباقة.

❋ ❋ ❋

السيدة «صفية بنت حيي بن أخطب»

أم المؤمنين

لقد كان انتصار المسلمين علىٰ يهود بني المصطلق دفعًا لهم علىٰ التخلص من باقي جيوب اليهود حول المدينة وخاصةً ما كان يقطن من اليهود حول «خيبر» في حصون منيعة حيث كان يقطنها بنو قريظة وهم أكثر اليهود ثروة ومنعة؛ ولهذا سار النبي عليه الصلاة والسلام بجيش من المسلمين في السنة السابعة للهجرة ليغزو خيبر ويجلو اليهود عنها جزاء نقضهم للعهد معه وتطهيرًا للمدينة وما حولها من دنس اليهود ودسائسهم وخياناتهم.

ونصر الله رسوله والمسلمين وقُتل من اليهود عدد كثير حملت أموالهم وكنوزهم وسِيقت نسائهم سبايا، وكان من بينهم «صفية» بنت رئيس قومها وزوجة أحد أغنيائهم وكانت شابة جميلة لم يتجاوز عمرها السابعة عشر سنة، وكان قد قُتل أبوها وزوجها في المعركة، لما عرف المسلمون مكانتها بين قومها عرضوها علىٰ الرسول لتكون أَمة أو زوجة له إن شاء.

وعندئذٍ وجد الرسول عليه الصلاة والسلام أن التاريخ يعيد نفسه ويكرر ما حدث في السنة السابقة مع بني المصطلق وما كان من زواجه من جويرية بنت الحارث، وكان لهذا الزواج السياسي فضل كبير في دخول كثير من يهود بني المصطلق في الإسلام وإعادة المودة بدل الخصام بسبب تلك المصاهرة، ولهذا لم يتردد الرسول في أن يحوز «صفية» ويعرض عليها

الإسلام والزواج منه عليه الصلاة والسلام فرضيت طائعة مختارة وفرحت بهذا الشرف الذي أسبغه عليها الرسول[1].

وعاد الرسول وعروسه الجديدة إلىٰ المدينة وضُمت إلىٰ باقي زوجاته يحدوها عطف خاص من الرسول بسبب تلك الظروف التي أحاطت بها، وطبيعي أن يثير وجود هذه العروس الشابة الجميلة حقدًا وغيرة بين نساء النبي وخاصةً عند السيدة عائشة، ومرة قالت لها عائشة وزينب: نحن أزواج النبي وأقرباؤه وبنات عمه وعماته، ولهذا نحن أكرم عليه منك، فبكت وأخبرت الرسول بما سمعت منهن فقال لها الرسول ﷺ: «ألا قلت فكيف تكُنَّ خيرًا مني وزوجي محمد وأبي هارون وعمي موسىٰ»[2].

وروي عن عائشة أنها قالت: «ما رأيت صانعة طعام مثل صفية، صنعت لرسول الله ﷺ طعامًا وهو في بيتي فأخذتني قشعريرة فارتعدت من شدة الغيرة فكسرت الإناء ثم ندمت، فقلت: يا رسول الله ما كفارة ما صنعت؟ فقال: إناء مثل إناء وطعام مثل طعام»[3].

ومرة قالت زينب بنت جحش عن صفية إنها لا تعدو كونها يهودية فهجر الرسول زينب شهرًا أدبًا لها علىٰ إساءتها صفية بهذا النعت.

واجتمع نساء النبي عنده في مرضه الأخير الذي توفي فيه.. فقالت صفية: إني والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بي، فتغامز نساء النبي تهكمًا

(١) أسد الغابة، ج٧، ص١٦٩.
(٢) الترمذي، حدث ٣٩٨٣.
(٣) وهذه القصة في زينب بنت جحش. نيل الأوطار، ج٥، ص٣٦٢.

لقولها، ولاحظ الرسول ذلك منهن فقال لهن: «مضمضن» أي استغفرن، فقلن له: من أي شيء نستغفر يا رسول الله، فقال: «من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة» تلك كانت رعاية رسول الله لزوجته صفية وحمايته لها من ألسن زوجاته وغيرتهن منها.

وبقيت صفية أم المؤمنين بعد وفاة الرسول في بيتها قانتة عابدة مثل باقي أمهات المؤمنين تحدث عن أخبار الرسول ويجلها المسلمون احترامًا لرسول الله.

وفي محنة سيدنا عثمان وحصر منزله ومنع الطعام والشراب عنه كانت السيدة صفية أم المؤمنين تلقي إلىٰ منزله بالطعام من فوق سطحها لأنها كانت تجاوره في السكن.

وعاشت السيدة صفية أم المؤمنين حتىٰ خلافة معاوية، وتوفيت إلىٰ رحمة الله في سنة خمسين هجرية، ودُفنت في مقبرة البقيع بالمدينة مع أمهات المؤمنين.

وفي حياة السيدة صفية أم المؤمنين لون من أفعال الضرائر وخبثهن كما تدل علىٰ حماية زوجها رسول الله لها وتصرفه الحازم من أجلها مع باقي أزواجه. كما أن السيدة صفية تعطي صورة مشرِّفة للزوجة الوديعة المخلصة التي تضحي بنفسها من أجل زوجها لتتحمل عنه آلام مرضه.

❁ ❁ ❁

السيدة «رملة بنت أبي سفيان» أم المؤمنين

الملقبة بـ«أم حبيبة»

كانت «رملة» زوجة لابن عمها عبيد الله بن جحش أخو زينب بنت جحش، وهاجرت مع زوجها إلىٰ الحبشة في أوائل البعثة فرارًا من اضطهاد قريش للمسلمين وعلىٰ رأسهم أبوها «أبو سفيان» ألد أعداء الرسول وزعيم المشركين في مكة، ولم تخش «رملة» صولة أبيها ولا نفوذه وأعلنت إسلامها مع زوجها ورحلت إلىٰ المهجر في إيمان صادق وإسلام عميق مع تلك الزمرة المباركة من المسلمين الأوائل الذين وجدوا الأمن والسلام في رحاب ملك الحبشة الكريم..

وأنجبت «رملة» من زوجها ابنتها الوحيدة «حبيبة» وبها أصبحت تُكنىٰ «أم حبيبة» منذ ولدتها في الحبشة وظلت «أم حبيبة» مع زوجها قريرة العين سعيدة العيش أكثر من عشر سنوات في الحبشة إلىٰ أن فجعها الدهر في أمر لم تكن تتصوره أن يحدث مطلقًا إذ فوجئت في أحد الأيام بأن زوجها «عبيد الله بن جحش» يخبرها بأنه قرر أن يرتد عن دين الإسلام ويعتنق النصرانية التي كان يدين بها قبل إسلامه، فدارت بها الدنيا وغشيتها سحابة من الحزن والأسىٰ وأخذت تندب حظها العاثر الذي جاء بها في أرض الغربة وتتعرض لمثل هذا البلاء المميت، وأخذت تسأل الله الصبر والقوة لاحتمال تلك المصيبة الشنعاء التي حلت بها علىٰ غير انتظار.

فانتزعت من ضعفها قوة ومن مأساتها قدرة علىٰ مواجهة الأمر بأشد منه تمسكًا منها بدين الإسلام، وأعلنت احتقارها له وطردته وانفصلت في عزة

وإباء ووجدت من رهط المسلمين وعلىٰ رأسهم «جعفر بن أبي طالب» عم الرسول كل عون وتقدير.. وسارت الأيام علىٰ هذه الحال فترة قصيرة وإذا بنعي ذلك المرتد المتنصر يأتيها ففرحت بموت «عبيد الله بن جحش» وكأن السماء قد اقتصت منه سريعًا جزاء ما أوقعها في مواقف حرجة يندىٰ لها الجبين وتنفطر لها القلوب من خزي وعار بين رفقائها المسلمين.

ولما سمع رسول الله ﷺ بما حدث للسيدة «رملة» من تنصر زوجها وموته أرسل النبي إلىٰ النجاشي رسولًا هو «عمرو بن أمية العمري» في السنة السابعة للهجرة ومعه رسالة للملك يوكله فيها عنه ليخطب «أم حبيبة» ويتولىٰ عقد الزواج بالنيابة عن النبي عليه الصلاة والسلام.

فأرسل النجاشي إلىٰ «أم حبيبة» جارية لتخبرها أن الملك يقول لك وكّلي من يزوجك من نبي العرب فقد كتب إليّ بذلك.

فوكّلت عنها «خالد بن سعيد بن العاصي أقرب المسلمين إليها في الحبشة.

وفي المساء أرسل النجاشي للمسلمين هناك فحضروا في قصره ليبرم عقد الزواج أمامهم، وكان في مقدمتهم «جعفر بن أبي طالب» وقد خطب فيهم النجاشي ما ترجمته «أما بعد فإن محمد رسول الله كتب إليّ أن أزوجه أم حبيبة «رملة بنت أبي سفيان» فأجبت إلىٰ ما يريد وقد أصدقتها عنه أربعمائة دينار ذهبًا».

وسكب الدنانير بين القوم- فقام وكيلها «خالد بن سعيد بن العاص» وبعد أن شكر النجاشي قال: «قد أجبت إلىٰ ما دعا إليه رسول الله ﷺ

وزوَّجته من رملة «أم حبيبة» فبارك الله لرسول الله فيها ثم دعاهم الملك إلىٰ طعام لهذه المناسبة قائلًا: «إن سُنَّة الأنبياء إذا زوجوا أن يؤكل طعام علىٰ التزويج».

وبعد انتهاء الوليمة غادر المسلمون قصر الملك شاكرين فرحين مقدرين لرسول الله هذه المنة الكبرىٰ علىٰ «أم حبيبة» إذ بذلك رفع رأسها وردّ إليها كرامتها بجعلها من أمهات المؤمنين وذلك شرف لم تكن تحلم به، وذلك تحقيقًا لقوله تعالىٰ: ﴿عَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾(١) ورجعت «أم حبيبة» من الحبشة إلىٰ المدينة مع وفد من المسلمين العائدين وقابلهم المسلمون في المدينة في فرح وغبطة لا توصف فقد قضوا في المهجر أكثر من عشر سنوات، وكان وصولهم للمدينة عقب انتصار المسلمين علىٰ يهود خيبر.

ووصلت «أم حبيبة» بيت النبي ودخل بها بعد أن أولم للمسلمين طعامًا كثيرًا مما أفاء الله عليه من غنائم خيبر، وكانت هي حينئذٍ في الثلاثين من عمرها.

ولا يخفىٰ أن زواج الرسول من «أم حبيبة» كان له أثره عند أبيها أبي سفيان زعيم قريش والمحرض الأكبر علىٰ محاربة المسلمين إبقاءً علىٰ سلطتهم في مكة لا غير، ولذلك نرىٰ أبا سفيان بعد ذلك قد نهج سبلًا أقل عنفًا من ذي قبل وذهب بنفسه إلىٰ الرسول في المدينة ليعتذر له عن نقض قريش لصلح الحديبية الذي بين قريش والرسول من قبل، ودخل أبو سفيان

---

(١) سورة البقرة ٢١٦.

بيت النبي عليه الصلاة والسلام عند ابنته «أم حبيبة» فلما أراد الجلوس طوت عنه فراش رسول الله، فقال: يا بنية ما أدري أرغبت بي عن الفراش أم رغبت به عني؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك ولا أحب أن تجلس علىٰ فراش النبي. فقال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر كثير. فقالت: بل هو خير[١].

هذا الحديث يعطينا صورة عن قوة إيمان «أم حبيبة» وتمسكها بمبادئ الإسلام وكيف عاملت أباها بهذه الصرامة وهي لم تره منذ خمسة عشر عامًا، فقد كان الإسلام بوتقة تصهر فيها الناس فتكون خلقًا آخر مشرقًا بنور الله متفانيًا في حب رسوله متمسكًا بمبادئ الإسلام، وفي هذا المقام يجرنا الحديث عن قلب رسول الله الذي اتسع لمآسي لا حد لها، فقد تعرض عليه الصلاة والسلام في كثير من الأوقات لمتناقضات تؤذي العاطفة وتؤلم النفس، ولكنه عليه الصلاة والسلام كان يتقبلها بنفس راضية بقضاء الله عظة وعبرة لأولي الألباب، فمنها:

١- كانت بنته «زينب» متزوجة من ابن خالتها أبي العاص بن الربيع وقد استمر مشركًا سنوات طويلة، ووقع أسيرًا للمسلمين في موقعة بدر الكبرىٰ.

٢- كان عم النبي أبو لهب أشد أعدائه إذ أمر ولديه أن يطلقا زوجتيهما «رقية» و«أم كلثوم» بنتا النبي.

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، ج٤، ص٣٠٦.

٣- كان عمه العباس مع المشركين حارب الرسول في موقعة بدر ووقع أسيرًا.

٤- تنصر «عبيد الله بن جحش» ابن عمة النبي وشقيق زوجة الرسول «زينب بنت جحش» وارتداده عن الإسلام.

٥- تزوج الرسول «أم حبيبة» بنت ألد أعدائه أبي سفيان بن حرب.

ولنعد إلىٰ «أم حبيبة» في بيت الرسول مزهوة بحسبها وشرفها وجمالها، وكانت الوحيدة بين زوجات النبي التي كانت تعارض عائشة ولا تطأطئ لها رأسها بل كانت توقفها عند حدها، وعاشت «أم حبيبة» بعد الرسول معززة محترمة من الجميع كباقي أمهات المؤمنين قانتات عابدات صائمات متصدقات، وتوفيت إلىٰ رحمة الله في عهد أخيها الخليفة معاوية بن أبي سفيان في سنة ٤٤ هجرية بعد أن عمرت ٦٧ سنة.

أي صورة تعطينا إياها «أم حبيبة» أم المؤمنين إلا العظمة في المرأة المسلمة وقوة إيمانها ووقوفها صامدة كالطود أمام صروف الدهر ونكباته حولها في أعز الناس إليها وهو زوجها، وكيف تخلىٰ عنها وارتد عن دينه وانفصلت عنه وبقيت وحيدة إلا بإيمانها وعزلاء إلا من صبرها، فأتتها رحمة الله علىٰ عجل في غربتها وألبستها ثوب أمهات المؤمنين فرُدَّ إليها اعتبارها وزادها شرفًا علىٰ شرف.

وليس ما فعلته «أم حبيبة» بكثير عليها فأبوها أبو سفيان، وأمها هند بنت أبي ربيعة، وأخوها معاوية بن أبي سفيان ذرية عظيمة بعضها من بعض.

❃ ❃ ❃

مارية القبطية

في آخر السنة السادسة للهجرة رغب الرسول ومعه ألف وخمسمائة من المسلمين في أداء فريضة الحج والطواف بالكعبة الشريفة بمكة المكرمة شأن جميع العرب علىٰ اختلاف ديانتهم الذين يؤدون الحج كل عام في شهر ذي الحجة ما عدا أهل الكتاب، وتوجه المسلمون إلىٰ مكة في فرح وسعادة لا توصف بعد أن حُرموا رؤيتها سنوات، وسار النبي والمسلمون معتمرين يسوقون هديهم من الذبائح أمامهم وسيوفهم في أغمادها، ولكن ما إن قربوا من مكة حتىٰ ثارت قريش وصدوهم عن دخول مكة وعقدوا معهم صلح «الحديبية» بأن يرجع المسلمون في عامهم ذلك إلىٰ المدينة ويعودوا للحج في العام والتالي ويوقف القتال بين الفريقين عشرة سنوات.

وكانت هذه الهدنة فرصة طيبة للمسلمين وللرسول في التفرغ لقتال اليهود والتخلص منهم بعد أن خانوا عهودهم معه، وكذلك لينشر الرسول دعوته في خارج الجزيرة العربية، وبذلك أرسل رسله إلىٰ كل من قيصر ملك الروم، وكسرىٰ ملك الفرس، والمقوقس رئيس القبط بمصر والوالي من قِبَل الرومان عليها، ودعاهم للإسلام ومن تبعهم من الشعب، وأنذرهم في حالة الرفض بحرب لا هوادة فيها حتىٰ يسلموا ويعطوا الجزية وهم صاغرون.

وفي كتابه للمقوقس يقول الرسول: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلىٰ المقوقس عظيم القبط سلام علىٰ من اتبع الهدىٰ. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ

أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[1]».

وأكرم المقوقس وفادة الرسول وأرسل معه هدايا قيّمة للنبي كما سلّمه كتابًا ذكر فيه: «أما بعد فقد قرأتك كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًّا قد بقي وكنت أظن أنه يخرج من الشام. وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكانة من القبط عظيم، وبثياب ومطية لتركبها والسلام عليك».

وعاد رسول النبي من مصر محملًا بهدايا المقوقس وكانت عشرين ثوبًا من الكتان، وألف مثقال من الذهب، وكمية من المسك والعطور في قوارير، وأواني مملوءة بعسل «بنها»، وبغلة شهباء، وفرس بلجام من فضة، وحمار اشهب، ثم فتاتين شقيقتين من أجمل نساء مصر هما «مارية» وأختها «سيرين» كانتا جاريتين في قصر المقوقس، ثم جارية سوداء تسمىٰ «بربرة» وعبد خصي للخدمة.

وكانت «مارية» جارية بيضاء جميلة المنظر وفي عنفوان شبابها، وأبوها مصري يقال له «شمعون»، وأمها يونانية، وكان مولدها بقرية «حقن» إحدىٰ قرىٰ محافظة المنيا بقرب مدينة الأشمونيين، ثم انتقلت «مارية» إلىٰ قصر المقوقس كوصيفة فيه.

ووصلت «مارية القبطية» وأختها «سيرين» إلىٰ المدينة في السنة السابعة للهجرة، وقبل الرسول عليه الصلاة والسلام هدية المقوقس بالشكر

(١) سورة آل عمران ٦٤.

ثم أنزل مارية في أحد المنازل المجاورة للمدينة لأنها تعتبر سرية له، وأهدىٰ أختها «سيرين» لشاعره «حسان بن ثابت»، ثم عرض الرسول علىٰ «مارية» الإسلام فأسلمت وحملت [1] بـ«إبراهيم» ورفعت بمولودها العزيز مصاف الأزواج، وإن لم تلقب بأم المؤمنين إلا أنه كان لها الشرف بلقب «أم إبراهيم» وأصبحت الزوجة العزيزة عند الرسول ويقضي في منزلها وقتًا طويلًا يلاطف ابنه الصغير الذي رزقه الله منها علىٰ كبر، وكان قرة عين النبي مولد «إبراهيم» في السنة الثامنة للهجرة وكان الرسول في الواحد والستين من عمره. وقد كان الرسول متعلقًا بابنه «إبراهيم» حتىٰ كان يحمله بين ذراعيه ويطوف علىٰ نسائه فرحًا وسرورًا وهن يشاركنه في ذلك تكلفًا ومداراة لكراهية أمه «مارية» لأن الله قد حرم زوجات النبي من الخلف ما عدا خديجة من قبل، ولقد كان مولد إبراهيم تسرية للرسول في ذلك السن وعزاءًا له بعد أن فقدَ جميع أبنائه وبناته من قبل ما عدا السيدة فاطمة الزهراء التي بقيت علىٰ قيد الحياة بعد وفاة الرسول. فإن بنات الرسول «زينب ورقية وأم كلثوم» قد ماتوا جميعًا في حياة الرسول بعد أن تزوجوا.

ولقد وفَّر الرسول كل وسائل الراحة والهناء لزوجته «مارية القبطية» لتعتني بصحتها وصحة وليدها إبراهيم ، وتلك سُنَّة البشرية الحقة في المحافظة علىٰ النسل والعناية بالعقب لأنه فيه خلود للإنسان.

وقد كان ذلك سببًا في إشعال نار الغيرة في قلوب أمهات المؤمنين، وقالت السيدة عائشة في ذلك: ما غرت علىٰ امرأة إلا دون ما غرت علىٰ مارية

(١) الإصابة، ج٤، ص٤٠٥.

وذلك أنها كانت جميلة جعدة فأُعجب بها رسول الله ﷺ، وكان إنزالها أول ما قدم بها في بيت لحارثة بنت النعمان فكانت جارتنا، فكان عامة الليل والنهار عندها فجزعت، فحولها إلىٰ «العاليا» ضاحية بالمدينة وكان يختلف إليها هناك فكان ذلك أشد علينا، ثم رزقه الله منها الولد وحُرمنا منه».

وسبق أن ذكرنا في تاريخ «حفصة» واقعة لقاء النبي لزوجته «مارية» في منزل «حفصة» وما ترتب عليه من تحريم النبي لمارية عن نفسه ثم نزل القرآن يعاتب الرسول علىٰ ذلك ويذكر تحليلًا ليمينه، وبذلك عادت «مارية» زوجة للرسول بعد أن أعتق رقبة كفارة لتحلة بينه، كما أنه أباح للنبي بهذه المناسبة حرية معاملة أزواجه كيفما يرىٰ وفي أن يقسم المبيت بينهم أو لا يقسم، وفي أن يتزوج من يشاء ويترك من يشاء وفي ذلك تربية لزوجاته وزجر لهن عمَّا حدث منهن. وفي ذلك يقول الله: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾(١).

وهكذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام سعيدًا بولده إبراهيم يرقب نموه يومًا بعد يوم، والمسلمون من حوله يشاركون الرسول فرحته وسروره بابنه الذي أنعم الله به عليه لتسعد نفسه بعد أن قضىٰ أكثر من عشرين عامًا يجاهد في سبيل الله لا يعرف للراحة طعمًا ولا للنعيم مذاقًا، تساقط من حوله كثير من الصحابة والرفاق شهداء في سبيل الله وماتت بناته الثلاثة في حياته، كما ماتت من قبلهم زوجته الحبيبة «خديجة»، فكانت جروحه لا تندمل

(١) سورة الأحزاب ٥١.

وأحزانه متلاحقة حتىٰ منَّ الله عليه في الكبر بولده «إبراهيم»، وأنىٰ للحياة والأيام أن تسير وتيرة واحدة، فالدهر قلّب والأيام حبلىٰ بالمفجعات، وشاء القدر ألا تطول أيام السعادة والأنس بالابن الوحيد «إبراهيم» ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[1].

ونفذ الأمر الإلهي ومرض «إبراهيم» بعد ستة عشر شهرًا من مولده ومات وهو علىٰ مشهد من أبيه وأمه. يقول عليه الصلاة والسلام: «إنا يا إبراهيم لا نغني عنك من الله شيئًا»، ثم يقول «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا يا إبراهيم عليك لمحزونين وإنا لله وإنا إليه راجعون»[2]. ثم دُفن ابن الرسول في مقبرة البقيع في السنة العاشرة للهجرة، وحدث أن كسفت الشمس بالصدفة في يوم موت «إبراهيم» وقيل: «إن الشمس انكسفت لموت إبراهيم» وبلغ ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام فقال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته». وبعد موت إبراهيم بشهور قلائل توفي الرسول ﷺ في ربيع الأول من السنة الحادية عشر الهجرية، وأما «مارية» أم إبراهيم فقد اعتكفت في منزلها حزينة باكية ليس لها من سلوىٰ في الحياة غير زيارة قبر رسول الله وقبر وليدها إبراهيم، وظلت في عزلتها عن الناس قرابة خمس سنوات حتىٰ ماتت في العام السادس عشر من الهجرة في خلافة عمر بن الخطاب ودُفنت بالبقيع وهي في الثلاثين من عمرها تقريبًا، ولقد ربط زواج «مارية القبطية» من

---

(١) سورة الفلق ١-٥.

(٢) معنىٰ الحديث في: فتح الباري، ج٣، ص١١٢-١١٣.

الرسول أهل مصر وأهل الحجاز برابطة المصاهرة والخؤولة كما كانت من قبل مع سيدنا الخليل إبراهيم عندما تزوج من «هاجر» المصرية وأنجب منها أكبر أبنائه «إسماعيل» أبو العرب عليه السلام.

وبهذا شاءت الأقدار أن تتشابه الأحوال وتظل مصر بسبب رابطة المصاهرة مع العرب موضع الإعزاز والتكريم والدعاء لأهلها بالخير والبركة، وقد قال الرسول: «استوصوا بالقبط خيرًا فإن لهم ذمة ورحمًا».

لقد كانت أم إبراهيم «مارية القبطية» تمثل الحياء والجمال المصري في سمته المتواضع، الوفاء الصادق لزوجها عليه الصلاة والسلام حيًّا وميتًا.

* * *

السيدة «ميمونة بنت الحارث»

آخر أمهات المؤمنين

في أواخر السنة السابعة للهجرة وبناء علىٰ صلح الحديبية مع قريش خرج الرسول عليه الصلاة والسلام في ألفين من المسلمين قاصدين مكة لأداء فريضة الحج وسيوفهم في أغمادها لا يبغون حربًا ولا قتالًا ولكن حيطة من الغدر والاعتداء.

ودخل الرسول والمسلمون مكة في شهر ذي الحجة مهللين مكبرين يطوفون بالكعبة الشريفة في شغف زائد وفرحة لا تعدلها فرحة صائحين في نداء واحد «لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك» ساعين بين الصفا والمروة مهرولين في سبع أشواط وهي شعيرة من شعائر الحج كما أدتها من قبل السيدة هاجر أم سيدنا إسماعيل، وظل المسلمون في مكة ثلاثة أيام موضع الإعجاب والتقدير من أهل مكة، حتىٰ إن إحدىٰ سيدات قريش وهي «برة بنت الحارث» أخت أم الفضل بنت الحارث زوجة العباس عم النبي قد بهرها جلال الموقف وقوة المسلمين وهيبة النبي وعظمته فعرضت علىٰ العباس أن تسلم ويتزوجها الرسول إن شاء فقد وهبت نفسها له. وأخبر العباس سيدنا رسول الله بتلك الرغبة من شقيقة زوجته فوافق النبي علىٰ الزواج منها وأصدقها ٤٠٠ درهم، ونزل فيها قوله تعالىٰ: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1]، ولقد كانت

(١) سورة الأحزاب ٥٠.

«برة» أرملة في السادسة والعشرين من عمرها، وكانت آخر أزواج النبي- أمهات المؤمنين- وكان رسول الله في الستين من عمره ولم يتزوج بعدها، وغادر المسلمون مكة ورجعوا إلىٰ المدينة بعد أن أدوا فريضة الحج لأول مرة بعد الهجرة من مكة منذ سبع سنوات مضت، وضُمت «برة» إلىٰ أزواج النبي- أمهات المؤمنين- وقد أطلق عليها اسم «ميمونة بنت الحارث» بدلًا من «برة» تيمنًا بتلك المناسبة السعيدة علىٰ المسلمين بأن مكّنهم الله من دخول مكة معتمرين حاجين مصداقًا لقوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[(١)]، ولقد عاشت ميمونة بنت الحارث في بيت الرسول مثل باقي زوجاته تقيّة طاهرة عطوفة علىٰ الفقراء، وفيها قالت السيدة عائشة أم المؤمنين ﵂: «أما إنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم»[(٢)].

ولقد عُمرت السيدة ميمونة بعد الرسول خمسين عامًا وتوفيت في الثمانين من عمرها في سنة ٦١ هجرة، ودُفنت حسب وصيتها في مكان يبعد عشرة أميال عن المدينة يقال له «سرف» وهو المكان الذي بنىٰ بها رسول الله فيه، ويجدر بنا في نهاية الحديث عن زوجات الرسول أمهات المؤمنين أن نعلق في اختصار علىٰ تعدد الزوجات للرسول، وقد توفي عليه الصلاة والسلام وترك تسعة من زوجاته كلهن معلمات ومفتيات للمسلمين ونسائهم

(١) سورة الفتح ٢٧.
(٢) الإصابة، ج٤، ص٤١٣.

في الفقه والحديث والأحكام الخاصة بالنساء والآداب الزوجية، وهن حسب ترتيب زواجهن:

١- سودة بنت زمعة.
٢- عائشة بنت أبي بكر.
٣- حفصة بنت عمر بن الخطاب.
٤- هند أم سلمة.
٥- زينب بنت جحش.
٦- رملة بنت أبي سفيان «أم حبيبة».
٧- صفية بنت حيي بن أخطب.
٨- مارية القبطية.
٩- ميمونة بنت الحارث.

ولقد بيَّنا من قبل أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد قضىٰ خمسة وعشرين عامًا هي زهرة شبابه مع زوجة واحدة هي السيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين، وزوجته الأولىٰ، وماتت وهو في الخمسين من عمره، ولم تتعدد زوجات الرسول بصفة فعلية إلا في فترة الحرب والغزوات وهي بين الخامسة والخمسين والستين من عمره الشريف أي في خلال خمس سنوات فقط حيث استشهد كثير من الصحابة والمسلمين، ورأىٰ الرسول أن يكفل بعضهن لينفق عليهن وعلىٰ أولادهن، وكان أهل بعضهن من المشركين، واقتضت المصلحة عدم ترك الأرملة لتفتن في دينها، وكان زواجه أحيانًا لتوثيق الصلة مع أصحابه والقبائل وفي ذلك حكمة سياسية اعتنق الإسلام بسببها كثير من اليهود والمشركين.

وهذا ما ينفي أن زواجه عليه الصلاة والسلام لافتتانه بجمال تلك النسوة فحاشا لله أن يكون الرسول علىٰ هذه الصفة ويصفه رب العزة بقوله:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] وقد كان لكل زوجة منهن ظرفًا خاصًا حتميًا لذلك الزواج اساسه العطف والتكريم والإيواء والسياسة، وكانت هذه الفترة من حياة الرسول حتىٰ الستين من عمره مشغولًا بالحروب والغزوات والقتال، ولم يكن لديه الوقت للمتع واللذات حيث كان يقود الجيوش بنفسه ويضع الخطط الحربية لذلك ويشرف علىٰ ميادين القتال.

ولم يهنأ الرسول براحة ليلًا أو نهارًا فكانت مهام الدعوة والمسلمين تشغله طوال النهار، وفي الليل يقوم متعبدًا متهجدًا لله حيث يقول الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا... إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾[2].

فهل بعد هذا العرض عن حياة الرسول في ليله ونهاره يكون عنده الوقت للإسراف في المتع كما يحلو لبعض المستشرقين أن يلصق بتعدد الزوجات تهمة النوازع الجنسية الكثيرة، لقد كان الرسول بشرًا حقًا في بيته وعلاقته بزوجاته كسائر الناس ولكنه فوق ذلك كان إنسانًا ويشعر بمسئولية الأب لجميع المسلمين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[3].

وقد بقي الرسول ما بين الستين من عمره حتىٰ الثالثة والستين إلىٰ وفاته عليه الصلاة والسلام لم يتزوج أبدًا، أي أنه بعد فتح مكة ودخول الناس في دين الإسلام أفواجًا استراح النبي وأخذت الدعوة تنتشر كنور الشمس

---

(١) سورة القلم ٤.

(٢) سورة المزمل ١-٤، ٢٠.

(٣) سورة الأنبياء ١٠٧.

في الجزيرة العربية، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، ورحمة الله وبركاته علىٰ أمهات المؤمنين اللاتي جاهدن مع الرسول وتحملن عيشة الفقر والكفاف رغبة في جند الخلد ونعيم الفردوس، فأكرم بهن مثلًا أعلىٰ للمرأة المؤمنة المسلمة.

❋ ❋ ❋

بنات النبي ﷺ

لقد أنجبت السيدة خديجة بن خويلد أم المؤمنين رضوان الله عليها من سيدنا محمد ﷺ قبل مبعثه ولدين هما: «القاسم وعبد الله» وماتا في الطفولة، ثم اربع بنات هن «زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة الزهراء» وكانت هذه البنات الأربع قُرة عين الوالدين، وكبرت هذه البنات وتزوجن في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وكانت السيدة خديجة في الأربعين من عمرها عندما تزوجها محمد ابن عبد الله- كما ذكرنا سابقًا- وولدت له البنين والبنات في خلال السنوات العشر الأولىٰ من الزواج؛ أي أنها كفت عن الولادة بعد الخمسين من عمرها، وكان زوجها محمد بن عبد الله في الخامسة والثلاثين من عمره الشريف عندما وُلدت صغرىٰ بناته السيدة فاطمة الزهراء.

١- السيدة «زينب» بنت الرسول

وتزوجت زينب من ابن خالتها «أبي العاص بن الربيع» وكانت في العاشرة من عمرها، ولكنها كانت نامية الجسم وزُفت إلىٰ زوجها في أبهىٰ حفل وأفخم وليمة عرفتها مكة، فقد صرفت السيدة خديجة بسخاء من مالها الوفير علىٰ هذا الزواج، وكان ذلك قبل نزول الرسالة علىٰ النبي بسنوات، وكان «أبو العاص بن الربيع» يعمل في التجارة ويعتبر من أغنياء مكة المعدودين، وعاش الزوجان في سعادة وهناء وحب وصفاء، ولم يكن يضايق العروس إلا غياب زوجها بين آن وآخر في رحلاته التجارية، وكانت عندئذٍ تتردد كثيرًا علىٰ بيت أبيها تسعد بالإقامة بين والديها وأخواتها.

ولما نزلت الرسالة علىٰ النبي ﷺ وهو في الأربعين من عمره أسلمت زينب مع أمها خديجة وكذلك باقي أخواتها وعلي بن أبي طالب وزيد بن الحارثة، أي أنه كان بيت النبي أول بيت في الإسلام شهد بأن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. ثم أشرق نور الإسلام من هذا البيت الكريم علىٰ الصحابة بعد ذلك، ولكن زوج زينب «أبا العاص بن الربيع» لم يدخل في الإسلام وظل علىٰ دينه من الوثنية في عبادة الأصنام لأنه خشي أن يقال ترك دين آبائه وأجداده واعتنق الإسلام من أجل امرأته. وظل علىٰ فكره سنوات طوال ومعه زينب علىٰ دين الإسلام لأنه لم يكن قد نزل من السماء ما يحرّم ذلك بعد، ولما هاجر المسلمون من مكة إلىٰ المدينة ظلت أيضًا زينب مع زوجها في مكة، في موقعة بدر الكبرىٰ كان «أبو العاص» من ضمن جيش المشركين من قريش وحارب المسلمين ولكن النصر كان حلف النبي والمسلمين ووقع «أبو العاصي أسيرًا بين يدي الرسول، وأخذت قريش تفتدي أسراها وبعثت زينب تفتدي زوجها بقلادة ذهبية كانت أمها خديجة قد أهدتها إليها يوم زفافها ولما قدمت القلادة للنبي عليه الصلاة والسلام أطرق قليلًا حيث أعادت إليه ذكرىٰ عزيزة عليه ثم رفع رأسه وقال لأصحابه: «إن رأيتم أن تطلقوا لزينب أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا»[1].

فأجابوا جميعًا «نعم يا رسول الله»وعندئذٍ أخبر الرسول أبا العاص أن الإسلام يفرِّق بينه وبين زوجته فلا تحل له لأنها مسلمة وهو رجل مشرك وطلب منه أن يرسلها إليه، ولما وصل أبو العاص إلىٰ مكة أخبر زوجته زينب

(١) الإصابة، ج٤، ص١٢٢.

بما قاله أبوها وأمرها أن تتجهز للرحيل إلىٰ المدينة نزولًا علىٰ إرادة والدها واحترامًا لتعليمات دينها ووفاءً لوعده مع صهره، فبكت زينب وبكىٰ معها أبو العاص لهذا الفراق العاجل الذي قطع حبل الحياة الزوجية السعيدة بينهما منذ خمسة عشر عامًا مرّت عليهما في أهنأ عيشة وأرغد حياة وكانت في ذلك الوقت حاملًا في الشهر الرابع، وتهيأت زينب للرحيل وركبت في هودج علىٰ بعير وودعها زوجها وداعًا حارًا كانت لغة الكلام فيه هي الدموع، وانطلق بها أخو زوجها «كنانة بن الربيع» يقود بعيرها ليوصلها إلىٰ «زيد بن حارثة» مولىٰ الرسول علىٰ بُعد ثمانية أميال خارج مكة ليصحبها إلىٰ المدينة.

ولما رأت قريش أن زينب بنت محمد تخرج هكذا في وضح النهار من مكة ساءهم ذلك واعتبروه تحديًا لهم وقريش ما زالت تنعي قتلاها في موقعة بدر، فخرج علىٰ أثرها بعض الرجال من قريش ولحقوا بها خارج مكة وكان أسبقهم إليها رجل شرير يقال له «جبار بن الأسود» فقد نخس بعيرها فألقىٰ بزينب علىٰ صخرة فأذاها ما حدث وأخذت تنزف دمًا، عندئذٍ طار صواب «كنانة بن الربيع» وأقسم ليرديهم قتلىٰ، وبرك كنانة علىٰ ركبته وسدد سهمه نحو القوم وقال لهم بصوت عالٍ قوي: والله لا يدنو مني رجل إلا ووضعت فيه سهمًا. فتراجع القوم في خوف من هذا الفتىٰ الثائر، ووقف أبو سفيان بعيدًا وقال لكنانة: «كف عنا بتلك حتىٰ نكلمك» فكف كنانة وتقدم أبو سفيان وقال له: «ارجع بالمرأة إلىٰ مكة ثم انطلق بها في جنح الليل ثم اخرج بها سرًّا وألحقها بأبيها لأن خروجها هكذا في النهار وعلىٰ رؤوس الأشهاد فيه استهانة لكرامة قريش واستهتار بها».

عندئذٍ التفت كنانة إلىٰ زينب فوجدها تتوجع ثم طرحت جنينها فلم يجد كنانة بُدًا من العودة بها إلىٰ مكة لتستريح قليلًا في بيت زوجها، وبعد بضعة أيام حيث تماثلت للشفاء مما ألَمَّ بها من تعب خرج بها ثانية «كنانة بن الربيع يقود بعيرها ولم يتبعه أحد من قريش حتىٰ أوصلها إلىٰ رسل النبي، فأخذوها حتىٰ وصلت بسلام الله إلىٰ المدينة حيث فرح بمقدمها النبي والمسلمون جميعًا. وكان ذلك في السنة الثانية للهجرة وبقيت زينب في بيت أبيها ومعها طفلاها الصغيران «علي وأمامة» وظلت زينب تنتظر عودة زوجها مسلمًا عدة سنوات لأنها كانت تعلم رقة قلبه وحبه وتعظيمه لوالدها، وما كان يمنعه من اعتناق الإسلام إلا مكابرة خشية معايرته بأنه أسلم من أجل زوجته بنت محمد.

ومضت سنوات علىٰ زينب منذ هاجرت من مكة إلىٰ المدينة قضتها مشتاقة لرؤية زوجها السابق ووالد أبنائها.

وفي السنة السادسة للهجرة في إحدىٰ ليالي شهر جمادىٰ الأولىٰ فوجئت به قبيل الفجر يطرق بابها مستأذنًا في دخول فأذنت له، وكان اللقاء بينهما عاطفيًا مؤثرًا ورحبت به أجمل ترحيب واستبشرت بمقدمه خيرًا وسألته عما جاء به في تلك الساعة المتأخرة من الليل، فأجابها متعذرًا ليستجير بها من بعض المسلمين الذين انقضوا علىٰ قافلة تجارية وهو عائد بها من بلاد الشام فاستولوا علىٰ ما معه وهرب هو متخفيًا في جنح الظلام ليستجير بها، وفي هذه الآونة كان المسلمون يؤدون صلاة الفجر ويؤمّهم النبي ﷺ فوقفت زينب بباب المسجد وأعلنت للمسلمين ما عزمت عليه «أيها الناس إني أُجير أبا العاص بن الربيع».

ولما تمَّ الرسول الصلاة قال: «أيها الناس هل سمعتم ما سمعتم» قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتىٰ سمعت ما سمعتم وقد أجرنا من أجارت»[1] عندئذٍ قال الرسول للمسلمين الذين أصابوا تجارة أبي العاص: «إن هذا الرجل منا حيث علمتم وقد أصبتم له مالاً فإن تحسنوا وتردوا إليه الذي له فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به» فأجابوا بصوت واحد: «يا رسول الله بل نرده غليه» وأسرع المسلمون يردون علىٰ أبي العاص بن الربيع كل ما أخذوه من تجاره ولم يفقد شيئًا، وغادر أبو العاص المدينة في حمىٰ المسلمين حتىٰ وصل إلىٰ مكة فاستقبلته قريش بفرح ودهشة بنجاة تجارته من يد المسلمين ولكنه لم يذكر شيئًا، بل أخذ يوزع تجارته علىٰ ذويها حتىٰ أعطىٰ كل ذي ماله ثم وقف بجوار الكعبة حيث جمع قومه وقال: «يا معشر قريش هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه، فأجابوه لا وجزاك الله خيرًا فقد وجدناك وفيًا كريمًا، فصاح بأعلىٰ صوته فأنا اشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام إلا تخوفي من ظنكم أني إنما أردت أن آكل أموالكم فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت»[2].

فوجم القوم لهذا النبأ، وأما أبو العاص فانطلق إلىٰ المدينة ليعلن إسلامه بين يدي الرسول، وفي السنة السابعة للهجرة وفي شهر محرم وصل (أبو العاص بن الربيع) إلىٰ المدينة وأسلم بين يدي الرسول ﷺ وفرح به المسلمون وهنأوه بعودته إليهم مسلمًا من تلقاء نفسه، ثم قام النبي عليه

(١) الإصابة، ج٤، ص١٢١-١٢٢.
(٢) الإصابة، ج٤، ص١٢١-١٢٢.

الصلاة والسلام واصطحبه إلىٰ بيته ودعا إليه ابنته زينب وردها عليه، وعاد الزوجان الحبيبان ينعمان بحياة اسعد وأجمل في ظل الإيمان والإسلام والنور الذي يعيش فيه أهل البيت.

ومضىٰ عام واحد علىٰ هذا اللقاء الزوجي السعيد ولكن الأجل المحتوم لزينب قد انتهىٰ في السنة الثامنة للهجرة عن أربعة وثلاثين عامًا تقريبًا وفاضت روحها الشريفة وحزن عليها أبوها الرسول أشد الحزن، ودُفنت رحمة الله عليها في البقيع بالمدينة.

وتركت وراءها «علي» صبيًا، وكذلك ابنتها «أمامة» وظل زوجها «أبو العاص» حزينًا علىٰ وفاة زوجته ولم يتزوج بعدها حتىٰ توفي إلىٰ رحمة الله في السنة الثانية عشرة للهجرة في خلافة أبي بكر الصديق، وأما ابنه «علي» فقد توفي شابًا، وأما ابنته «أمامة» فكبرت وتزوجت من سيدنا علي بن أبي طالب بعد وفاة خالتها السيدة فاطمة الزهراء، ولم تنجب «أمامة» من سيدنا علي حتىٰ ماتت بدون عقب، وهكذا فإن السيدة زينب بنت النبي قد انقطع نسلها بموت ابنها «علي» وهو شاب لم يتزوج بعد، وكذلك بموت ابنتها «أمامة» عاقرًا.

ولقد كانت السيدة زينب بت رسول الله عليه الصلاة والسلام مثلًا للزوجة الوفية المطيعة لزوجها ولو كان علىٰ غير دينها، ولما نزلت آياتالقرآن تفرّق بين الزوجة المسلمة عن زوجها المشرك انفصلت السيدة زينب عن زوجها وابن خالتها عن إيمان صادق رغم ما كان بينهما من حب وعشرة طيبة. ولكن لم يمنعها انفصالها عنه أن تجيره في وقت شدته عندما استجار بها كرمًا منها ونبلًا شأن العرب الأفاضل في نجدة المستغيث وحماية المستجير.

٢- السيدة «رقية» بنت الرسول

بعد زواج «زينب» بقليل وقبيل نزول الرسالة علىٰ محمد بن عبد الله خُطبت رقية وأختها أم كلثوم لابني عم النبي (عتبة وعتيبة) ولدي عبد العزىٰ ابن عبد المطلب «أبي لهب» حيث كان زواج الفتيات الصغيرات في سن العاشرة فما فوق جائزًا ومباحًا.

وقد تمت الخطوبة بحضور «أبي طالب بن عبد المطلب وأخيه عبد العزىٰ» وباقي أعمام سيدنا محمد بن عبد الله وأبنائهم مؤثرين أن تتزوج بنات محمد من أقرب شبان قريش لهم وهم أحفاد عبد المطلب ومما قاله أبو طالب في هذا المقام لسيدنا محمد «إنك يا ابن الأخ قد زوجت زينب لأبي العاص بن الربيع وإنه لنعم الصهر، غير أن بني عمك يرون لهم عليك مثل ما لابن بنت خديجة وليسوا دونها شرفًا ونسبًا، فأجاب محمد: صدقت يا عم. ثم قال أبو طالب: فقد جئناك نطلب ابنتيك «رقية وأم كلثوم» لـ«عتبة وعتيبة» ابني عمك أبي لهب وما أراك تضن بهما عليهما.

ووافق سيدنا محمد علىٰ هذه الخطوبة بعد استشارة ابنتيه وزوجته وأُذيع في قريش ذلك النبأ وتم الزواج سريعًا ولكن ليس في بهجة عرس زينب لأن السيدة خديجة قبلت علىٰ مضض أن تعيش بنتاها مع امرأة أبي لهب «أم جميل بنت حرب» لأنها كانت امرأة حمقاء سليطة اللسان شرسة الأخلاق حادة الطبع، ولكن السيدة خديجة آثرت أن يتم الزواج خشية حدوث شقاق بين زوجها وأعمامه.

ولكن حدث ما كانت تتوقعه خديجة فبعد أن دخلت رقية وأم كلثوم بيت أبي لهب كانت أم جميل تعاملهما بقسوة وشدة ليس لها مثيل، وكانت أم جميل بطبيعتها تكره السيدة خديجة وتغار منها وتحسدها علىٰ غناها وجمالها ومركزها المحترم بين نساء قريش.

ولما نزلت الرسالة علىٰ سيدنا محمد وأخذ يدعو قومه للإسلام كان أول أعدائه ومعارضيه عمه عبد العزىٰ الذي كان يُدعىٰ أبو لهب، ومن التوافق أن يكون اسمه عبد العزىٰ أي عبد الصنم الذي كانت تعبده قريش، وقد ظل كافرًا يعبده طول حياته حتىٰ مات في ظلمات الكفر والجهالة رغم أن شمس الإيمان والإسلام قد بزغت من ابن أخيه محمد أقرب الناس إليه ولكن لله في خلقه شئون، وظل «أبو لهب» وامرأته «أم جميل» يعارضان النبي عليه الصلاة والسلام ويهزآن بدعوته ويسخران من دينه دون باقي أعمامه مثل أبي طالب والعباس والحارث الذين ظلوا علىٰ دين آبائهم لكنهم كانوا حُماة للرسول ولم يلحقوا به أي أذىٰ، ولما أنزل الله تعالىٰ قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1] خرج رسول الله ﷺ حتىٰ أتىٰ جبل الصفا فصعد عليه ونادىٰ قومه ليسمعوا له، فلما اجتمعوا إليه قال: أرأيتم لو أخبرتكم خيلًا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. قال: فإني لكم بين يدي عذاب شديد. فانبرىٰ له أبو لهب قائلاً: تبًا لك ألهذا جمعتنا؟[2].

(١) سورة الشعراء ٢١٤.

(٢) البخاري، ج٦، ص١٤٠، طبعة الشعب.

فأنزل الله في حق أبي لهب وزوجته سورة كاملة وهي: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾[(١)].

ولما علمت «أم جميل» بهذا القول طاش صوابها وفقدت عقلها وأقسمت علىٰ بنيها أن يطلقا بنتي محمد، وفعلًا طلقاهما وطردتهما من منزلها بكل إهانة وقسوة.

ورجعت رقية وأم كلثوم إلىٰ منزل أبيهما وهما في أعز شبابهما يسعدان بالنعيم والهناء حول أمهما خديجة، ولم تمضِ شهور قلائل حتىٰ خُطبت رقية لسيدنا عثمان بن عفان بن أمية، وجدته لأمه هي البيضا أم حكيم بنت عبد المطلب عمة الرسول أي أنه قريب الصلة بالرسول، أي أن أمه هي بنت عمة الرسول مباشرةً، وكان زواجًا موفقًا وسعيدًا فقد كان عثمان من أثرياء مكة ومن شبابها الموقر خلقًا وخُلُقًا وأُطلق علىٰ عثمان ورقية أجمل عروسين حسنًا وسناءً، ولما اشتد أذىٰ قريش للمسلمين صرَّح الرسول لبعض المسلمين بالهجرة إلىٰ الحبشة بقوله: «لو خرجتم إلىٰ أرض الحبشة فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتىٰ يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه»[(٢)].

وكان في مقدمة المهاجرين إلىٰ الحبشة عثمان وزوجته رقية، وكان عددهم أربعة عشر مسلمًا، منهم عشر رجال وأربع نسوة، ثم توالت بعد ذلك

(١) سورة المسد ١-٥.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير، ج٣، ص٦٦، بيروت.

الهجرة إلىٰ الحبشة حتىٰ أصبح عددهم ثلاثة وثمانين مسلمًا ومسلمة. وعاشوا هناك في أمن وسلام لا قيد علىٰ دين ولا حظر لعبادة معينة وظل المسلمون في الحبشة سنوات كثيرة وهناك طرحت رقية جنينها الأول- أي أجهضت- بسبب متاعب السفر وأصابها هناك ضعف وإعياء، ثم وصل نبأ للمسلمين في مهجرهم بالحبشة بأن أكثر قريش قد دخلت الإسلام وأنهم قد فكوا الحصار الذي ضربوه علىٰ المسلمين من الحبشة وكان عددهم ٣٣ نفرًا وفي مقدمتهم أيضًا عثمان بن عفان وزوجته رقية.

وكان رجوع رقية إلىٰ مكة عقب وفاة أمها السيدة خديجة وبكت عليها بكاءً شديدًا لأنها كانت تود أن ترىٰ أمها قبل وفاتها.

وبعد مضي سنتين تقريبًا من عودتها إلىٰ مكة هاجرت مرة ثانية إلىٰ المدينة مع زوجها عندما أمر الرسول بهجرة المسلمين من مكة إلىٰ المدينة.

وهناك في السنة الأولىٰ من الهجرة وضعت رقية طفلها الوحيد «عبد الله بن عثمان» فملأ قلبيهما فرحًا وبهجة، ولكن هذه الفرحة لم تدم طويلًا لأن الوليد لم يلبث أن مات طفلًا صغيرًا فحزنت عليه «رقية» حزنًا لا يوصف وأخذت تبكي عليه ليلًا ونهارًا حتىٰ ذبل جسمها النحيف وسقطت مريضة سقيمة لم يفد فيها طب ولا دواء وظل زوجها عثمان بجوارها يحاول تخفيف المرض بكل وسائل التمريض ولكن بدون جدوىٰ، وكان الرسول في ذلك الحين يحارب قريش في موقعة «بدر الكبرىٰ» التي انتصر فيها المسلمون انتصرًا باهرًا، وعند عودة المسلمين فرحين بانتصارهم الأول روّعوا بنبأ موت رقية في المدينة واختلطت عوامل الحزن والفرح، وشيعت المدينة جثمان

رقية ذات الهجرتين إلىٰ مقرها الأخير في مقابر البقيع وهي لم تبلغ بعد الثامنة والعشرين من عمرها.

❁ ❁ ❁

٣- «أم كلثوم» بنت الرسول

سبق أن ذكرنا أن «أم كلثوم» كانت قد تزوجت «عتيبة بن أبي لهب» ثم طُلقت منه في أوائل الدعوة الإسلامية حقدًا وحسدًا من أبي لهب وزوجته «أم جميل بنت حرب» علىٰ الرسول وزوجته خديجة.

وظلت أم كلثوم في بيت أبيها وخاصةً بعد زواج رقية من عثمان بن عفان تساعد والدتها في أمور بيتها؛ لأن السيدة خديجة كانت قد تقدمت بها السن وجاوزت الستين من عمرها، وهكذا كانت أم كلثوم في الواقع تقوم بكل شئون المنزل فكان وجودها في البيت عاملًا هامًا لراحة أبيها وخدمة أمها. وظلت هكذا حتىٰ بعد وفاة السيدة خديجة وهجرة الرسول إلىٰ المدينة وبقيت مع أبيها حتىٰ ماتت أختها رقية، وبعدها بشهور قلائل أي في أول العام الثالث للهجرة خطبها عثمان بن عفان ووافق الرسول عليه الصلاة والسلام علىٰ زواجها من عثمان بن عفان ولذلك أطلق عليه «عثمان ذو النورين» لأنه الوحيد الذي انفرد بشرف الزواج من بنتي رسول الله.

وعاشت أم كلثوم مع زوجها عثمان بن عفان كأسعد زوجين حيث كانت السنوات الست التي قضتها مع زوجها في ذلك الوقت هي سنوات الجهاد للإسلام والفتوحات والانتصارات العظيمة للمسلمين، وشاهدت أم كلثوم فتح مكة ورأت بعينيها تهدم اللات والعزىٰ وبقية الأصنام الأخرىٰ، وطافت مع المسلمين يوم الفتح مهللين مكبرين بفرحة النصر وعزة الإسلام، وفي العام التالي لهذا الفتح أي في شهر شعبان سنة تسع هجرية ماتت

«أم كلثوم» عقيمًا في المدينة ودُفنت بجوار أختها في البقيع، وهي لم تتجاوز بعد الرابعة والثلاثين من عمرها.

❁ ❁ ❁

٤- «فاطمة الزهراء» بنت الرسول

وُلدت «فاطمة الزهراء» صغرىٰ بنات النبي في عام إعادة بناء الكعبة وكان أبوها محمد بن عبد الله قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره الشريف، وكانت فاطمة أكثر بنات الرسول شبهًا بأبيها ﷺ وأحبهن إليه، وكانت أصغر طفلة أسلمت في الدنيا إذ كان عمرها خمس سنوات عند بعثة النبي ﷺ.

وظلت فاطمة في بيت أبيها تشاهد الأحداث وترقب الحوادث التي لاقاها المسلمون منذ البداية حتىٰ الهجرة إلىٰ المدينة، وعاشت مع أبيها أيضًا في المدينة وهي شابة مكتملة الصحة والأنوثة. ولقد زوَّجها الرسول من ابن عمه «علي بن أبي طالب» ربيبه وأحب الناس إليه وكان ذلك في السنة الأولىٰ للهجرة. وكانت فاطمة وقتئذ في الثامنة عشر من عمرها.

واحتفل المسلمون من المهاجرين والأنصار بهذا الزواج السعيد أجمل احتفال ونُحرت فيه كثير من الذبائح وأُطعم فيه أهل المدينة جميعًا.

وكان بحق زواجًا سعيدًا موفقًا نَعِم فيه الزوجان بالبنين والبنات وهم «الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم الصغرىٰ» وهو البيت الوحيد الذي كان فيه عقب رسول الله، ومنه تفرعت الشجرة الشريفة المباركة منذ رسول الله إلىٰ يوم تقوم الساعة هم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

(١) سورة الأحزاب ٣٣.

ولقد كان سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه مع شجاعته وفروسيته وقرابته من رسول الله فقيرًا جدًا حتىٰ أن زوجته فاطمة كانت تشكو لأبيها من شظف العيش وعدم وجود خادمة معها تعينها علىٰ الأعمال المنزلية، وكان لهذا أثره في اعتلال صحتها وإرهاقها جسمانيًا، وتدفق حب النبي عليه الصلاة والسلام علىٰ فاطمة وأولادها، وما أشد مظاهر العواطف في الكهولة للأحفاد وخاصةً إذا كان الإنسان قد حُرم الولد.. لهذا كان حب النبي عليه الصلاة والسلام للحسن والحسين ولدي فاطمة يعجز أي قلم عن التعبير عنه لأنها معنويات نفسية وقلبية تشبه المحيط لا تستطيع أن تصل إلىٰ غوره مهما كان قديرًا.

وفي السنة الثامن للهجرة عندما خرج الرسول في عشرة آلاف مسلم لفتح مكة كانت فاطمة فيمن خرج من النساء مع جيش المسلمين وشاهدت الفتح الأكبر والنصر الأعظم بمكة، ورأت جيوش المسلمين تجوب أنحاء مكة مرفوعة الرأس لا يجرؤ مشرك أن يتصدىٰ لها، فسجدت شكرًا لله بعد أن طافت بالكعبة سبعًا لأن الله حقق لأبيها نصرًا مبينًا ما كانت تحلم به أن يتم بهذه الصورة وهي التي شاهدت ما تعرض له أبوها من قبل الهجرة من اضطهاد وسخرية، وما لاقاه المسلمون من عذاب وتنكيل.

وفي هذه الفترة التي قضاها المسلمون في الحج اتصل المسلمون بأقاربهم من أهالي مكة، وحدث أن سيدنا «علي بن أبي طالب» رأىٰ بنت أبي جهل وهو أبو الحكم بن هشام عدو المسلمين الأول الذي كان يحرض المسلمين علىٰ القتال يوم «بدر» حتىٰ قُتل هو في الموقعة وذهب إلىٰ جهنم ملعونًا مدحورًا، وتخلص المسلمون من أشد الأعداء كراهية للنبي وأعظمهم

خطرًا علىٰ الملمين، ورغب سيدنا علي بن أبي طالب في الزواج من بنت «أبي جهل» فسمعت بذلك السيدة فاطمة الزهراء فغضبت وثارت ونسيت ما أباحه الإسلام من تعدد الزوجات وذهبت شاكية زوجها لأبيها بأنه سيتزوج عليها من بنت أبي جهل ويؤذيها بضرة، فأشفق رسول الله علىٰ فلذة كبده وخفف عنها لوعتها وحزنها وأخذ يسري عنها همها وجزعها حتىٰ هدأت نفسيتها الثائرة وكفكفت دموعها المنهمرة حيث ألهم الرسول عليه الصلاة والسلام المخرج الوحيد لهذه المناسبة وهو «أتكون بنت أبي جهل عدو الله ورسوله ضرة لفاطمة بنت محمد» وانطلق الرسول عليه الصلاة والسلام إلىٰ المسجد مغضبًا حتىٰ صعد إلىٰ المنبر وبانت عليه سمات الغضب فتعلقت به العيون وصغت إليه الآذان وهو يقول: «أيها الناس إن فاطمة بضعة غالية مني وقد علمت أن آل الحكم بن هشام آل أبي جهل يريدون أن يزوجوا ابنتهم علي بن أبي طالب فلا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، ثم لا آذن، اللهم إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلب ابنتي وينكح ابنتهم، وإني لست أحرم حلالًا ولا أحلل حرامًا ولكن الله لا يجمع بين بنت رسول الله وبنت عدو الله في بيت واحد أبدًا»(١) وانصرف سيدنا علي بن أبي طالب مهمومًا مما سمعه من النبي وذهب إلىٰ منزله مسرعًا حيث وجد زوجته الحبيبة فاطمة تبكي وتذرف الدمع سخينًا وهي علىٰ ما هي عليه من ضعف وهزال فطيَّب خاطرها وأقسم لها أنه لن يؤذيها بضرة أبدًا وأخذ يستعطفها معتذرًا حتىٰ عفت عنه أخيرًا بقولها «غفر الله لك يا ابن العم».

(١) البخاري، كتاب الفضائل، ص١٦. مسلم، كتاب الفضائل، باب ١٥.

وعادت السعادة ترفرف مرة أخرىٰ علىٰ بيت فاطمة الزهراء، وظلت فاطمة الزهراء وأولادها موضع حب الرسول وعطفه ودعائه لهم بالخير والبركات، وعندما مرض الرسول عليه الصلاة والسلام في مرضه الأخير كانت فاطمة تلازم أباها حتىٰ فاضت روحه الشريفة إلىٰ بارئها ذكية طاهرة، وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام بستة أشهر ماتت فاطمة الزهراء وهي في الثامنة والعشرين من عمرها في السنة الحادية عشرة للهجرة ودُفنت بالبقيع بجوار أخواتها، وهي الوحيدة من بنات الرسول التي أنجبت البنين والبنات وكان من نسلها الطيب هذه الدوحة المباركة من الأشراف وهي قبس من نور النبوة تضيء علىٰ مرّ الزمان وفي مختلف الأماكن لتهدي وترشد وتنير الطريق أمام البشرية جمعاء، والسلام علىٰ من اتبع الأثر المحمدي فلا يضل ولا يشقىٰ، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله السر الساري في سائر الأسماء وعلىٰ آله من بيت فاطمة الزهراء، وعلىٰ آله وأصحابه وأتباعه إلىٰ يوم الدين، أولئك الذين كرمهم الله بقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾[1].

❁ ❁ ❁

(١) سورة الأحزاب ٣٣.

هند بنت أبي ربيعة

زوجة أبي سفيان

كانت أكثر نساء المشركين عداوة للإسلام مثل زوجها زعيم قريش «أبي سفيان بن حرب» الذي ظل علىٰ عناده للرسول وعداوته الشديدة منذ أول الدعوة حتىٰ فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، أي أكثر من عشرين عامًا وهو ألد أعداء الرسول.

وفي موقعة «بدر الكبرىٰ» في السنة الثانية للهجرة قُتل أبوها وعمها وهم «عتبة بن أبي ربيعة» وأخيه «شيبة» و«الوليد بن عتبة» علىٰ يد بطل الإسلام «حمزة» عم الرسول، ولذلك حزنت هند علىٰ موتاها وأخذت تحرض سادة قريش للانتقام من المسلمين في معركة عاجلة، ودبرت هي مع عبد لها يُدعىٰ «وحشي» طريقة لقتل «حمزة» ووعدته إن نفذ ذلك تعتقه وتجزل له العطاء وكان ذلك العبد وحشيًا فارع الطول قوي الجسم.

وفي موقعة أُحُد في السنة الثالثة للهجرة أخذ «وحشي» يتربص لبطل الإسلام حمزة وطعنه علىٰ حين غرة بحربة مسمومة فخرّ حمزة صريعًا شهيدًا، ولما انتهت المعركة عن استشهاد كثير من المسلمين أخذت «هند» تبحث في جثث المسلمين حتىٰ وجدت جثة حمزة وبقرت بطنه وأخذت تلوك كبده وقلبه ومثلت بجسمه أبشع تمثيل.

وحزن الرسول أشد الحزن علىٰ استشهاد عمه أسد الله وساءه تمثيل هند بجثته وجثث باقي الشهداء فأهدر دمها.

وعند فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة جاءت «هند» مع النساء لتبايع الرسول علىٰ الإسلام، وكانت طريقة بيعة النساء أن يؤتىٰ بإناء فيه ماء فيغمس الرسول عليه الصلاة والسلام يده فيه ثم تغمس المرأة «المبايعة» يدها إثر ذلك لأن النبي عليه الصلاة والسلام لن يمس امرأة إلا كانت زوجًا له أو ذات محرم، وبايع النبي النساء اللاتي أسلمن يومئذ «علىٰ أن لا يشركن بالله شيئًا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن ولا يعصين الرسول في معروف»، وجاءت هند متخفية لتبايع الرسول فعرفها فطلبت الأمان منه فأمنها، فلما سمعت هند من الرسول هذه المبايعة وكانت امرأة جريئة فصيحة قالت معلقة: وهل تسرق الحرّة؟ وهل تزني الحرّة يا رسول الله؟

وبالنسبة لقتل الأولاد فقد ربيناهم صغارًا حتىٰ قتلتهم أنت وأصحابك ببدر كبارًا وما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك في معروف.

فتبسم الرسول لقولها والتفت إلىٰ سيدنا عمر بن الخطاب وكلّفه لأخذ مبايعة النساء بالمصافحة يدًا بيد بعد ذلك، كما استغفر الرسول لأولئك النسوة.

وهند في موقفها هذا تعطينا صورة للمرأة العربية الشريفة من الإباء والعظمة والجرأة والشجاعة وكريم الشمائل والعفة والطهارة وقوة البيان وفصاحة القول وإبداء الرأي بلا خوف أو وجل وفي أشد المواقف وأحرجها. كما تعطي صورة للانتقام الوحشي وتدبير الجرائم والفتن للثأر بإحكام في النساء، ويعتبر هذا تقييم سليم لخُلُق المرأة العربية الحرة في ذلك الوقت

ونموذج لأرفع الفضائل والأخلاق التي يجب أن تتحلىٰ بها المرأة في الحياة. كما يكشف عن الجانب الشرير في المرأة.

❁ ❁ ❁

بركة «أم أيمن»

كانت «بركة» جارية اشتراها «عبد الله بن عبد المطلب» لتخدم زوجته «آمنة بنت وهب»، ولما وُلد «محمد» كانت حاضنته بحكم وضعها في المنزل وظلت تحتضنه، و«ثويبة» ترضعه حتىٰ جاءت المرضعات من العرب القاطنة في الجبال ليأخذن الأطفال لرضاعتهم نظير أجر معين، وكان «محمد» من نصيب إحدىٰ المرضعات وتُدعىٰ «حليمة السعدية» ورحلت به إلىٰ خيامها في جبال الطائف وكانت تأتي به لتراه أمه بين الحين والحين، وبقيت «آمنة بنت وهب» وحيدة في منزلها لا يؤنسها أحد غير خادمتها «بركة» لأن زوجها الشاب «عبد الله» قد مات في يثرب عقب زواجها كما أسلفنا، إذ خرج للتجارة و«آمنة» حامل في شهورها الأولىٰ بأول وليد لها وهو «محمد»، ولما تم «محمد» سني الرضاعة والطفولة وعاد إلىٰ أمه بمكة بعد أربع سنوات كانت «بركة» تلازمه كالظل فلا تفارقه أبدًا ليلًا أو نهارًا وقع حبه في قلبها موقعًا جميلًا وهي الشابة التي لم تجاوز العشرين من عمرها وتقارب والدته «آمنة» في السن، ولهذا كانت «بركة» تقوم علىٰ خدمة سيدتها وابنها بإخلاص ومحبة صادقة، وتعلَّق محمد أيضًا بحبها وكان يأنس إليها ويرتاح لها.

ولما سافرت «آمنة بنت وهب» ومعها ابنها «محمد» وخادمتها «بركة» إلىٰ يثرب لزيارة قبر زوجها «عبد الله»، وفي العودة من يثرب نفذ قضاء الله في أم «النبي» وماتت «آمنة» في مكان يُعرف بالأبواء بالصحراء بين يدي خادمتها «بركة» وابنها الطفل «محمد» الذي كان في السادسة من عمره الشريف، وهذا موقف ليس من السهل أن تمر عليه دون نظر فأنىٰ لهذه الخادمة الشابة أن

تتحمل وحدها هذه الصدمة بأن تموت أمامها سيدتها في مكان قفر وابنها الطفل الصغير يصرخ ويبكي ويشق عويله عنان السماء، وإنه لموقف حقًا أكبر من أن تتحمله فتاة أو تتصرف فيه خادمة، ولكنها في الواقع لم تجد بُدًّا من أن تحفر للجثمان قبرًا بيدها في رمال الصحراء وتوسد جثمان سيدتها الطاهرة تلك الحفرة الصغيرة بملابسها التي كانت ترتديها في رحلتها، وكان هذا التصرف الوحيد في وقت هذه الكارثة المؤلمة، وبعد أن فرغت من دفن سيدتها بين البكاء والنحيب حملت الطفل «محمد» علىٰ راحلتها واستأنفت السير مع القافلة حتىٰ التحقوا بها من المدينة إلىٰ مكة، ولم تخر قواها أمام هذا الحدث الجلل بل استمدت من ضعفها قوة ومن حزنها صبرًا، واحتملت الموقف العسير لتحمي الطفل- منقذ البشرية- وتوصله سالمًا إلىٰ أهله بمكة، وتم هذا كله تحت رعاية الله وبصر الملائكة، ولما قدمت «بركة» إلىٰ «عبد المطلب» وأبنائه وقصّت عليهم ما حدث هالتهم الفجيعة، وأخذ الجد «عبد المطلب» يحنو علىٰ حفيده «محمد» ويخصّه بحبه أكثر من أبنائه وأحفاده، وأصبحت «بركة» بالنسبة إلىٰ «محمد» أمه الحاضنة ومربيته الحنون خادمته المخلصة، وأصبح هو كل شيء في حياتها، ولما مات جد النبي «عبد المطلب» وانتقل «محمد» وهو في الثامنة من عمره إلىٰ بيت عمه «أبي طالب» كانت معه أيضًا مربيته «بركة» تلازمه حتىٰ كبر «محمد» وأخذ يعمل في رعي الأغنام والسفر مع عمه أبي طالب في التجارة إلىٰ الشام.

ولما تزوج الرسول بالسيدة خديجة بنت خويلد انتقلت معها بركة إلىٰ منزلها وكانت موضع التقدير والمحبة دون سائر العبيد والإماء في منزل خديجة، وعندئذ تزوجت أيضًا بركة من «عبيد بن عوف» وقامت السيدة

خديجة بتجهيزها، وبعد عام من الزواج وُلد للنبي ابنه «القاسم»، وولدت «بركة» ابنها «أيمن» وهو الذي تُكنىٰ به دائمًا «أم أيمن» وشبّ أيمن محبًا لرسول الله وكان من المسلمين الأوائل، وجاهد في سبيل الله وخاض المواقع الحربية والغزوات مع الرسول مثل بقية الأبطال الأوائل واستشهد في موقعة حنين، كما أن «بركة» كانت من أوائل المسلمات وأعتقها النبي عليه الصلاة والسلام ثم انتقل عنها زوجها «عبيد بن عوف» ثم تزوجت بركة بعد ذلك من «زيد بن حارثة» فولدت له «أسامة»، وماتت «بركة أم أيمن» ودُفنت بالمدينة بعد أن كبرت وتجاوزت السبعين من عمرها، وأما ابنها «أسامة بن زيد بن حارثة» فقد كان موضع حب رسول الله لأنه ابن ربيبه «زيد» وقد أمَّره الرسول لقيادة جيش السلمين قبيل وفاة النبي عليه الصلاة والسلام لفتح الشام رغم صغر سنه الذي لم يبلغ العشرين عامًا.

وهذه الحوادث والمراكز تعطينا صورة مشرقة عن «بركة» الجارية الرقيقة التي كانت في خدمة الرسول منذ ولادته ولازمته طوال حياته، وأبلىٰ أبناؤها بلاءً حسنًا في سبيل الدعوة إلىٰ الإسلام، ألا رحمة الله علىٰ «أم أيمن» وبنيها الأبطال الذين استشهدوا في وسط المعارك لإعلاء كلمة الحق والدين فمأواهم جميعًا الجنة ونعم القرار.

❋ ❋ ❋

خولة بنت «ثعلبة»

هي زوجة «أوس بن الصامت» وهما من المسلمين الأوائل، ولأمر ما حدث خلاف بينهما فقال الزوج لامرأته «أنت علي كظهر أمي» أي أنها أصبحت محرمة عليه حُرمة الأم علىٰ الابن، وكانت هذه عادة سيئة عند العرب يُحرِّمون نسائهم عليهم بكلمة الظهار هذه وتصبح الزوجة حرامًا علىٰ زوجها لا محلل له أبدًا. وذهبت «خولة بنت ثعلبة» لرسول الله باكية حزينة تسأله مخرجًا لها من هذه الورطة التي أوقعتها فيها عادات الجاهلية، وخاصةً أن لها من بعلها أولاد صغار لا تستطيع لهم فراقًا. ولكن النبي عليه الصلاة والسلام لم يجبها لأنه لم ينزل في الظهار آيات بعد، فأخذت تُلح علىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يعتذر لأنه ليس لديه شيء خاص بحالتها، فاستمرت تبكي وتندب حظها، وعندئذٍ نزل الوحي علىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام توًّا بقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٣ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

(١) سورة المجادلة ١-٤.

هذه الآيات البيِّنات من القرآن نزلت علىٰ الرسول في ساعة العسرة لامرأة ضعيفة حزينة كانت المعول الهدام لعادة الظهار القبيحة التي ظلت قرونًا عديدة في الجاهلية، وكانت سيفًا مسلطًا من الأزواج علىٰ نسائهم يحرمونهم علىٰ أنفسهم بهذا اللفظ البغيض ويعتبرونهم محرمات عليهم كأمهاتهم أو أخواتهم. ولهذا قضىٰ الإسلام علىٰ تلك العادة السيئة وفي هذا تكريم للزوجات، وجعل عقوبة من يظاهر زوجته كفارة يؤديها بعتق عبد أو جارية له أو صيام شهرين أو إطعام عدد من المساكين حتىٰ لا يعود إلىٰ مثل هذه الفعلة الرذيلة، واعتبر الظهار زورًا ومنكرًا من القول يجب علىٰ الرجال الابتعاد عنه وعدم التعود عليه، ثم أنهىٰ القرآن ما كان للظهار من قوة الطلاق والانفصال وجعله شيئًا ليس في ذلك المستوىٰ، وأنه عمل يستحق الكفارة فقط لأن الرباط المقدس بالزواج أمر فوق الظهار بكثير وليس بينهما علاقة، وبهذا كانت «خولة بنت ثعلبة» صاحبة الفضل في هذا التشريع الذي حفظ للزوجات حقوقهن وحريتهن وسنَّ العقوبة الصارمة لكل من يظاهر زوجته وأنهم ليقولون منكرًا من القول وزورًا.

ولا يفوتنا في هذه المناسبة أن ننوِّه علىٰ تحرير العبيد كان كفارة التحلل من يمين الظهار، وبذلك كان هذا التشريع وسيلة أخرىٰ لعتق العبيد الأرقاء وطريقًا هينًا لبلوغهم حريتهم فداءً لخطيئة أسيادهم.

ثم ما أصدق الرسول الأمين ﷺ عندما أجاب السيدة «خولة» بأنه ليس عنده شيء يفعله من أجلها، وما أرحم الراحمين جل وعلا أن يسمع ذلك الحوار بين خولة والنبي وينزل جبريل عليه السلام إلىٰ النبي بهذا القول الفصل والحكم الشرعي ولا زالت خولة واقفة تكفكف دمعها. وما إن سمعت

قول الله ذلك حتىٰ فرت وتهللت وعادت سريعة إلىٰ زوجها تخبره بأن نزل حكم الله في أمر الظهار وعليه الكفارة قبل أن يتماسا، إن الله بالمؤمنين رؤوف رحيم.

❋ ❋ ❋

السيدة «أسماء بنت أبي بكر الصديق»

لقد كان أبو بكر الصديق ﷺ أول المسلمين من الرجال، وأسلم معه أهل بيته من البنين والبنات وهم: محمد وشقيقته أسماء، وعبد الرحمن وشقيقته عائشة، ونشأوا جميعًا في ظلال الإسلام منذ فجره ونهلوا جميعًا من أنوار النبوة وتعاليمها مما كان له الأثر الأكبر في تنمية روح الفداء والشجاعة والوفاء والذكاء والعلم فيهم، فلقد كان أبو بكر الصديق أول المؤمنين وأكثره إنفاقًا في سبيل الله وشراء العبيد وعتقهم لوجه الله لا يريد جزاءً ولا شكورًا، فلا غرابة أن يشبّ أبناؤه وبناته علىٰ هذه الصورة من الإيمان والفداء والجهاد في سبيل الدعوة للإسلام.

لقد ضربت «أسماء» مثلًا أعلىٰ في الشجاعة عندما هاجر النبي عليه الصلاة والسلام وأبوها واختبأ في غار «ثور» علىٰ بُعد ثلاثة أميال من مكة لمدة ثلاثة أيام، وجاء «أبو جهل» يومئذٍ يسألها عن أبيها ليعرف بذلك مكان النبي، ولكن أسماء أنكرت معرفة مكان أبيها وقالت له: «لا أدري والله أين أبي» فلطمها أبو جهل علىٰ خدها لطمة أطاحت بقرطها[1]، ورغم هذه اللطمة الشديدة لم تبُح بمكان أبيها، وبذلك أنقذت النبي وأبيها من شر أبي جهل والمشركين معه الذين كانوا يبحثون عن النبي ليقتلوه، وعندما كان النبي عليه الصلاة والسلام وأبو بكر في الغار كانت أسماء تأتيهما بالطعام يوميًا متخفية في جنح الظلال، وكان هذا العمل منها مثلًا أكبر للفداء والتضحية والشجاعة، ولم يفتها في هذا العمل الخطير رغم صغر سنها أن تضلل قريش ولا تترك لهم

---

(١) الروض الأنف للسهيلي، تحقيق الشيخ الوكيل، ج٤، ص١٨٤.

أية علامة تدل علىٰ مكان الرسول، فكانت تصحب معها خادمها الذي يرعىٰ الغنم وتسير بحيث تجعل الأغنام من خلفها لتطمس الأغنام معالم قدميها حتىٰ لا تقص العرب لها أثرًا.

ولما مضت ثلاث ليالٍ واستعد الرسول وأبو بكر للرحيل من الغار إلىٰ يثرب وجاءت أسماء لهما بالزاد الذي يكفيهما مدة سفرهما لبضعة أيام وتقدمت إلىٰ إحدىٰ الراحلتين وهي «القصواء» راحلة النبي لتعلق بها الزاد ولما لم تجد ما تربطه به شقت نطاقها- أي حزامها- نصفين علقت بأحدهما الزاد، والآخر شدت به علىٰ وسطها، ولذلك سمَّاها النبي عليه الصلاة السلام بذات النطاقين.

وبعد هجرة الرسول وأبي بكر بأيام جاء «أبو قحافة» إلىٰ منزل ابنه أبي بكر يسأل عن أحفاده وحالتهم بعد أن تركهم أبوهم إلىٰ يثرب، وسأل عما إذا كان أبوهم قد ترك لهم ما يتعيشون به، فأجابت أسماء بأن أباها قد ترك لهم مالًا كثيرًا، وأخذت أحجارًا ووضعتها في خزانة صغيرة في البيت كان يضع فيها أبو بكر أمواله ثم غطت تلك الأحجار بثوب وأخذت بيد جدها لأنه كان ضريرًا ووضعته علىٰ الثوب فتحسسها وظنها مالًا حقًا فقال: لا بأس إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن[1]. مع أن الحقيقة أن أبا بكر قد حمل ماله معه في الهجرة وكان يقرب من خمسة آلاف دينار بعد أن أنفق من ماله قبل الهجرة ما يزيد عن العشرين ألف دينار في سبيل نشر الدعة وإطعام الفقراء من

(١) قالت لا والله ما ترك لنا شيئًا ولكني أردت أن أسكن الشيخ بذلك. الروض الأنف، ج٤، ص١٨٦.

السلمين وشراء العبيد لتحريرهم، وهذه الحادثة الفكيهة بين أسماء وجدها تدل علىٰ ذكائها وسرعة خاطرها في التصرف المناسب للظروف المناسبة.

ولما وصل النبي وأبو بكر إلىٰ المدينة أرسلا من يُحضر بنات أبي بكر وبنات النبي من مكة إلىٰ المدينة، وفعلًا وصلوا بسلام الله بعد أيام قلائل. وتزوجت أسماء في المدينة مباشرة من الزبير بن العوام وهو ابن عمة الرسول وكان عمرها يقرب من الخامسة عشر سنة.

وأنجبت «أسماء» أول مولود للمهاجرين في المدينة وهو «عبد الله بن الزبير» وكان لمولوده فرحة كبرىٰ، فقد زعم اليهود أنهم سحروا المسلمين فلن تلد نساؤهم في المدينة، فلما وضعت «أسماء» وليدها «عبد الله» في السنة الثانية للهجرة فرح به المسلمون عامة، والرسول خاصة، لأنه بذلك قضىٰ علىٰ مفتريات اليهود وأكاذيبهم.

بقيت أسماء زوجة البطل المغوار «الزبير بن العوام» ترقب انتصارات المسلمين تشد من أزرهم، وتربىٰ ابنها «عبد الله» تربية دينية إسلامية قوامها الشجاعة والفداء والصدق والإيمان، ولسنا في مجال الحديث الآن عن زوجها «الزبير بن العوام» الذي خاض المعركة مع سيدنا علي بن أبي طالب في موقعة الجمل أثناء الفتنة بين السيدة عائشة وسيدنا علي، وقُتل الزبير في هذه الموقعة، ولكنا نقصر الحديث علىٰ السيدة «أسماء» فقد عمّرت طويلًا وتجاوزت الكهولة ورأت ابنها «عبد الله» يأخذ مكانة بين المسلمين ويناضل من أجل الخلافة ويعتز بأحقيته فيها عن بني أُمية.

ولقد عارض «عبد الله بن الزبير» الخليفة معاوية بن أبي سفيان عندما طلب البيعة لابنه «يزيد» وظل «عبد الله» ومعه سيدنا «الحسين بن علي»

وغيرهم من أهل مكة لا يعترفون لبني أمية بالخلافة حتىٰ قُتل الحسين في كربلاء، وظل «عبد الله» من بعده علىٰ عهده في عدم الاعتراف لبني أمية بالخلافة، وفي عهد «عبد الملك بن مروان» اجتمع أهل مكة وبايعوا «عبد الله» بالخلافة فأرسل «عبد الملك» جيشًا لمحاربته بقيادة «الحجاج بن يوسف» ودارت الحرب ساخنة بين الفريقين وكانت الكثرة عددًا وعدة في جانب «الحجاج» طبعًا حتىٰ حوصر «عبد الله» في المسجد الحرام بمكة وقُتل من أنصاره العدد الكثير، وأُغري بعضهم بالأموال والمراكز، وأصبح «عبد الله» وحوله فئة قليلة لا قدرة لهم علىٰ مقاتلة جيش الحجاج وهو القائد المعروف بالغلظة والقسوة والتعطش إلىٰ الدماء دائمًا.

وإلىٰ هذا الحد نقف لنبرز موقف «أسماء» وقد كانت المدينة في تلك الأيام الحرجة التي حوصر فيها ابنها الوحيد معتصمًا بجدار الكعبة وكان ذلك في عام ٦٤ هجرية، فشدت الرحال إلىٰ مكة لما علمت ما يعانيه ابنها من بلاء ومأساة، وعند دخولها مكة أسرع إليها «الحجاج» يطلب منها أن تنصح ولدها بتسليم نفسه ويضمن له العفو والحياة الرغدة، فلم تجبه وتوجهت إلىٰ ابنها في داخل الحرم فتلقته بين أحضانها وهدأت من روعه وشدت علىٰ يديه لتعيد إلي ثقته بنفسه وترفع من روحه المعنوية، فقال لها «عبد الله»: يا أماه قد خذلني الناس حتىٰ من كان منهم من خاصة أهلي ولم يبق معي إلا الله وفئة قليلة من أنصاري وها هي جيوش الحجاج تحاصرني وإن قوتي لن تقوىٰ علىٰ مواجهته وإن رسل الحجاج وعبد الله يصلون إليَّ تباعًا يعرضون عليَّ أقصىٰ ما يتمنىٰ المرء من أموال ونعيم ويضمنون ليَّ الأمن والسلامة.

وإلىٰ هذا الحد يتوقف مصير حياة «عبد الله» علىٰ كلمة تخرج من بين شفتي أمه التي يطيعها طاعة عمياء ويسألها النصيحة وهي السيدة المجربة وأمه قبل كل شيء، فهل يا تُرىٰ تتغلب عاطفة الأمومة وتنساق وراء حب البقاء للجنس وتنقذ وحيدها من براثن الموت المحقق. أم يا تُرىٰ بماذا تنصح ابنها في هذا الظرف العصيب الذي يرابط فيه عزرائيل علىٰ قيد خطوات من مكانها، وهنا نسمع قولها «أنت والله يا ابني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك عل حق وإليه تدعو فامض له فقد قُتل علىٰ الحق أصحابك فلا تُمَكِّن من نفسك بني أمية فيلعب برأسك غلمانهم، وإن كنت تري الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك وأهلكت من قُتل معك، وإن قلت كنت علىٰ حق ولما وهن أصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين.. كم خلودك في الدنيا القتل أحسن، قال عبد الله: يا أماه أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني. قالت: يا بني إن الشاة لا تتألم بالسلخ بعد ذبحها فامض علىٰ بصيرتك واستعن بالله.

فقبَّل رأسها وقال: هذا رأيي والذي خرجت به دائمًا إلىٰ يومي هذا ما ركنت إلىٰ الدنيا ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلىٰ الخروج إلا الغضب لله وأن تُستحل حرماته، ولكنني أحببت أن أعلم رأيك فقد زدتني بصيرة فانظري يا أماه فإني مقتول في يومي هذا فلا يشتد حزنك وسلمي الأمر لله، فإن ابنك لم يتعوَّد إتيان منكر ولا عملًا بفاحشة، ولم يجر حكم الله ولم يغدر في أمان ولم يتعمد ظلم مسلم، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي، اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسي ولكني أقوله تعزية لأمي حتىٰ لا تسلو عني.

قالت: لأرجو أن يكون عزائي فيك جميلًا إن تقدمتني احتسبتك، وإن ظفرت سررت بظفرك، اخرج حتىٰ أنظر ماذا يصير أمرك، الله قد سلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت فأثبني فيه ثواب الصابرين الشاكرين، امض علىٰ بصيرتك وادن مني حتىٰ أودع «ودنا منها فتعانقا وقبَّلها».

وامتشق «عبد الله» سيفه وتبعه أنصاره علىٰ قلّتهم وحملوا علىٰ جند الحجاج، ولم يكن هناك تكافؤ في هذه الموقعة التي انجلت سريعًا عن قتل «عبد الله» ومن معه جميعًا، وقد كان عمر «عبد الله» عندئذٍ ٦٣ سنة وكانت هذه المعركة علىٰ مرمىٰ البصر من أمه، ورأته يقع صريعًا فانحنت تُقبله وتضمه إلىٰ صدرها وهو جثة ساخنة تنزف منها الدماء، وأمر الحجاج جنده أن تُنحىٰ أمه وأن تُعلق جثته أيامًا ثلاثة في مكة، وظلت أسماء في مكانها أمام جثمان ابنها المصلوب لم تبرحه، ثم أرسلت إلىٰ الحجاج من يقول له عن لسانها: «أما آن لهذا الفارس أن يترجل».

وبعد ذلك أخذت «أسماء» جثمان ابنها الشهيد ودفنته في مقابر مكة ولم تزرف عليه دمعة بل تحجرت الدموع في مآقيها وانفطر قلبها حزنًا علىٰ وحيدها، وظلت «أسماء» بعد استشهاد ابنها بعض السنوات وماتت بعد أن تجاوزت المائة سنة، وهي مضرب الأمثال علىٰ قوة الأخلاق والعزم والصبر والشجاعة، مضحية بعاطفة الأمومة في سبيل الشرف والحق.

❁ ❁ ❁

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

❋ ❋ ❋



مهندس / أحمد محمد علي عويس الجبالي

ـ من مواليد الشناوية في 3 فبراير 1913 بنى سويف.

ـ التحق سيادته بعد حصوله على الثانوية العامة بتفوق بكلية الهندسة (المهندسخانة) بجامعة القاهرة وتخرج منها عام 1936.

ـ التحق بالعمل بمصلحة المساحة المصرية وتدرج في وظائفها حتي وصل إلى منصب رئيس مصلحة المساحة بمحافظات الأقصر والمنيا والقاهرة وشبين الكوم وأخيرا بدمنهور بالبحيرة.

ـ ونظرا لحاجة الإدارة المحلية في بداية تطبيق قانون الإدارة المحلية الجديد إلى قيادات ذات مستوي كفاءة عالية فتم اختيار سيادته مديراً للمكتب الفني وسكرتيراً عاماً مساعداً لمحافظة البحيرة عام 1962.

ـ ثم رقي للعمل سكرتيراً ونائباً لمحافظة الغربية حتى عام 1968 حتى الإحالة للمعاش.

